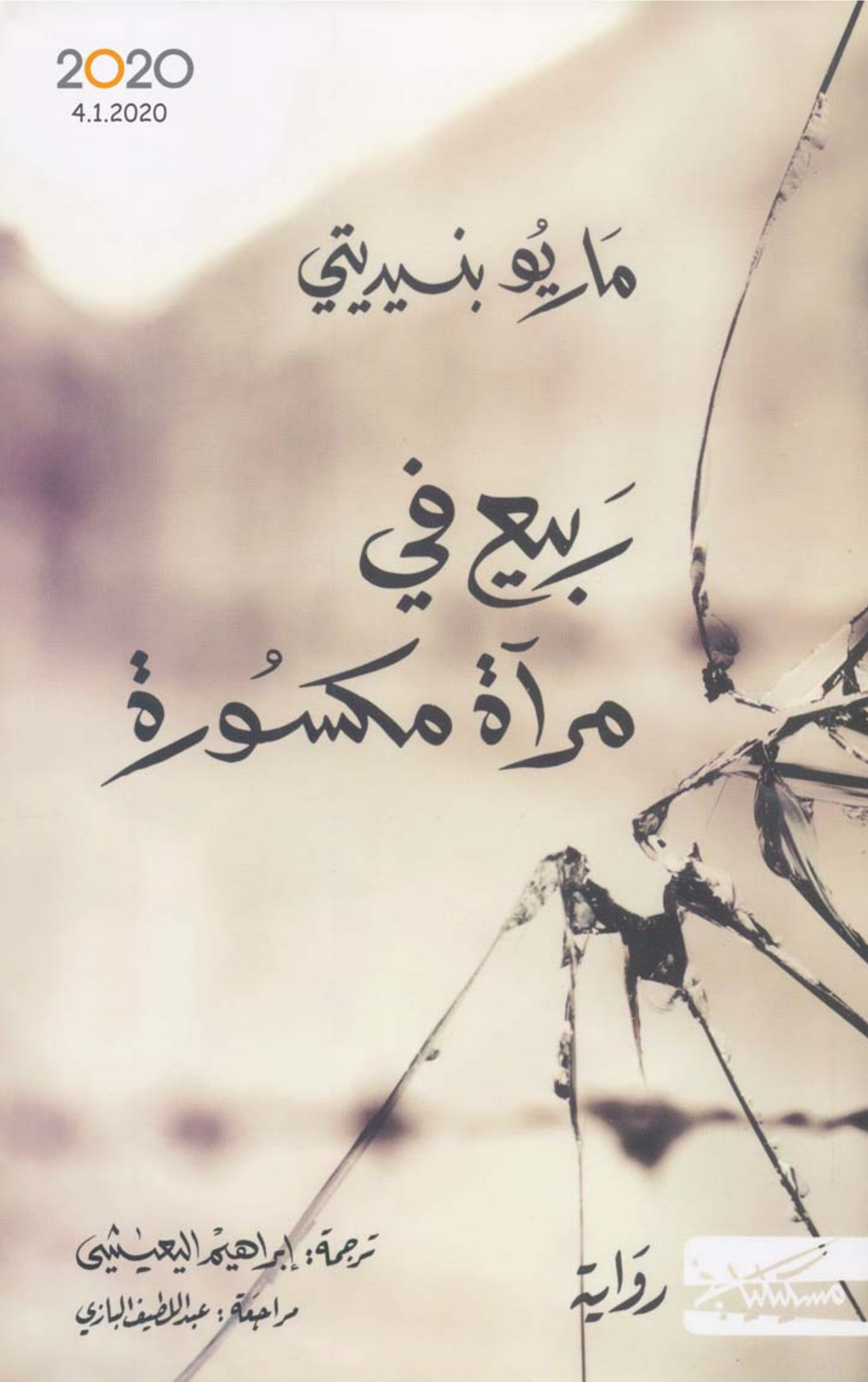

2020
4.1.2020
ماريو بنيديتي
ربيع في مرآة مكسورة
ترجمة: إبراهيم اليعيشي
مراجعة: عبد اللطيف البازي
رواية
مسكلياني

ماريو بنيديتي

ربيع في مرآة مكسورة

ترجمة: إبراهيم اليعيشي

مراجعة: عبد اللطيف البازي



ربيع في
مرآة مكسورة

المؤلّف: ماريو بينيدتي

عنوان الكتاب: ربيع في مرآة مكسورة

ترجمة: إبراهيم اليعيشي

مراجعة: عبداللّطيف البازي

تدقيق وتحرير: رضا الحسني وبلال المسعودي

تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان

خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9938-24-042-9

الطبعة العربية الأولى: 2019



مسكيليانى للنشر والتوزيع

15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة

الهاتف: 21512226(216+) أو 93794788(216+)

الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com

إلى ذكرى أبي (1897 - 1971)

الذي كان كيميائيًّا وشخصًا طيّبًا.

«لو علمتُ أنّني سأموتُ غدًا
وأنّ الرّبيع سيأتي بَعْدَ غد،
سأموتُ سعيدًا، فالرّبيع سيأتي بَعْدَ غد.»

فرناندو بيسوا

«تقويمٌ منتهٍ، مرآةٌ مكسورة.»

راؤول غونثاليث تونيون

خلف الجدران
(أنا وحيد هذه اللّيلة)

أنا وحيدٌ هذه اللّيلة. زميلي، وستعرفينَ اسمه ذاتَ يومٍ، مقيم في المستشفى. هو شخصٌ طيّب، ولكن ليس سيّئًا أيضًا أن يبقى المرْءُ أحيانًا وحيدًا. حينها يُمكنني التّفكير بشكلٍ أفضل، فأنا لا أحتاج إلى وضعِ حاجزٍ لكي أفكّر فيك. ستقولين إنّ أربع سنواتٍ وخمسة أشهرٍ وأربعة عشر يومًا وقتٌ أكثر من كافٍ للتّفكير، وهذا صحيح، ولكنّه ليس وقتًا كافيًا للتّفكير فيك. أنتهزُ الفرصة لأكتب لكِ تحت ضوء القمر، فالقمر يمنحني دَوْمًا شعورًا بالسّكينة. إنّه بمثابة بَلْسَمٍ، ثمّ إنّه يُضيء الورقة أحيانًا، ولهذا أهمّيّته، ففي هذه السّاعة لا يكون لدينا كهرباء. في العامَيْن الأوّليْن لم أكن أرى حتّى نورَ القمر، لهذا أنا لا أشتكي. فهناك دَوْمًا من هو أسوأ حالاً، حسب استنتاج السّجين إسوبو. وهناك دَوْمًا من هو أسوأ حالاً بكثير، أستنتجُ أنا.

إنّه شيءٌ مثيرٌ للاستغراب. حين يكون المرء في الخارج ويتخيّل أنّه سيكون مجبرًا، لسببٍ أو لآخر، على قضاء سنواتٍ عديدة

بين أربعة جدران، فهو يظنّ أنّه لن يتحمّل، وأنّ الأمر سيكون، ببساطةٍ، لا يُطاق. ومع ذلك، فهو أمرٌ يمكن تَحمُّلُه كما ثبت. على الأقلّ، أنا تحمّلتُه. لا أنكر أنّني مررتُ بلحظاتِ يأسٍ، إضافة إلى لحظاتٍ أخرى رافقَت اليأسَ فيها معاناةٌ جسديّة. ولكنّني الآن أقصد اليأسَ الخالص، حين يبدأ الواحد منّا في العدِّ، وتكون النّتيجة هي أنّ هذا اليوم من الاعتقال يتضاعفُ آلاف الأيّام. ومع ذلك، فالجسدُ أقدرُ منَ المعنويّات على التأقلم. الجسدُ هو أوّل من يعتادُ المواعيدَ الجديدةَ، ووضعيّاته الجديدةَ، وإيقاعَ احتياجاته الجديد، وتعبه، ومواعيد راحته الجديدة، وجديد ما يفعل وجديد ما لا يفعل. إن كان لديك زميلٌ، فربّما رأيته في البداية شخصًا دخيلاً، ولكنّه يصير شيئًا فشيئًا أنيسًا. زميلي الحاليّ هو الثّامن. أظنّ أنّني كنتُ على علاقةٍ طيّبةٍ بهم جميعًا. وما يكون مصدر صدامٍ هو أن يتّفق يأسُ أحدنا مع يأس الآخر، إذّاك يُعديكَ بيأسه أو تعديه بيأسك. أو قَدْ يحدث أيضًا أنْ يعترض أحدكما على هذه العدوى بحزم. وحينها تؤدّي هذه المقاومة إلى شجارٍ شفهيّ وإلى مواجهةٍ، وفي هذه الحالات بالتّحديد، لا يشكّل الوجودُ في مكانٍ مغلقٍ عاملاً إيجابيًّا. بل ربّما يزيد من توتّر الأعصاب ويجعل كلّ واحدٍ يتلفّظ بإهاناتٍ ويتفوّه أحيانًا بأشياء لا يمكن إصلاح ما تسببه من أضرارٍ، أشياء يتفاقمُ معناها على الفَوْر لمجرّد أنّ وجود الآخر إجباريٌّ ولا يمكن تفاديه. وإذا ساء الوضع أكثر إلى درجة تعطّل الكلام بين ساكني الزّنزانة، فإنّ تلك الرّفقة المزعجة المتوتّرة تصير أشدّ ضررًا على الواحد منّا وأشبه بالعزلة التّامّة. ومن حسن

حظّي، أنّي لم أعش في هذا التّاريخ الطّويل إلاّ فصلاً واحدًا على هذه الشّاكلة، ولم يَدُم طويلاً. كنّا في غاية الانهيار بسبب إصرار كُلٍّ منّا على الصمت إلى درجةٍ جعلتنا نتبادَلُ النّظرات ذات مساءٍ ونبدأ الحديث في آنٍ واحدٍ تقريبًا. وبعد ذلك سهُل كلّ شيء.

لم تصلني أخبارك منذ قرابة شهرين. لست أسألكِ عمّا يحدث لأنّني أعرف ما يحصلُ وما لا يحصلُ. يقولون إنّ كلّ شيءٍ سيستعيدُ نظامَه من جديدٍ في ظرفِ أسبوع. وليت ذلك يحدُثُ. لا يمكنك أن تتصوّري مدى أهمّيّة وصول رسالةٍ إلى أيّ واحدٍ منّا. حين نخرجُ أثناء الفسحةِ، يُعرَفُ على الفَوْر مَن وصلتهُ رسالة من بيننَا ممّن لم تصلهُ. هناك نورٌ غريبٌ في وجوه أفراد المجموعة الأولى، وإن كانوا يحاولون في كثيرٍ من الأحيان إخفاء سعادتهم حتّى لا يزيدُوا من حزن الّذين لم يحظوا برسائلَ. خلال هذه الأسابيع الأخيرة ولأسبابٍ معروفةٍ اعتلى العبوس وجوهنا جميعًا. وليس هذا بجديدٍ أيضًا، إذ ليست لديّ أيّ إجابةٍ عن أيّ سؤالٍ من أسئلتك، لأنّني، ببساطةٍ، لا أملك أسئلتَك. أمّا أسئلتي فهي، بطبيعة الحال، جاهزة. وهي ليست الأسئلة الّتي تعرفينها سَلَفًا. بالمناسبة لا أريد أن أطرح عليك تلك الأسئلة المعروفة حتّى لا أغريك بأن تقولي لي مثلها تعوّدت، إن على سبيل المزاح أو جديًّا وهو أسوأ بكثير، «الآن لا». كنتُ أريد أن أسألك عن أبي فحسب. فهو لم يكتب لي منذ وقتٍ طويل. وفي هذه الحالة لديّ انطباعٌ بعدم وجود أيّ سببٍ آخر يحول دون استقبال الرّسائل. كلّ ما في الأمر

أنّه لم يكتب لي منذ مدّةٍ طويلة، ولا أعلم السبب. أحيانًا أراجعُ، ذهنيًّا وحسب طبعًا، ما بقي في الذّاكرة ممّا كَتَبْتُه له في بعض رسائلي الموجزة، لكنّني لا أعتقدُ أنّ فيها ما يمكن أن يسبّب له جرحًا. هل ترينه كثيرًا؟ سؤالٌ آخر: كيف هي أحوال بياتريث في المدرسة؟ في رسالتِها الأخيرة أحسستُ ببعض التّضارب في معلوماتها. أتدرين أنّي اشتقتُ إليك؟ على الرّغم من قدرتي على التّأقلم، وهي ليست هيّنة، فهذه إحدى الاحتياجات الّتي لم تتعوّد عليها نفسي ولا جسدي، إلى غاية اليوم على الأقلّ. هل سأعتاد يوما مّا غيابك؟ لا أعتقد. وهل اعتدتِ أنت؟

جرحى ومكدومون
(وقائع سياسيّة)

- غراثييلا -قالت الطّفلة وفي يدها كأس- هل تريدين عصير ليمون؟

كانت تلبس قميصًا أبيض وسروال جينز وصندلاً. شعرُها متوسّط الطّول، أَسْود، مربوطٌ عند الرّقبة بشريطٍ أصفر. وكانت بشرتها ناصعة البياض. تبلغ من العمر تِسْعَ سنواتٍ وربّما عشرًا.

- قلتُ لكِ سابقًا ألاّ تناديني غراثييلا.

- لماذا؟ أليس هذا اسمك؟

- طبعًا هو اسمي. ولكنّني أفضّل أن تناديني أمّي.

- حسنًا لكنّني لا أفهم. أنتِ أيضًا لا تنادينني ابنتي وإنّما بياتريث.

- هذا شيءٌ مختلف.

- المهمّ، هل تريدين عصير ليمون؟

- نعم شكرًا.

تبدو غراثييلا في الثّانية والثّلاثين أو الخامسة والثّلاثين، قَدْ تكون بلغَتْ تلك السّنّ بالفعل. تلبسُ تنّورةً رماديّةً وقميصًا أحمر. شعرها كستنائيّ اللّون. عيناها كبيرتان ومعبّرتان. شفتاها دافئتان، تقريبًا دون أحمر الشّفاه. نزعَتْ نظّارتَها حين تحدّثت مع ابنتِها، لكنّها تعيدُ الآن وضعَهَا من جديدٍ لتستمّر في القراءة.

تضعُ بياتريث كأسَ عصير اللّيمون فوق الطّاولة الصّغيرة حيث توجد منفضتا سجائر، وتخرج من الغرفة. ثمّ تعود بَعْدَ خمس دقائق.

- أمس، تشاجرتُ في الصّفّ مع لوثيلا.

- آه.

- لا يهمّكِ الأمر؟

- تتشاجرين دَوْمًا مع لوثيلا. يبدو أنّها طريقتكما في التّعبير عن حبّكما. أنتما صديقتان، أليس كذلك؟

- أجل، نحن كذلك.

- إذن؟

- في المرّات الأخرى كنّا نتشاجر كما لو أنّنا نلعب، لكنّ شجارنا أمس كان جدّيًّا.

- حقًّا؟

- لقدْ عابَتْ أبي.

تنزع غراثييلا نظّارتَها من جديد. هذه المرّة تُبدي اهتمامًا لما

تسمعُه. وتشربُ عصير اللّيمون دفعةً واحدة.

- قالت مادامَ أبي في السّجن فهو لا محالة شخصٌ منحرف.

- وماذا أجَبْتِ أنتِ؟

- قلتُ لها لا، هو معتقلٌ سياسيّ. ولكن فيما بعد فكّرت في الأمر فخلصتُ إلى أنّني لا أعرف جيّدًا ماذا يعني ذلك. كثيرا مّا سمعتُ العبارة، لكنّني لا أعرف جيّدًا ما تعني.

- ولهذا السّبب تشاجرتما؟

- نعم لهذا السّبب، ولأنّها أخبرتني أيضًا بأنّ أباها يقول في البيت إنّ المنفيّين السّياسيّين يأتون لِسَرِقَةِ فرص العمل من أبناء البَلَد.

- وماذا أجَبْتِ؟

- في هذه المرّة لم أعْرِفْ ماذا أقول لها. عِنْدَها سدّدتُ إليها ضربة.

- يمكن للأب أن يقول الآن إنّ أبناء المنفيّين يَعتدون على طِفْلَته.

- في الحقيقة لم تكن ضربةً مؤلمة وإنّما كانت خفيفة. لكن ردّة فِعْلِها أوهمَتْ بأنّي أوجَعْتُها.

تَنحني غراثييلا لتصلحَ جَوْرَبَها وربّما لتأخُذَ نفسًا أو لتفكّر.

- ليس جيّدًا أن تضربيها.

- أتصوّر ذلك. لكن ماذا كان في وسعي أن أفعل؟

- صحيحٌ أيضًا أنّ أباها ما كان عليه قول تلك الأشياء. هو بالذّات، عليه أن يتفهّمنا بشكلٍ أفضل.

- لماذا هو بالذّات؟

- لأنّه رجلٌ يتمتّع بثقافةٍ سياسيّة.

- وهل أنتِ امرأةٌ تتمتّع بثقافةٍ سياسيّة؟

تضحكُ غراثييلا، تسترخي قليلاً، وتُداعب خصلات شعر بياتريث.

- نعم، قليلاً. لكن يَنْقُصني الكثير.

- ينقصك الكثير لأيّ شيء؟

- لأصبحَ مثل والدِك على سبيل المثال.

- أهو سجينٌ بسبب ثقافته السّياسيّة؟

- ليس بسبب هذا الأمر تحديدًا. بل بسبب وقائع سياسيّة.

- هل تريدين القول إنّ أبي قتل شخصا مّا؟

- لا يا بياتريث. لم يقتل أحدًا. هنالك وقائع سياسيّة أخرى.

تصمتُ بياتريث. تبدو على وشك البكاء ولكنّها مع ذلك تبتسم.

- هيّا أحضري لي مزيدًا من عصير اللّيمون.

- حاضر يا غراثييلا.

السيّد رفائيل
(هزيمة وطريق)

أهمّ شيءٍ هو التّأقلم. أعلم أنّه أمرٌ صَعْب في هذه السّنّ، بل يكادُ يغدو مستحيلاً. ومع ذلك وبعد كلّ شيء، فمنفاي هو أمرٌ يخصّني. وليس سهلاً أن يكون لكلّ شخصٍ منفى خاصّ به. أرادوا إلباسي منفى غريبًا عنّي، لكن عبثًا. فقد حوّلته إلى منفى خاصٍّ بي. كيف حصل ذلك؟ هذه تفاصيل لا تهمّ، لا سرًّا ولا وحيًا، سأقولُ إنّ من الضّروري البدء بالسّيطرة على الشّوارع والزّوايا والسّماء والمقاهي والشّمس والأهمّ من ذلك كلّه، السّيطرة على الظلّ. حين يدركُ المرء الإحساس بأنّ شارعا مّا ليس غريبًا عنه، حينها فقط يتوقّف الشّارع عن النّظر إلى الواحد منّا على أنّه غريب. وهذا حالُ الأشياء كلّها. في البداية كنتُ أمشي بعصا، لعلّها تتناسب مع أعوامي السّبعة والسّتّين. لكنّها لم تكن مسألة عمرٍ وإنّما كانت نتيجةَ خمودِ الهمّة. هناك، كنتُ أسلُك دَوْمًا الطّريق ذاته لأعود إلى المنزل. وهذا ما أشتاق إليه هنا. النّاس لا يفهمون هذا النّوع من الحنين. يعتقدون أنّ الحنين يكون إلى السّماء والأشجار والنّساء، وفي أقصى

الحالات إلى النّضال السّياسيّ وإلى الوطن في الأخير. أمّا أنا فلطالما كان إحساسي بالحنين من نوعٍ آخر، كان أكثر رماديّةً وأشدّ عتمة، كما الشّأن في هذه الأمور: طريق العودة إلى المنزل والهدوء والسّكينة ومعرفتكَ بما يوجد بعد كلّ زاويةٍ وبعد كلّ عمودِ إنارةٍ وبعد كلّ كشك. هنا في المقابل تغمرني الدهشة حين أسيرُ. وتُتعبني المفاجأة، وعلاوةً على كلّ ذلك لم أكن أصلُ إلى البيت وإنّما إلى الغرفة، وأنا مرهقٌ من فرط مفاجأة نفسي، هذا صحيح، وربّما بسبب ذلك تحديدًا لجأت إلى استعمال العصا، لأقلّل من توالي المفاجآت أو ربّما كي يقول لي أبناء وطني الّذين كنتُ أصادفهم: سيّد رفائيل هناك لم تكن تستعمل عصا. وبإمكاني أن أجيبهم قائلاً: حسنًا، أنت أيضًا لم تكن تلبس سترة. مفاجأة بمفاجأة. إحدى تلك المفاجآت كانت تتمثّل في دكّانٍ يبيعُ أقنعةً بألوانٍ صارخةٍ إلى حدّ أنّها تُعمي العين. لم أستطع التعوّد على الأقنعة وإن بقيت كما هي دون أن تتغيّر. ولئن تكرّرت صورتها على حالها فلمّا تنقطع رغبتي -أو ربّما توقّعي- في أن أراهَا وقد تغيّرت. وكلّ يومٍ كنتُ أندهشُ من وجود الأقنعة ذاتها. وعندها كانت العصا تساعدني. لماذا؟ لأيّ شيء؟ ببساطةٍ لأتّكئ عليها كلّما هجمَتْ عليّ خيبة الأمل في كلّ تلك المساءات، أعني حينما كنتُ أتحقّق من عدم تغيّر الأقنعة. عليّ أن أعترفَ أنّ توقّعي لم يكن في غاية العبثيّة لأنّ القناع ليس وجهًا، إنّه شيء مُصطنع. أليس كذلك؟ الوجه لا يتغيّر إلاّ عند وقوعِ حادث. أقصد في هيئته لا في تعبيره، فالتّعبير قابلٌ للتغيّر بطبيعة الحال. وفي مقابل ذلك بإمكان القناع أن يتغيّر لآلاف الأسباب.

لنقل مثلاً: للتّجريب وللاختبار وللتّعديل وللتّحسين وللتّقبيح وللاستبدال. بعد مرور ثلاثة أشهرٍ فقط فهمتُ أنّه لا يمكنني انتظار أيّ شيءٍ من الأقنعة. لن تتغيّر تلك المكابرة ولا ذلك العناد. وبدأت التّركيز على الوجوه. وكان التّغيير في النّهاية جيّدًا. فما كان للوجوه أن تتكرّر، كانت تأتي في اتّجاهي، وعندها تركتُ العصا. إذْ لم يَعُدْ هناك داعٍ للاتّكاء عليها من أجل تحمّل وقع الاندهاش. ربّما لن يتغيّر كلّ وجهٍ بمرور الأيّام وإنّما بمرور السّنوات. لكنّ الوجوه الّتي تُطالعني جديدة دَوْمًا، باستثناء متسوّلةٍ خجول، ناتئة العظام. ومعها تأتي كلّ الشّرائح الاجتماعيّة، على مَتْن سيّاراتٍ فاخرةٍ وأخرى متواضعة، على مَتْن حافلاتٍ أو على مَتْنِ كراسٍ متحرّكة، أو ببساطةٍ وهي تمشي. لم أعد أشتاقُ إلى طريقي الّتي اعتدتُ أن أعودَ منها إلى المنزل في العاصمة مونتيفيديو، الطّريق الّتي سبق أن ذكرتُها. فقد كانت هناك طرقٌ جديدة في المدينة الجديدة. وبين الطّرق الجديدة والهزيمة قرابةٌ، أعرفُ ذلك. وهزيمتنا لن تكون مطلقةً، ولكنّها على كلّ حالٍ هزيمة. لقد استوعبتُ الأمر ولكنّني تيقّنت منه وأنا معلّم، في أوّل حصّة درّستها. وقفَ تلميذٌ واستأذن في طَرْحِ سؤال. وسألَ: مُعلِّم، لماذا تحوّل بلدك بكلّ هذه السّرعة من ديمقراطيّةٍ ليبراليّةٍ مستقرّةٍ إلى ديكتاتوريّةٍ عسكريّة؟ طلبتُ منه ألاّ يُناديني بمعلِّم. لم يكن ذلك من عاداتنا، ولكنّني طلبتُ منه ذلك فقط لِكَيْ أرتّبَ الإجابة. وقلتُ له ما هو معروف: إنّ العمليّة بدأت قَبْلَ ذلك بكثير، ليس في الاستقرار وإنّما في باطنِ الاستقرار. وأخذتُ أكتبُ على السّبّورة الكبيرة العناوين المختلفة

والمراحلَ والمميّزات والنّتائج. وافقَ الصّبيّ على ما قُلته، وقرأتُ في عينَيْه المتفهّمتَيْن كلّ أبعاد هزيمتي وطُرقي. ومنذ ذلك الحين وأنا أعود كلّ مساءٍ إلى بيتي عبر طريقٍ مختلفة. لم أعد أرجعُ الآن إلى غرفةٍ ولا إلى منزلٍ أيضًا، إنّها ببساطةٍ شقّةٌ صغيرة، شيءٌ شبيهٌ بمنزلٍ لا غير: غرفةٌ ومُلْحقاتها. لكنّ المدينة الجديدة تُعجبني. وَلِمَ لا؟ فلأهلِها -من حُسن الحظّ- عيوبهم. شخصيًّا أجدُ تخصّصي فيهم أمرًا في غاية التّسلية. لهم مزاياهم طبعًا، ولكنّها عُمومًا تجعلُ المرْءَ يملّ. أمّا العيوبُ، فلا. فالتكلّف مثلاً منطقةٌ مدهشةٌ لم أستطع أبدًا أن أتخصّص فيها. ودون الذّهاب بعيدًا، كانت عصاي إشارة إلى التّكلّف ومع ذلك كان عليّ أن أتخلّى عنها. حين أحسّ بأنّني متصنّعٌ أحتقرُ نفسي قليلاً وهذا أمرٌ سيّءٌ جدًّا. فليس من الجيّد مُطلقًا أن يحتقرَ الإنسان نَفْسَه، إلاّ إذا وُجدتْ أسبابٌ تبرّر ذلك، وهذه ليست حالَتي.

منـاف
(حصان أخضر)

قبل ستّة أشهرٍ انزلَقَتْ رجلاه في غرفةٍ مغلقةٍ بفندقٍ في مدينة أخرى، وارتطمَ رأسُه بتلك الأرضيّة بعُنف. ونتيجةً لهذه السّقطة انفصلَت شبكيّةُ عَيْنِه والآن أُجريَتْ لهُ عمليّة. وحسب تعليمات الطّبيب كان يجبُ عليه أن يظلّ مُستلقيًا خمسة عشر يومًا وعيناه مضمّدتان، أي أنّه سيعتمدُ كليًّا على زوجته خلال هذه الفترة. كان الطّبيب الجرّاح يأتي كلّ 72 ساعة ليُعاين العين الّتي أجْرِيَتْ لها العمليّة ويتحقّق من أنّ كلّ شيءٍ على ما يرام، ثمّ يُعيد تضميدها. وكان من المستحسن ألاّ يستقبلَ الزوّار خلال الأسبوع الأوّل على الأقلّ لينعم بالهدوء التامّ. ولكن بإمكانه الاستماع إلى الرّاديو والمسجّل، والردّ على الهاتف بطبيعة الحال.

لم تكن أخبار الرّاديو مملّةً فحسب، كما يحدثُ في فترات الاستقرار، وإنّما كانت تسبّب القشعريرةَ أحيانًا، وكان من المعتاد في يناير عام 1975 ظهور عشر جثثٍ أو اثنتي عشرة جثّةً يوميًّا في مزابل الميناء. وبين كلّ نشرةِ أخبارٍ وأخرى، كان يتسلّى بالاستماع إلى

أغاني شيكو بواركي وفيغليتي وناتشا غيبارا وسيلبيو رودريغيث بالإضافة إلى تروتة شوبرت أو إحدى رباعيّات بتهوفن.

كانت له تسليةٌ أخرى تتمثّل في أن يقترحَ على نَفْسِهِ صورًا، وقد صارت هذه التّسلية أكثر نشاطاته السّلبيّة سحرًا، فهي تتضمّن عنصرًا إبداعيًّا دون شكّ. وعلى أيّ حالٍ، هي أكثر أصالةً من تسجيل الصّور تسجيلاً بصريًّا آليًّا مثلما يُقدّمها الواقع. الآن، لم يَعُد الأمر كذلك. الآن هو نفسه من يُبدع هذا الواقع ويستدعيه، فيظهر بكلّ تقاطيعه وألوانه في الجدار الدّاخليّ من عينيْه المغلقتَيْن.

كانت اللّعبة محفّزةً على التّفكير، مثلاً: الآن سأخلق حصانًا أخْضَر تحت المطر، وَلْيَظْهر تحت جفونه السّاكنة. لم يكن يجرؤ على أن يُصدر أمرًا للحصان بأن يخبّ أو بأن يركض، لأنّ تعليمات الطّبيب كانت واضحة: يجب ألاّ يحرّك بُؤْبُؤَه. ولم يكن يعرفُ جيّدًا في اكتشافه الجديد إن كان البُؤبؤ المغلق سيحسّ بإغراء متابعةِ عَدْوِ الحصان الأخضر أمْ لا. لكن في المقابل كان يمارسُ حرّيّته المطلقة في تصوّر لوحاتٍ ثابتة. لِنَقُل: ثلاثة صِبْيَةٍ، أشقران وزنجيّ كما في إعلانات الشّركات الأمريكيّة الاحتكاريّة الضّخمة، الأوّل يحملُ مزلجةً، والثّاني يحملُ قطًّا والثّالث مِقْبَضَ كُرة. ولمَ لا يتخيّل أيضًا فتاةً عارية؟ سيختارُ مقاساتها بكلّ عنايةٍ قبل أن يحدّد صورتَها. أو يتخيّل صورةً بانوراميّةً لأحد شواطئ العاصمة مونتيفيديو، في منطقةٍ تملؤها المظلاّت الشّمسيّة ذات الألوان الحيّة، وأخرى في المقابل شبه خاليةٍ، بها رجلٌ عجوزٌ ملتحٍ، يلبسُ سروالاً قصيرًا،

مصحوبًا بكلبٍ يراقبُ سيّدَهُ في وفاءٍ شديد.

حينها رنّ الهاتف، فمدّ يده بيسرٍ. كانت صديقةً جيّدة وهي تعرفُ بطبيعة الحال كلّ شيء عن العمليّة، لكنّها لم تسأل عما صارت عليه صحّته، ولا إذا ما كانت الأمور على ما يرام. كانت تعرف أيضًا أنّ شقّة لاس هيراس وبويريدون لم تكن تطلّ على الشّارع، وأنّ شبّاك الحمّام الصّغير لا يمكّن إلاّ بعسرٍ من رؤية ثلاثة أمتارٍ من السّاحة أو أربعة ومع ذلك قالت: أُهاتفكَ لكي تُطلّ من الشّرفة فقط وترى جماليّة الموكب العسكريّ الّذي يمرّ من أمام بيتكَ وأغْلَقَتْ الخطّ. إذّاك طَلَبَ من زوجته أن تنظرَ عبر شبّاك الحمّام، متوقّعًا عمليّة مداهمة.

«يجبُ حَرْق بعض الأشياء»، قال وهو يتخيّل نظرةَ زوجته القلقة. ورغم الطّابع الاستعجاليّ للأمر حاولَ أن يهدّئ من روعها قليلاً: «ليس لدينا أيّ شيءٍ سرّيّ، لكن إذا دخلوا هنا ووجدوا أشياء يمكن الحصول عليها من أيّ كشكٍ مثل قصص تشي غيفارا أو إعلان هافانا الثّاني، ولا أقول فانون أو غرامشي أو لوكاش لأنّهم لا يعرفون من هُم، أو بعض الأعداد من مجلّة «نضال» أو الجريدة اليوميّة «أخبار»، فهذا وحده كافٍ لنواجهَ مشاكلَ عديدة».

أخذت زوجته تُحرِقُ الكتب والجرائد، وهي تُلقي نظرات مشتّتة نحو السّاحة. كان ينبغي فتح نوافذ أخرى، مثل النّافذة المُطلّة على الحديقة الخلفيّة، والنّافذة الفاصلة بين العمارتَيْن، ليتمكّنا من إخراج الدخان ورائحة الحريق من البيت. وهكذا كان يحاول

أن يوجّهها خلال عشرين دقيقة: «انظري إلى الرّفّ الثّاني، الكتابَيْن الرّابع والخامس من اليسار، هناك كتاب «علم الجمال والماركسيّة» في مجلّدَيْن، أترَيْنَه؟ حسنًا في الرّفّ السّفليّ هناك كتابان: «قصص الحرب الثّوريّة» و«الدّولة والثّورة»».

وسألَتْهُ هي أيضًا عمّا إذا كان يجبُ حرق كتابَيْ «السّينما الاشتراكيّة» و«ماركس وبيكاسو» كذلك. فأخبرَها بضرورة حرق الكتب الأخرى أوّلاً. أمّا الكتابان الأخيران فيمكن للمَرْءِ الدّفاع عن نفسه بشأنهما. «لا ترمي الرّماد في القمامة. حاولي استعمال الحمّام». سبّب له الدخان بعض السّعال. «ألن يؤذي ذلك عينيك؟» «ربّما، لكن يجبُ اختيار أقلّ الأضرار، بالإضافة إلى أنّني لا أعتقد أنّه قد يؤذي عينيّ. فهما مُضمّدتان جيّدًا».

رنّ الهاتف من جديد. إنّها الصّديقة نفسها مرّةً أخرى: «كيف الحال؟ هل أعجبك الاستعراض؟ من المؤسف أنّه انتهى مبكّرًا، أليس كذلك؟» «نعم» ردّ وهو يتنفّس بعمقٍ «كان رائعًا. ياله من انتظامٍ وَيَالَهَا من ألوانٍ وَيَالَهَا من أناقة. منذ كنتُ طفلاً صغيرًا وأنا أحبُّ استعراضات الجنود. شكرًا على إخباري بالأمر».

«حسنًا، لا تُحرقي المزيد، اليوم على الأقلّ. لقد عادوا أدراجَهم» هي أيضًا تنفّست الصّعداء، فجمعت الرّماد المتبقّي بالمجرفة وألقته في الحمّام وسحبَت المضخّة، وظلّت تُراقب الماء وهو يجرفه، ثمّ غسلَتْ يدَيْها وعادت لتجلسَ مسترخيةً هذه المرّة قرب السّرير. استطاع الإمساك بيدها «غدًا نُحرق البقيّة»، قالت بهدوء. فردّ «هذا

يحزنني. أحتاج إلى هذه النّصوص بين فينةٍ وأخرى».

عندها حاولَ أن يفكّر في الحصان الأخضر تحت المطر. لكنّه لم يعرف بالضّبط لماذا أصبح لون الحصان الآن أسْوَدَ داكنًا، ويمتطيه فارسٌ قويٌّ يلبَسُ قبّعةً عسكريّةً وليس له وجه. على الأقلّ هو لم يستطع تمييز وجه الفارس في جدار جفنَيْه الدّاخليّ.

بياتريث
(الفصول)

الفصول هي، على الأقلّ، شتاءٌ وربيعٌ وصَيْف. الشّتاء مشهورٌ بارتداء اللفاعات وبالثّلج. وحين يرتجفُ العجائز في الشّتاء يُقال إنّهم يرتعشون. أمّا أنا فلا أرتعشُ لأنّني طفلة ولستُ عجوزًا، ثمّ إنّني أجلس بالقرب من المدفأة. في شتاء الكتب والأفلام هناك مزالج، لكنّها لا توجد هنا. وهنا أيضًا لا يوجد ثلج. ياله من شتاءٍ مملّ! ومع ذلك، هناك رياحٌ عاتيةٌ نشعر بها تلسع الأُذُنَيْن خصوصًا. جدّي رفائيل يقول أحيانًا إنّه سينسحبُ إلى مخدعه الشّتويّ، ولا أعرف لماذا لا ينسحبُ إلى مخدعه الصّيفيّ؟ لديّ انطباعٌ بأنّه سيرتعش في مخدعه الشّتويّ، لأنّه مسنٌّ جدًّا. يجب ألاّ نقول «عجوز» أبدًا وإنّما «مُسنّ». أحد زملائي في الصّفّ يقول إنّ جدّته عجوزٌ خَرِفَةٌ. فعلّمته أنّ عليه أن يقول، في كلّ الأحوال، إنّها مُسنّةٌ خرفة.

فصلٌ آخرُ مُهمّ، هو فصلُ الرّبيع. أمّي لا تُحبّه، ففي هذا الفصل تمّ إلقاء القبض على أبي. وبما أنّ الأوان كان ربيعًا فقد كان يلبس قميصًا أخضر حين ألقوا القبض عليه.

في فصل الرّبيع تحدثُ أشياء جميلة كأن يُعيرني صديقي أرنولدو المزلج. وبإمكانه أن يُعيرني إيّاه في الشّتاء أيضًا ولكنّ غراثييلا لا تسمح لي بالتّزحلق إذ تقولُ إنّني أُصابُ سريعًا بالزّكام. وليس في صفّي أيّ طفلٍ آخر لديه هذه القابليّة للإصابة بالزّكام سريعًا. غراثييلا هي أمّي. وهناك شيءٌ لطيفٌ آخر يحملهُ فصل الرّبيع هو الزّهور.

أمّا فصل الصّيف فهو بطلُ كلّ الفصول، ففيه تشرقُ الشّمس وتغيبُ الدّراسة. ولا شيء يرتجفُ في هذا الفصل إلاّ النّجوم. كلّ الكائنات الحيّة تتعرّق في الصّيف. والعرق شيءٌ رطب. أمّا عندما يتعرّق المرء في الشّتاء فهذا يعني أنّ لَدَيْه التهابًا رئويًّا. في الصّيف يتعرّق جبيني. وفي الصّيف أيضًا يذهب الهاربون من العدالة إلى الشّاطئ لأنّهم حين يرتدون ملابس البحر لا يمكن لأحدٍ أن يتعرّف عليهم. في الشّاطئ لا أخافُ الهاربينَ من العدالة، ولكنّي أخافُ الكلاب والأمواج. صديقتي تيريسيتا لم تكن تخشى الأمواج، لقد كانت شجاعةً ولكنّ هذا لم يحصّنها من أنّها كادت تَغْرَق ذات مرّة، وكان على أحد الرّجال إنقاذها. والآن صارت هي أيضًا تخشى الأمواج لكنّها مازالت لا تخافُ الكلابَ.

غراثييلا، أمّي، لا تتوقّف عن القَوْل إنّ هناك فصلاً رابعًا يُسمّى فصل الخريف. وأنا أقول لها «ربّما»، لكنّني لم أره مطلقًا. هي تقول إنّ الأوراق اليابسة المتساقطة من الأشجار تكثرُ في الخريف. ومن الجيّد أن تكون هناك وفرةٌ لأيّ شيءٍ حتّى ولو

كان في الخريف. أمّا أنا فأراه أشدّ الفصول غموضًا لأنّ الجوّ لا يكون باردًا ولا حارًّا، وعندها يحتار المرء في ما عليه أن يرتدي من الثياب. ربّما لهذا السّبب تحديدًا لا أعرف مطلقًا متى أكون في فصل الخريف. إن لم يكن الجوّ باردًا أظنّ الفصل صيفًا، وإن لم يكن حارًّا أظنّه فصل الشّتاء. وأكتشف في الأخير أنّه كان فصل الخريف. لديّ ملابس للشّتاء، للصّيف، وللرّبيع، لكن يبدو لي أنّها لن تصلح لفصل الخريف.

لقد حلّ فصل الخريف للتوّ في المكان الّذي يَقْبَعُ فيه أبي الآن، وقد كتبَ لي في رسالةٍ أنّه سعيدٌ جدًّا لأنّ الأوراق اليابسة تمرّ من بين قضبان الزّنزانة الحديديّة فيتخيّلها رسائلَ منّي إليه.

خلف الجدران
(كيف حال أشباحك؟)

اليومَ دقّقت النّظر إلى بقع الحائط. وهي عادةٌ ترجع إلى أيّام طفولتي. كنتُ في البداية أتخيّل هذه البقعَ وجوهًا وحيوانات وأشياء أخرى، وبعد ذلك أبتكرُ حالات خوفٍ أو حتّى رعبٍ متعلّقة بها. أمّا الآن فمن الجيّد تحويلها إلى أشياء أو إلى وجوهٍ دون الشّعور بالفزع. ولكن هذا الأمر يسبّب لي في الوقت ذاته بعض الحنين إلى ذلك العمر البعيد، حين كانت ذروة الخوف متأتّيةً من بقع شَبَحِيّةٍ صنعَها المرء بنفسه. غير أنّ دوافع الخوف الشّديد الّذي سيأتي فيما بعد، أو ربّما أعذارُه المتعدّدة، لم تعد شبحيّةً وإنّما حقيقيّةً بشكلٍ لا يُطاق. ومع ذلك نحن نضيفُ إليها في بعض الأحيان أشباحًا من صنعنا الخاصّ. أليس كذلك؟ بالمناسبة، كيف حال أشباحك؟ امنحيها البروتينات لِكَيْلاَ تضعف. فلا قيمة لحياةٍ بلا أشباح، حياةٍ كلّ شخوصها من لحمٍ ودم.

أعود إلى البقع، لقد كان زميلي مستغرقًا في قراءة رواية «بيدرو بارامو» ومع ذلك قاطعتُه لأسأله عمّا إذا سبق له أن انتبه لإحدى

البقع الّتي سَبّبَتْهَا في الغالب الرّطوبة، وهي قريبةٌ من الباب. قال «ليس هذا بالتّحديد، لكن بعد أن قلتَ ذلك، أجدُ كلامكَ صحيحًا، هناك بقعة. لماذا؟» وعلَتْ وجهَه علاماتُ الاندهاش والفضول. عليكِ أن تفهمي أنّ المرء حين يكون بين أربعة جدرانٍ يَبْدُو لَهُ كلّ شيءٍ مثيرًا للاهتمام. لا أقول لكِ ما يعنيه أن نميّز سريعًا عصفورًا بين القضبان الحديديّة، أو أن يصبحَ فأرٌ صغير، محاورًا في ساعة صلاة الملاك، وهو ما حصل لي في زنزانةٍ سابقة، أو «في ساعة ظهور الشّيطان» على حدّ تعبير سونيا، أتذكرين؟ المهمّ، قلتُ لزميلي إنّني سألته لاهتمامي بمعرفة ما إذا كان بإمكانه أن يتعرّف على شكل مّا، في هذه البقعة، بشريّ أو حيوانيّ أو جماد. فتمعّنها برهةً ثمّ قال: «وجه ديغول»، فظيع. أمّا أنا فقد ذكّرتني بشكل مظلّة. قلتُ له ذلك فأخذ يضحك قرابة العشر دقائق. وهذا من أفضل ما يحدثُ للمرء حين يكون هنا: الضّحك. لا أدري، إذا ما كان المرء يضحك برغبةٍ حقيقيّة، إذ يبدو كما لو أنّهم أعادوا إليه روحه فجأةً، كما لو أنّ هناك أسبابًا للتّفاؤل فجأةً، أو كما لو أنّ كلّ هذا اكتسبَ معنى. على المرء أن يُعالج نَفْسَه بالضّحك لتفادي الأمراض النّفسيّة، لكنّ المشكلة هنا، ويمكنكِ أن تتخيّلي ذلك، تكمن في أن لا وجود لأسبابٍ كافيةٍ للضّحك. على سبيل المثال: حين أفكّر في الوقت الّذي مرّ دون أن أراكم فيه: أنتِ وبياتريث وأبي، وخصوصًا حين أفكّر في الوقت الّذي يجب أن يمرّ قبل أن أعاود رؤيتكم، حين أقيس قيمة هذا الوقت، لا أجدُ أيّ دافعٍ للضّحك، ولا للبكاء أيضًا. على الأقلّ أنا لا أبكي. لكنّني

لست فخورًا بهذا الإمساك العاطفيّ. أعرف كثيرين هنا يُخرجون مناديلهم فجأةً ويُجهشون بالبكاء دون عزاءٍ خلال نصف ساعةٍ وبعد ذلك يعودون من تلك البئر بحالةٍ أفضل وبرباطةِ جأش، كما لو أنّ هذا الفَيْض النّابع من مكنون القلب يمكّنهم من تمالك أنفسهم. ولهذا فأنا أتحسّر أحيانًا على عدم امتلاك هذه العادة. لعلّي أخاف أن أضعف، وأن تكون النّتيجة الشّخصيّة ارتباكًا عوض السّيطرة. وبما أنّي أشعر دَوْمًا بخلل مّا في قواي العقليّة، فهذا لا يجعلني أجازفُ حتّى لا تتفاقَم حالتي. وإن شئتِ الصّراحة، فأنا لا أبكي لأنّني خائفٌ من أن أضعف وإنّما ببساطةٍ لأنّي أضعتُ الطّريق إلى البُكاء، وقد أضاعَت الدّموع أيضًا طريقها إلى عينيّ. وهذا لا يعني أنّني لا أعاني من ضيق الصّدر ومن القلق وأشكالٍ أخرى لتزجية الوقت. سيكون أمرًا غير طبيعيٍّ ألاّ أعاني منها في هذه الظّروف. لكن لكلّ امرئٍ أسلوبه. وأسلوبي هو أن أحاول التّعافي من هذه الأزمَات الصّغيرة عن طريق التّحليل المنطقيّ. وفي أغلب الأحيان أستطيع الوصول إلى ذلك، ولكن في المقابل هناك مرّاتٌ أخرى لا ينفع فيها أيّ منطق. سأعارض نسبيًّا تلك القولة الكلاسيكيّة (لا أدري من كان صاحبها) وسأقول لك: أحيانًا تكون للعقل هواجس داخليّة، لا يفهمها القلب نفسه. حدّثيني عن نفسك، عمّا تفعلين، وعمّا تفكّرين فيه، وما تحسّين به. كم أتمنّى لو أستطيع السّير في الطّرقات الّتي تمشين فيها الآن، حتّى يكون لنا هناك شيءٌ مشتركٌ أيضًا. هذه إحدى مساوئ قلّة السّفر. أنت نفسك، لو لم تمرّي بكلّ تلك الظّروف المفاجئة، لما سافرتِ

إلى تلك المدينة وإلى ذلك البلد قطُّ. ربّما، لو ظلّت الأمور على مسارها الطبيعيّ (الطبيعيّ؟) في حياتنا وفي زواجنا وفي مشاريعنا الّتي كنّا نُخطّط لها قبل سبع سنواتٍ فقط، لكنّا جمعنا ذات يومٍ المال الكافي للقيام برحلةٍ طويلة، لا أتحدّث عن الرّحلات القصيرة إلى بوينس آيرس، وأسونسيون أو سانتياغو. هل تتذكّرين؟ لكنّ الوجهةَ آنذاك ستكون بالتّأكيد إحدى عواصم أوروبا: باريس، مدريد، روما أو ربّما لندن. كم يبدو كلّ هذا بعيدًا. أنزلنا هذا الزّلزال أرضًا، على هذه الأرض. والآن كما تَرَيْن إذا كان عليكِ الخروج فستخرجين إلى بلدٍ آخر في أميركا اللاّتينيّة. وهذا منطقيّ. فحتّى المقيمون اليوم لأسبابٍ مختلفة في ستوكهولم أو باريس أو بريتشا أو أمستردام أو برشلونة يرغبون بالتّأكيد في أن يحلّوا بإحدى مُدننا. وبعد كلّ شيء، أنا أيضًا بقيتُ خارج البلد. أنا أيضًا أحنّ إلى ما تحنّين إليه. المنفى، داخليًّا كان أمْ خارجيًّا، هو الكلمة المفتاح في هذا العقد من الزّمن. أتعرفين، من المحتمل أن يَشطب أحدهم هذه الجملة. لكن على كلّ من سيقوم بذلك أن يدركَ أوّلاً أنّه بطريقةٍ غريبةٍ أو بأخرى، قد يُصبح هو أيضًا منفيًّا من البلد الحقيقيّ. وإذا ما نَجَت الجملة من يد الرّقابة، ستكونين قد انتبهتِ إلى مدى تفهّمي. أنا نفسي أندهشُ من نفسي. إنّها الحياة، إنّها الحياة يا صغيرتي. وإن لم يُكتب لها النّجاة، فلا تقلقي. فهي لم تكن مهمّة. قَبّلي نفسَكِ كثيرًا نيابةً عنّي.

الآخر
(شاهد وحيد)

«اللّعنة، يا لهذه الهالة السّوداء حول العينَيْن»، قال رولاندو أسويرو لنفسه أمام المرآة الصّدئة. «أستحقّ ذلك لأنّي شربتُ كؤوسا كثيرةً»، أضاف وهو يحاول أن يفتح عينيهِ وِسعهُمَا ، فلم يرَ في أساريره غيرَ ملمحَ معتوه. «أيّها القرد»، قال ذلك ببطءٍ وكان عليه أن يبتسم رغم ما يحسّ به من خمار. هكذا كان سيلفيو يسمّي العسكريّين في ذلك الوقت، حين يجتمعون في المقصف الصّغير التّابع لمنتجع سوليس، قُبَيْل أن يُصبح المستقبلُ، في الحقيقة، كريهًا. ولم يكونوا، حسب تشخيصه، حتّى غوريلاّت، بل ليس أكثر من قردةٍ ضخامِ الجسم. وإضافةً إلى ذلك فهم معتوهون، أي باختصارٍ: قردةٌ معتوهون.

كان الأربعة قد اجتمعوا: سيلفيو ومانولو وسانتياغو وهو، خلال الإجازة الأخيرة الّتي استمتعوا بها، مصحوبين بالنّساء، أقصد الزّوجات. في الواقع كانت هناك ثلاثٌ فقط: ماريا ديل كارمن، تيتا، وغراثييلا، لأنّ رونالدو أسويرو، ظلّ عازبًا محترفًا،

ولم يكن يرغبُ مطلقًا في مزج برامجه العرضيّة بعلاقاتِ أصدقائه الّتي كانت تبدو مستقرّةً بشكلٍ ملموس. وبما أنّ للنّساء عاداتهنّ الخاصّة دَوْمًا: الأقاويل والموضة والأبراج ووصفات الطّعام، على الأقلّ في تلك الفترة، فغالبا مّا كان الرّجال يجتمعون بمفردهم تقريبًا ليحلّوا مشاكل العالم. وهم يتوفّقون في قدرٍ كبيرٍ من تلك المهمّة. سيلفيو على سبيل المثال، طيّب لكنّه في غاية السّذاجة، إذ كان يؤكّد أنّه لن يقدر أبدًا على الإمساك بمسدّسٍ، ومع ذلك فقد حملَه فيما بعد، وصوّبوه نحوَه أيضًا، ولهذا فهو الآن موجود في مكانٍ يُدعى «الغوص»، يقع، لمزيد من التّفاصيل، في مقبرةٍ أسريّةٍ يملكُه حَمَوَاهُ الحزينان بالرّغم من غناهما. أمّا البدينةُ ماريا ديل كارمن فتقيم في برشلولة مع طفلَيْن، تبيعُ الأواني في شارع لارامبلا أو في أيّ زاويةٍ يتركونها فيها. كان مانولو لاذعًا وحادًّا وقارصًا: ثلاث كلماتٍ متقاربة ولكنّها لم تكن تعني الشّيء نفسه في توصيف حالته بدقّة، وإنّما كانت بمثابة متاريس لإخفاء خجله. والدّليل على ذلك أنّه لم يكن في تعامله معهم يتجاوز حدوده أبدًا، وكان يغدو في الأخير وديعًا ومتفهّمًا دومًا. قبّعةٌ ومنديلٌ مربوطٌ بالعنق ونعلٌ من الحلفاء ونظرةٌ لا متناهية. باستثناء القبّعة، فأغنية التّانغو تلك يمكن أن تكون كلماتها بمثابة صورةٍ له. سانتياغو جادّ بالتّأكيد، لكنّه شخص طيّب أساسا، له معرفةٌ بعِلْمِ النّبات والماركسيّة وبجمع الطّوابع البريديّة وبالشّعر الطّليعيّ. وكان مع كلّ هذا سجلاً حيًّا لتاريخ كرة القدم. ولا يكتفي فقط بالإشارة إلى هدف بيينديبيني في مرمى الحارس العظيم زامورا، أو الجملة

الشّهيرة «هذه كُرَتُك يا هكتور!» الّتي ارتبطَتْ بالألعاب الأولمبيّة، وقد تحوّلت تلك الحكاية إلى جزءٍ من الفلكلور. وبالإضافة إلى ذلك، كانت ذاكرة سانتياغو تحتفظ بكل الأرقام القياسية المتعلّقة بالزوج نازاسي/ دومينغوس، في مختلف المباريات التي خاضاها، فقد كان مهووسًا بهما حتّى النخاع، أو بتسديدة بيروشو بيتروني الأخيرة، أثناء تلك الفترة الّتي كانت فيها ثماني رمياتٍ من كلّ عَشْرٍ موجّهةٍ إلى المرمى تُعانق زرقةَ السّماء بعيدًا عنه، ولكنّ التّسديدتَيْن الأخريَيْن كانتا حاسمتَيْن في تغيير نتيجة المباراة، وكأنّ الأمرَ يتعلّق بمعجزة. ولكي يثبتَ أيضًا أنّه ليس متحيّزًا، قَصَّ عليهم كيف أنّ النّحيف شيافينو كان عبقريًّا حتّى دون كرةٍ وتلك هي المهمّة الأصعب في عمليّة التّركيز، وكم كان يحترمُ ما قدّمته قامةٌ شامخةٌ تُدْعى أوبدوليو، إذْ فَرَضَ طاعَتَه على الجميع، ولم يكن الأمرُ سهلاً، حتّى على القرد غامبيتا.

والآن، اللّعنة على هذه الهالة السّوداء حول العينَيْن، يقول رولاندو أسويرو لنفسه أمام المرآة الصّدئة من ثلاث زوايا، *اعتدت الأحزان، تجرّعت سنواتي*. في الحقيقة لقد اعتادَ الأحزان لكنّه تجرّع شيئًا آخر. وهنا يكمنُ اللّغز، وهو ما يصعب تحديده. لماذا بين فينةٍ وأخرى، لنَقُل مرّةً كلّ شهرٍ، يشربُ كثيرًا، وفي المقابل يظلّ متّزنًا بين كأسٍ وكأس بل يبدو تقريبًا كأنّه لم يذق أيّ شراب؟ تقريبًا، لأنّه من حين إلى آخر يشرب نبيذًا خفيفًا، النّبيذ الأرجوانيّ كما يُسميه عادةً من يعانون من اختراق ثقافيّ ديكارتيّ. المهمّ، النّبيذ الخفيف

هو تقريبًا كوكتيل نباتاتٍ ممزوجةٍ بهرمونات مهيّجةٍ جنسيًّا. ربّما كان الحنين مرتبطًا بالأقمار، شيئًا شبيهًا بالعادة الشّهرية عند النّساء. حسنًا، ليس النّساء فقط، وإنّما الأحَدَ عشر ألف عذراء والأمّ الوحيدة أيضًا. ياله من تفاوتٍ، أليس كذلك؟ على كلّ حالٍ، من الأفضل أن يكون المرء سكّيرًا معروفًا على أن يكون مدمنَ كحولٍ مجهولا. تُرى من أبْدَعَ هذه الحكمة؟ في الحقيقة مُدمنو الكحول المجهولون يتعرّضون دَوْمًا للضّرب. يسكرُ الواحدُ أو لا يسكرُ حسب قدرته على التّحمل أو حالاتِ غضبه أو احتياجه أو اشتياقه أو الإطراء المبالغ فيه، وليس حسب صرامة الأطهار أو إكراهات التّشدّد. يالها من كلمةٍ لطيفة: التّشدّد، يفكّر رولاندو أسويرو وهو يُومئ بوجهه، ويدقّق نظره باستمتاع في الإعلان الواقع جهة شمال نهر برابو. إنّها فوضى عارمة، حملةٌ أخلاقيّة ضدّ شراب المارتيني أو البوربون في كلّ غسق، لكنّها حملةٌ لصالح مادّة النابالم في كلّ فجر.

آه لو كان بإمكاني إلقاء اللّوم على الإمبرياليّة لوجود هالة السّواد هذه تحت عينيّ، لكنّ هذا غير ممكن. هناك شاهدٌ وحيد هو ضوء القنديل. لا يحتاج إلى علاجٍ جماعيٍّ ولا فرديّ. لَعِينٌ هو هذا المنفى. أليس كذلك؟ حتّى الطّبيب عانى كثيرًا، إذ رفض أن يمدّهم هناك ببطاقات معلوماتِ مرضاه المعارضين لنظامِ الحُكْم، ورفَضَ بشدّةٍ أكبر، إعطاءهم بطاقات معلوماتِ المعارضين الّذين فقدوا الصّبر. ولهذا بطبيعة الحال عانى كثيرًا. للسّجن علاجهُ الخاصّ، إنّه لا يحتملُ منافسين. *شاهدٌ وحيد*. مات سيلفيو، مانولو في

غوتنبرغ، وسانتياغو في السّجن. وماريا ديل كارمن أرملة القمع، تبيعُ الأواني. وتيتا تعيشُ الآن بعد أن انفصلت عن مانولو مع شابٍّ في منتهى الجدّيّة في لشبونة، كانت قد كتبَتْ له قبل سنةٍ تقريبًا: «سأرتبط» بساردينا إستيبيث»، لا أقلّ ولا أكثر. أمّا غراثييلا فهي هنا مشوّشةٌ وجميلة، مع بياتريث، ابنة سانتياغو، وتعملُ سكرتيرةً. وهو؟ اللّعنة على هالة السّواد تحت العينَيْن.

أهلُ هذا البلد المبارك والملعون ماكرون بحقّ. إنّه يحبّ هؤلاء الأشخاص المبتسمين، وما الدّاعي إلى إنكار ذلك، ولاسيّما النّساء منهنّ. ولكن يحدث ألاّ يحبّهم كثيرًا طوال أيّامٍ وليالٍ. إنّها الأيّام واللّيالي الّتي يشتاقُ فيها إلى الفهم العميق. أيّام وليال إذ يكون عليه أن يشرح كلّ شيءٍ ويسمع كلّ شيء. واحدةٌ من الفوائد القليلة لممارسة الحبّ مع امرأة من بلدك هي أنّ المرْءَ إذا كان في لحظةٍ معيّنة، ساعة الصّفر تلك الّتي ترنّ دَوْمًا بعد الاستعجال والحماس والذّهاب والإياب، غير مستعدٍّ للكلام الزّائد، يمكنه أن ينطق أو يسمع كلمةً مقتضبةً مكوّنة من أحرفٍ قليلة، وهذه الكلمةُ الصّغيرة تكون مليئةً بمعانٍ إضافيّةٍ ودلالاتٍ ضمنيّةٍ وصُوَرٍ تجمعُ وماضٍ مشتركٍ وأمورٍ أخرى لا حَصْرَ لها. ليس هناك ما يمكن أن تَشرح ولا أن يُشرَح لك أيضًا. ليس من الضّروري البُكاء على إيقاع موسيقى الميلونغا. يمكن للأيدي أن تتحرّك وَحْدَهَا، دون كلماتٍ، يمكن للأيدي أن تُصبح بالغة الفصاحة. والأمر نفسه بالنّسبة إلى الكلمات الصّغيرة ولكنّها لا تُصبح كذلك إلاّ حينما تجرّ معها قاطرةً

من المعاني الإضافيّة. يجبُ أن نتعجّب من كلّ اللّغات الّتي يمكن أن تَسَعَ لغةً واحدةً، يقول رولاندو أسويرو في نفسِه، وهو يواجهُ صورتَه الشّخصيّة في المرآة ويضيفُ مكرّرًا بكآبةٍ: اللّعنة على هالة السّواد هذه تحت العينين.

منــاف
(دعوة ودّية)

عند السّاعة السّادسة تقريبًا، من مساء يوم الجمعة 22 أغسطس من عام 1975، كنتُ أقرأ، دون أن أستشعرَ أنّ قلقًا مّا يترصّدني، في الشقّة الّتي أستأجِرُها في شارع شيل، بحيّ ميرافلوريس في العاصمة ليما، إذْ دقّ أحدهم جرس الباب في الأسفل وسأل عن السيّد ماريو أورلاندو بينيديتي. هذا الأمر جعلني لا أستبشرُ خيرًا، إذ أنّ اسمي الثّاني لا يوجد إلاّ في وثائقي الرسميّة، ولا أحد من بين كل أصدقائي يُناديني بتلك الطّريقة.

نزلت، فرفعَ في وجهي أحد الأشخاص بزيٍّ مدنيٍّ، بطاقةَ الشّرطة البيروفيّة الخاصّة به، وقال إنّه يودّ أن يطرح عليّ بعض الأسئلة بخصوص وثائقي. صعدنا، وعندها أخبرني بأنّهم تلقّوا شكايةً مفادها أن مدّة صلوحيّة تأشيرتي انتهت. أحضرتُ جواز السّفر وبيّنتُ له أنّني جدّدتُ التّأشيرة في الوقت المطلوب. «على أيّ حالٍ يجبُ أن تُرافقني، لأنّ رئيسي يُريدُ أن يتحدّث معك». وأضاف «في ظرف نصف ساعةٍ ستكون في طريق العودة إلى بيتك». وأمام هذا التّأكيد الطّائش كنتُ تقريبًا على يقينٍ من أنّهم

سيقومون بترحيلي. تلك اللّغة المشفّرة تستعملُها كلّ الأنظمة القمعيّة في العالم.

خلال الرّحلة القصيرة إلى مركز الشّرطة المركزيّ، بدأ ينتقدُ الحكومة واضعًا، ببلادةٍ جديرةٍ بأسوإ القضايا وأتفهها، كمائن ساذجة في محاولةٍ منه لكي أبتلع الطُّعم وأنتقد أنا أيضًا الثّورة البيروفيّة. وكان مديحي حذرًا لكنّه دقيق.

حين وصلنا إلى مركز الشّرطة تركوني أنتظر نصف ساعةٍ، وبعدَها استقبلني مفتّش شرطة. أخبرني من جديدٍ بأمر وثائقي والتأشيرة المنتهية صلوحيّتها ومرّةً أخرى قدّمت جواز سفري. وعندَها قال لي إنّني أتقاضى راتبًا وهو أمرٌ ممنوعٌ حين «يكون الأجنبيّ صاحبَ تأشيرة سفرٍ سياحيّة». قلتُ له إنّ حالتي فيها بعض الخصوصيّة، فأنا أحمل إذنًا واضحًا من وزارتيْ الشّؤون الخارجيّة والعمل، ثمّ إنّ صحيفة «إكسبريسو» كانت قد وقّعت على عقدٍ مُقابل عملي الصّحفيّ وهذا العقد موجود حاليًّا في وزارة العمل ولوزارة الشّؤون الخارجيّة علمٌ بهذا الإجراء على أعلى مستوى. ظلّ الرّجل مرتبكًا بعد سماعه عبارة «على أعلى مستوى» ولكنّ موظّفًا آخر، من المؤكّد أنّه أعلى رتبةً منه، قال له حينها بصوتٍ مرتفعٍ من مكتبٍ مُجاورٍ: «لا تطرح عليه اعتراضات أخرى! هو قادرٌ على تفنيدها دَوْمًا بحُجَجٍ قانونيّة. اذهب إلى صُلب الموضوع مباشرةً.» وبعدَها قال موجّهًا كلامه إليّ: «الحكومة البيروفيّة تُريدك أن تُغادر البلد!» وأنا لم أتأخّر في طرح السّؤال المنطقيّ:

«وهل يمكن معرفة السّبب؟» «لا، نحن أيضًا لا نعرف السّبب. الوزير يرسلُ إلينا أمرًا ونحن ننفّذ». «كم لديّ من الوقت؟» «إن كان بالإمكان، فعشر دقائق. وبما أنّه أمرٌ غير ممكن، إذ ليست هناك وسيلة لتغادر بهذه السّرعة، سأقول لك إنّك ستغادرُ في أوّل فرصةٍ تسمح بذلك: خلال ساعةٍ أو ساعتين». «وهل بإمكاني اختيار وِجْهَتي؟» «إلى أين تُريد الذّهاب؟ وليكن في عِلمك أنّنا لن ندفعَ ثمن التّذكرة». «بما أنّه سبق أن تلقّيتُ تهديدات بالقتل في الأرجنتين من قِبَلِ الحِلْفِ المناهض للشيوعيّة، وبما أنّني عملتُ في فترةٍ سابقة بكوبا لسنتَيْن ونصف ولديّ هناك إمكانيّاتٌ للعمل، أريدُ أن أعرف إن كان مسموحًا لي الذّهاب إلى كوبا». «لا. ليس هناك أيّ طائرةٍ متوجّهة إلى كوبا هذا اليوم، وأنت عليك المغادرة في أقرب فرصة». «حسنًا، قل لي إذن ما هي خياراتي الحقيقيّة». «خياراتك هي هذه: إمّا أن نأخذك برًّا إلى الحدود الإكوادوريّة وإمّا أن تستعمل تذكرة عودتك بالطّائرة إلى بوينوس آيرس».

فكّرت سريعًا ولم تُغرني فكرة أنّ شاحنةً عسكريّةً ستُقلّني فجرًا إلى حدود دولةٍ لم أكن أعرفها آنذاك، فقلت: «بوينوس آيرس.» إذ لم يسبق لي السّفر إلى الإكوادور. وكان لابدّ من أن أوقّع على تصريحٍ سُئلت فيه عن الطّريقة الّتي أقبض بها رواتبي من جريدة «إكسبريسو». قلتُ إنّني أتقاضى أجري عن طريق البنك، وذكرت مرّة أخرى كلّ ما سبق لي قولُه عن العقد والإجراء في وزارة العمل، وغيره.

عُدنا إلى الشقّة. في البداية أمهلوني ربع ساعة وبعدَها ساعة ولّما أجروا مكالمات هاتفيّة ولم يتمكّنوا من إيجاد مكانٍ لي في أيّ رحلةٍ متوجّهةٍ إلى بوينوس آيرس، أصبح لديّ وقتٌ أطول ولكنّهم سمحوا لي بأخذ حقيبةٍ واحدة، ولهذا السّبب كان عليّ تركُ أشياء كثيرة في الشقّة.

عندئذٍ قال لي محقّق الشّرطة، إذْ باتوا حينَها يتعاملون معي بطريقةٍ أفضل، إنّ حالتي لن تكون طردًا أو ترحيلاً وعليه فإنّهم لن يطبعوا على جوازي ختم «مُرَحَّل». فعمليّة التّرحيل -كما شرح لي- تستوجبُ صدورَ أمرٍ أعلى، وهذا ما لم يحصل في حالتي الّتي كانت مجرّد «دعوة ودّية لكي تُغادر البَلَدَ على الفَوْر». سألته ماذا يمكن أن يحصل لو أنّني رفضتُ الدّعوة. «آه، في هذه الحالة أيضًا سيكون عليكَ مغادرة البلد». قلتُ له إنّنا في بلدي نقول في مثل هذا الوضع: «الحالتان معًا خراء».

طلبتُ منهم أن يسمحوا لي بالاتّصال بشخصٍ من ليما. فلم يوافقوا. كنتُ ممنوعًا من التّواصل مع أهل البلد. في المقابل، سمحوا لي بإجراء مكالماتٍ هاتفيّة خارجيّة. ولهذا اتّصلت بأخي في مونتيفيديو ليخبرَ زوجتي كي تذهب إلى بوينوس آيرس للقائي هناك. حاولتُ أيضًا الاتّصال بشخصين أو ثلاثة في بوينوس آيرس ولكنّي لم أتمكّن من الحصول عليهم. كان همّي إيجاد شخصٍ ينتظرني في مطار «إيزيزا» في بوينوس آيرس. طلبتُ منهم أن يسمحوا لي على الأقلّ بالحديث مع صاحبة الشقّة. فقالوا لي إنّه

لا يمكنني الاتّصال بها إلاّ إذا كنتُ سأخبرُها بأنّني لظروفٍ طارئةٍ قرّرت مغادرة جمهوريّة البيرو، وعليه فإنّني سأترك لها الشقّة. قلتُ لهم إنّي لن أُجري مكالمةً بهذا الشّكل، وذلك لأنّ هذه المرأة قد عاملتني بشكلٍ رائع. اقترحت عليهم أن يتّصلوا هم بها، لكنّهم رفضوا بكلّ بساطة.

بعد بضع دقائق سألني محقّق الشّرطة عن الشرط الذي أضعهُ لأتكلّم مع صاحبة المنزل. قلتُ له إنّني سأقبل الاتّصال بها متى أمكنني إخبارها بأنّ السّلطات تطردني. ووافق أخيرًا. وبهذا الشّكل اتّصلت بالسيّدة على السّاعة الثالثة فجرًا. كاد يغمى على المسكينة. «ولكن كيف يقومون بهذا الأمر مع رجلٍ من طينتك سيّدي!» أخبرتها بأنّني سأترك لها جَرْدًا بالأشياء الّتي ما تزال في الشقّة وتعودُ ملكيتها إليّ، وأنّني سأشعرها فيما بعد بالوِجْهَة الّتي يُمكن إرسال هذه الأشياء إليها.

في تلك الأثناء أصبح رجال الشّرطة لُطَفَاء كثيرًا إلى درجة أنّهم طلبوا منّي أخْذَ مُلْصَقٍ لي كان معلّقًا على الحائط مكتوب عليه إحدى أغنياتي، وطلب منّي أحدهم أن أهديه أحَدَ كتبي. «ألا تظنّ أن بإمكاني إحراجك؟» سألته. «نأمل ألاّ يحدثَ هذا.» قال دون أن يبدو عليه أنّه واثقٌ تمامًا ممّا يقول.

وبما أنّ البرد كان قارسًا في تلك السّاعة من اللّيل، طلب رجلان من رئيسهم، وقد كانوا أربعة في مجموعهم، أن يأذن لهما بالذّهاب لإحضار سترتيْهما، فوافق، وَواصلتُ أنا حَزْمَ حقيبتي

تحت نظراتِ حارسيّ المتيقّظة. لاحظت فجأةً أنّ الحارسَيْن المتبقّيَيْن قد ناما. كانا يشخران بشكلٍ لطيفٍ حتّى إنّني خلعتُ حذائي كي لا تعكّر خطواتي على السّجّاد صَفْوَ نومهما. لم يكن قد بقي لي من الوقت كي أرتّب حقيبتي بشكلٍ أفضل غير ساعةٍ ونصف. ولم تتوقف ماسورة القمامة عن طرح ما احترق.

بعد انقضاء هذه السّاعة والنّصف، ارتديت حذائي من جديدٍ وهززتُ المفتّش بشكلٍ خفيف «أعتذرُ عن إيقاظك، ولكن إذا كنتم تعتبرونني انقلابيًّا إلى درجة توجبُ طردي من البلد، فرجاءً لا تناموا وراقبوني». شرح لي المفتّش أنّ ما يحدث هو أنّهم بدؤوا العمل منذ الصّباح الباكر وأنّهم كانوا مُتعبين. قلتُ إنّني أتفهّم وضعَهم، ولكنّ الذّنب ليس ذنبي.

انطلقنا في السّاعة الرّابعة والنّصف نحن الخمسة، وقد عاد الاثنان الآخران مرتديين سترتَيْهما، في سيّارة سوداء كبيرةٍ. ومررنا بصاحبة الشّقّة. فأعطوها المفاتيح والجَرْد. كانت هذه الرّحلة السّبب الوحيد الحقيقيّ لقلقي، لأنّهم أخذوني عبر طريقٍ غير مألوفة. كانت طريقًا معتمةً بالكامل بين أرضٍ بُورٍ، لا تنيرها غير أضواء السّيّارة. تأخّرنا مدّةً أطول بكثيرٍ بالقياس إلى رحلةٍ عاديّة. حين لمحتُ من بعيدٍ بُرْجَ المطار، أعترف بأنني تنفست الصعداء. وحين ولجنا المطار، لم يكن بإمكاني إلاّ السّفر في رحلة التّاسعة صباحًا من يوم السّبت. ولحسن الحظّ كانت الطّائرة تابعةً لشركة «آيروبيرو». لقد فشلوا في إيجادِ مقعدٍ لي في رحلة الثّامنة، وكانت

على متن طائرةٍ تابعةٍ لشركة «لان».

لم يقدّموا لي أكلاً ولا شرابًا مطلقا. بقيتُ 24 ساعةً دون أن أضع أيّ لقمةٍ في فمي. وأعتقدُ أنّ السّبب يعود ببساطةٍ إلى أنّه لم تكن بحوزتهم نقود، فهم أيضًا لم يأكلوا شيئًا. حين سلّمني المحقّق الأوراق عند مدرج الطّائرة قال لي: «من المؤكّد أنّك ستغادر البلاد مستاءً من الحكومة، ولكن رجاءً لا ترحل وأنت مستاء من البيروفيّين». ثمّ شدّ على يدي.

جرحى ومكدومون
(منظر أو منظران)

دخلت غراثييلا إلى غرفة النّوم. ونزعت معطفها الخفيف. لمحت صورتَهَا في مرآة خِزانة الزّينة وقطّبت جبينَها. ثمّ نزعت القميص والتّنّورة. واستلقت على السّرير. ثنت رجلاً واحدةً وبعدها مدّتها أقصى ما استطاعت. وانتبهَتْ حينها لفَتْقٍ صغير في أحد جَوْرَبَيْها. جلسَتْ ونزعَتْ جوربَيْها الشفّافَيْن وأخذت تفحصُهُما لترى إن كان هناك فتقٌ آخر مشابه. ثم كوّمت زوج الجوارب ووضعته فوق كرسيّ. نظرت من جديدٍ إلى صورتها في المرآة وضغطت على صدغَيْها بأصابعها.

من النّافذة تواصل تسرّب بصيص من ضوء هذا المساء البارد العاتية رياحُهُ. أبعدت إحدى السّتائر الشّفّافة ونظرت إلى الخارج. أمام المبنى «ب» كان ستّة أطفالٍ أو سبعة يلعبون. ميّزت من بينهم بياتريث، شعرها أشعث ولا تتوقّف عن الحركة ولكنّها في غاية الاستمتاع. ابتسمَتْ غراثييلا دون اقتناع، ومرّرت يدَهَا على شعرها.

رنّ الهاتف بجانب السّرير. كان رولاندو هو المُتّصل. حينها استلقت من جديدٍ لتتكلّم براحةٍ أكبر.

- يالَهُ من مساءٍ ثقيل. أليس كذلك؟ قال لها.

- ليس إلى هذا الحدّ. أنا أحبّ الرّياح. لا أدري لماذا، لكنّني حين أسيرُ عكس اتّجاه الرّياح، يبدو لي أنّها تمحو أشياء. أقصد القول: أشياء أريدُ أن أمحوها.

- مثل ماذا؟

- ألا تقرأ الجرائد؟ ألا تعلم أن هذا يسمّى تدخّلاً في الشّؤون الدّاخليّة لبلدٍ آخر؟

- جيّد أيّتها الجمهوريّة.

- على الأقلّ جمهوريّة صديقة، أليس كذلك؟

نقلت سمّاعة الهاتف إلى اليد اليسرى وأذُنِها كي تتمكّن من حكِّ أذنها الأخرى.

- هل هناك أخبارٌ جديدة؟ سألَهَا.

- وصلتني رسالةٌ من سانتياغو.

- جيّد، هذا خبرٌ مفرح.

- لكنّها مبهمة بعض الشيء.

- من أيّ ناحية؟

- يتكلّم عن بقعٍ في الجدران وعن أشكالٍ كان يتخيلّها انطلاقًا من تلك البقع حين كان طفلاً.

- حصل هذا الأمر معي أنا أيضًا.

- يحصل هذا مع الجميع. أليس كذلك؟

- في الحقيقة، هذا الأمر قد لا يكون موضوعًا مبتكرًا كثيرًا. لكن في المقابل لا يبدو لي مُبْهَمًا. أم كنتِ تُريدينه أن يُرسل إليكِ خطبةً ضدّ العسكر؟

- لا تكن ساذجًا. كلّ ما في الأمر أنّني، ببساطةٍ، أظنّ أنّه كان أجرأ في السّابق.

- نعم، بطبيعة الحال، وربّما بسبب هذه الجرأة بقيتِ لأكثر من شهرٍ من دون أن تصلكِ رسائله.

- لقد استفسرتُ عن الأمر. كان إجراءً عامًّا، واحدةً من بين العقوبات الجماعيّة الكثيرة.

- لفرض هذه العقوبات غالبا ما يتعلّلونَ بعذر صبيانيٍّ جدًّا مثل هذا: أن يتجاوز أحدهم في الكتابة، بوعيٍ أو بلا وعيٍ، حدودًا غير مقرّرةٍ ولكنّها حقيقيّة.

لم تُجب. وبعد مرور بضع ثوانٍ عاد هو من جديدٍ ليتكلّم.

- كيف حال بياتريث؟

- تلعبُ في الخارج مع زملائها.

- إنّها تثير إعجابي. تتمتّعُ بحيويّة وصحّةٍ جيّدة.

- نعم، أكثر منّي بكثير.

- ليس إلى هذا الحدّ. صحيح أنّ الجزء الأكبرمن حيويّتها

ورثتهُ عن سانتياغو، ولكن ورثت عنك أيضًا.

- ورثتهُ عن سانتياغو بالفعل.

- وعنكِ أيضًا. ما يحدثُ هو أنّك في الفترة الأخيرة تُعانين من بعض الاكتئاب.

- ربّما. في الحقيقة أنا لا أرى مخرجًا من هذا الوضع. وعلاوةً على كلّ ذلك، عملي مملٌّ جدًّا.

- ستجدين وظيفةً أخرى محفّزةً أكثر. لكن عليك الآن أن تَقْبَلي بما لديك.

- كلّ ما ينقصُ الآن هو أن تقول لي إنّني كنتُ محظوظة.

- كنتِ محظوظة.

- وأن تقول لي كذلك أن ليس كلّ المنفيّين من بلدان المخروط الجنوبيّ استطاعوا الحصول على عملٍ براتبٍ مُجْزٍ مقابل ستّ ساعاتٍ من العمل فقط، وعطلةِ أيّام السّبت زيادة على ذلك.

- ليس كلّ المنفيّين من بلدان المخروط الجنوبيّ استطاعوا الحصول على عملٍ بمثل هذا التّعويض المرتفع... هل بإمكاني أن أضيفَ أنّك تستحقّين ذلك لأنّك سكرتيرةٌ ذات كفاءة؟

- ربّما. لكنّ الكفاءة تحديدًا هي أحدُ أسباب مَلَلي. لو كنتُ أخطئ من حينٍ إلى آخر لكان العمل أكثرَ تَسْلِيَة.

- لا أظنّ ذلك. لعلّك تشعرين بالملل من الكفاءة. ولكنّ ما يُشعر أصحابَ العمل والمسيّرين بالملل أكثر وبسرعةٍ أكبر هو عمومًا انعدام الكفاءة.

لم تُجب مرّةً أخرى. ومرّةً أخرى كان عليه أن يبدأ الحوار من جديد.

- أيُمكنني أن أعرضَ عليكِ اقتراحًا؟

- إذا لم يكن اقتراحًا بذيئًا.

- لِنَقُل إنّه نصف عفيف.

- إذنْ أسمحُ بنصفهِ فقط. هيّا قُلْ ما عندك.

- هل يَروقُك الذّهاب إلى السّينما؟

- لا يا رولاندو.

- الفيلم جيّد.

- لا أشكّ في ذلك. أنا أثقُ في ذوقك. على الأقلّ ذوقك السينمائيّ.

- إضافةً إلى أنّه سيساعدكِ قليلاً في التغلّب على اضطراب تفكيرك.

- أنا راضيةٌ عن وضعي.

- هذا أسوأ. أكرّرُ الدّعوة: أتريدين الذّهاب إلى السّينما؟

- لا يا رولاندو. أنا شاكرةٌ لك حقًّا. ولكنّني متعبةٌ جدًّا. ولو لم أكن مضطرّةً إلى إعداد طعامٍ لبياتريث أقسمُ لك أنّني

كنتُ سأنام دون عشاء.

- وهذا ليس جيّدًا أيضًا. يمكنكِ فعلُ ما يحلو لك ما عدا أن تستسلمي للرّتابة.

وضعَتْ غراثييلا سمّاعة الهاتف بين فكّها الأسفل وكتفها. بطبيعة الحال، كانت تتمتّعُ بخبرةٍ كبيرةٍ في القيام بهذه العمليّة المألوفة لدى سكرتيرةٍ محترفة. وبالإضافة إلى ذلك، منحها الوضع حرّيّةً في تحريك يدَيْها لتَنْظُر، هذه المرّة، إلى أظافرها وتمرّر عليها مبرد أظافر صغيرٍ من حينٍ إلى آخر.

- رولاندو.

- نعم، أنا أسمعكِ.

- هل سبق لك أن سافرتَ ذات مرّةٍ في قطارٍ مع شخصٍ آخر، وجلستما متقابلَيْن وجهًا لوجهٍ وكلّ واحدٍ منكما بجانب نافذة؟

- نعم، أعتقدُ أنّه حصل ذات مرّة. غير أنّي لا أتذكّر الآن بالتّحديد في أيّ مناسبة. ولكن، لماذا هذا السّؤال الآن؟

- ألم تنتبه لجزئيّة أنّه إذا أخذ كلّ واحدٍ منهما يعلّق على المنظر الّذي يراه، فإنّ تعليق الشّخص الّذي ينظر إلى الأمام لن يكون مشابهًا تمامًا لتعليق من ينظرُ إلى الخلف؟

- أعترفُ لك بأنّني لم أدقّق أبدًا في هذه الجزئيّة. لكنّه أمرٌ ممكن.

- أمّا أنا فلطالما انتبهت للأمر، فمنذ طفولتي، كانت تُثيرني رؤية المناظر الخارجيّة حين أسافرُ على متن قطار. لقد كانت واحدةً من بين المتع المفضّلة لديّ. لم أكن أقرأ أبدًا في القطار ومازلتُ على هذه الحال إلى الآن: إذا سافرتُ في القطار لا أحبّ القراءة. يسحرني ذلك المنظر الّذي يسبّب الدّوار إذ يجري بجانبي في الاتّجاه المعاكس. أمّا حين أجلس و أنظر أمامي، فيبدو لي أنّ المنظر قادمٌ نحوي، وهذا يُشعرني بالتفاؤل، أو لستُ أدري بما يُشعرني تحديدًا.

- وماذا يحدثُ إذا كنتِ جالسةً تنظرين باتّجاه الخلف؟

- يبدو لي أنّ المنظر يهربُ ويذوبُ ويموت. وهذا صراحةً أمرٌ يُشعرني بالكآبة.

- والآن في أيّ وضعيّةٍ تجلسين؟

- لا تَسْخَر منّي. لقد رأيتُ هذا بوضوحٍ قبل فترةٍ قصيرة، حين عدتُ إلى قراءة رسائل سانتياغو من جديد. سانتياغو الّذي يقبعُ في السّجن يكتب كما لو أنّ الحياةَ تأتي للقائه. أمّا أنا، وإن كنتُ أنعم بالحرّيّة، فإنّ ذلك المنظر يبدو لي أحيانًا كأنّه يبتعدُ ويذوب وينتهي.

- هذا ليس سيّئًا، بوصفه تعبيرًا شاعريًّا بطبيعة الحال.

- لا صلة لهذا بالتّعابير الشّعرية. ولا حتّى بالنّثر. هذا ببساطةٍ ما أحسّ به.

- حسنًا، سأتحدّث الآن معك بجدّيّة. أتعلمينَ أنّني قلقٌ

بسبب حالتك المعنويّة هذه؟ ومع اقتناعي بأنّ كلّ شخصٍ هو الوحيد القادر على حلّ مشاكله الخاصّة، فإنّني أرى أن شخصًا يتمتّع بثقةِ الآخر يُمكنه أحيانًا المساعدة، أقول المساعدة وحسب. ومن أجل هذه المساعدة النّسبيّة أعرضُ خدماتي، إن أردت. ولكنّ الأهمّ هو أن تتعمّقي في فهم نفسك.

- أتعمّق في فهم نفسي؟ قد أفعل ذلك، قد أفعل. لكنّني لستُ متأكّدة من أن الأمر سيروقني.

السيد رفائيل
(ذنب غريب)

اشتكى سانتياغو لغراثييلا من انقطاعي عن الكتابة له منذ مدّة. وهذا صحيح. ولكن، ماذا عساي أقول له؟ إنّ ما يحدث له هو جريرة موقفه؟ هذا شيء يعرفه. إنّني أشعر بشيءٍ من الذّنب لأنّي لم أتكلّم معه بما يكفي، حينما كان الوقت مناسبًا للكلام وعدم ابتلاع الكلمات، حتّى أُقنعه بألاّ يستمرّ في تلك الطّريق. ربّما لم يكن متيقّنًا من ذلك، لكن لعلّه تخيّله. ولعلّه يتخيّل أيضًا أنّنا لو تعمّقنا في هذه النّقاشات، لكان استمرّ على كلّ حالٍ في الطّريق الّتي اختارها آخر أمرِه. وهل أقول له إنّني كلّما استيقظتُ خلال اللّيل تملّكني شعور سيّئ، لا أعرفُ بدقّةٍ إن كان إدراكا أم انطباعا أم حدسا، بأنّه ربّما، في تلك السّاعة بالتّحديد، يتعرّض للتّعذيب أو يتعافى من حصّة تعذيبٍ أو يتهيّأ للحصص القادمة أو يلعنُ أحدهم؟ ربّما ليست لديه رغبة في تخيّل شيء كهذا. إذ لديه ما يكفيه من العذاب والعزلة والغمّ. وحين يتحمّل المرء أوجاعه الشّخصيّة لا يكون في حاجةٍ إلى التّفكير في أوجاع الآخرين. لكنّني في بعض المرّات أتخيّل

أنّهم يُعذّبون سانتياغو بنخسه في خصيتَيْه وفي تلك اللّحظة نفسها أشعرُ بألمٍ حقيقيّ، لا متخيّل، في خصيتَيّ. وأمّا إذا فكّرت في أنّهم يعرّضونه للتّعذيب بتغطيس الرّأس في الماء، فأحسّ بشكلٍ فعليٍّ أنّني أختنق. لماذا؟ إنّها قصّةٌ قديمةٌ أو من الأفضل أن نقول إنّها إشارةٌ قديمة: إنّ الشّخص الّذي ينجو من إبادةٍ عرقيّةٍ يختبرُ شعورًا غريبًا بالذّنب لأنّه مازال على قَيْدِ الحياة. ولعلّ من يجدُ، لسببٍ معقولٍ، فرصةً للهرب من التّعذيب، ولم آخذ في الحسبان الأسباب المخزية، يشعرُ بنوعٍ من الذّنب لأنّه لم يتعرّض للتّعذيب. الخلاصة هي أنّه ليس لديّ الكثير من المواضيع. فبعض المواضيع مبتذلةٌ لا يمكن منطقيًّا أن أذكرها في رسالةٍ موجّهةٍ إلى سجين، فما بالك لو اعتبرنا أنّ هذا السّجين قد دخل السّجن لأنّه معارضٌ للنظام. أمّا المواضيع الأخرى، فأنا من لا يريدُ ذكرَها. وهكذا تُصبح لائحة المواضيع المتبقّية بعد تطبيق هذين الاقتطاعَيْن، في الحقيقة، تافهةً إلى أبعد حدّ. هل سيقبلُ سانتياغو بأن أكتب له سخافات؟ هناك موضوعٌ كان يُمكن في ظروفٍ أخرى أن أكتب له عنه أو الأفضل أن أحكي له عنه. لكن في ظلّ هذه الظروف لن أقدم على ذلك أبدًا. وأقصد حالة غراثييلا النّفسيّة. فهي ليست في حالة نفسيّةٍ جيّدة. أحسّ بأنّها تفقدُ حماسها شيئًا فشيئًا وأنّها تزدادُ كآبة بمرور الوقت. هي الأنيقة واللطيفة والنبيهة دَوْمًا. والأسوأ هو انتباهي إلى أنّ خمود همّتها راجعٌ إلى ابتعادها عن سانتياغو. أما أسباب ذلك، فلا قدرة لي على معرفتها؟ هي مغرمةٌ به، أنا متأكّدٌ من هذا تمام التأكّد. وهي لا تؤاخذه بخصوص السّياسة مطلقًا، لأنّها توجد معه

افتراضيًّا، أو كانت معه، في الدّائرة نفسها. أيكون السّبب هو أنّ المرأة، لتحافظ على سلامة حبّها، تحتاج إلى حضور الرّجل حضورًا جسديًّا أكثر من حاجتها إلى وجوده؟ أيكون أوديسيوس قد أصبح ملازمًا للبيت وأصبحت زوجته بينيلوبي لا تكتفي بالحياكة وفكّ الخيوط؟ من يدري؟ والحقيقة أنّني ما لم أجرؤ على مناقشة الموضوع معها، وأنا أراها بشكلٍ شبه يومي، فلن أجرؤ حينها على مناقشته مع سانتياغو، وهو الّذي أكتفي بأن أرسلَ إليه رسالةً من حينٍ إلى آخر. وبإمكاني أن أحدّثه عن حصصي وعن الأسئلة الّتي يطرَحُها عليّ الأولاد. أو ربّما أحدّثه عن مشروع مّا للعودة إلى الكتابة. أَهِي روايةٌ جديدة؟ لا. فتجربةٌ فاشلةٌ واحدة تكفي. ربّما مجموعة قصصيّة، ولكنّها لن تكون للنّشر. هذا لا يهمّ كثيرًا في سنّي. لديّ انطباعٌ بأنّه قد يكون حافزًا لي. فمنذ خمسة عشر عامًا لم أكتب شيئًا. على الأقلّ، لم أكتب أيّ شيءٍ أدبيّ. وخلال خمسة عشر عامًا لم تكن لديّ رغبةٌ في القيام بذلك. أمّا الآن فنَعم. أتكون هذه إشارة أو شيئًا عليّ أن أفسّره؟ أم يكون هذا الأمر عرضًا من الأعراض؟ ولكن، عرضًا من أعراض ماذا؟

خلف الجدران
(النّهر)

عدتُ للتّو من النّهر. أتظنّين أنّ بي شيئًا من الجنون؟ ليس بي منه الكثير ولا القليل. فما دمتُ لم أُصَب بالجنون في ظروفٍ أخرى، فأعتقد أنّني امتلكت مناعة ضدّ الإصابة به. ومع ذلك، أنا عائدٌ للتّو من النّهر. فقد اكتشفتُ منذ بضعة أسابيع أهمّيّة التّحكّم في أفكاري. في ما مضى كانت الذّكريات تُهاجمي مشوّشة. فجأةً أفكّر فيك أو في بياتريث أو في أبي، وبعد ذلك بثانيتَيْن أجدني أفكّر في كتابٍ قرأته في مرحلة المدرسة الثّانويّة وتقريبًا على الفَوْر أنْتَقِلُ إلى التّفكير في إحدى التّحليات الّتي تُعدّها لي أمّي حين كنّا نسكن في شارع هوكوارت. بمعنى أنّ الذّكريات تُسيطر عليّ. وذات مساءٍ فكّرت: سأخلّص نفسي من هذه السّيطرة على الأقلّ. ومنذ تلك اللّحظة أصبحت أنا من يوجّه ذكرياتي، بشكلٍ جزئيٍّ بطبيعة الحال. في اليوم توجد دَوْمًا لحظاتٌ تُزعزعني فيها الذّكريات، وهي غالبًا حين يجتاحني اليأس وأحسّ بأنّني شخصٌ منتهٍ. لكنّ ذلك لا يتكرّر. الطبيعيّ الآن هو أن أرتّب الذّاكرة، أي أن أقرّر

ما الّذي سأتذكّره. وهكذا أقرّر أن أتذكّر على سبيل المثال يومًا دراسيًّا بعيدًا في المدرسة الابتدائيّة، أو ليلةً من اللّهو الصّاخب مع الأصدقاء، أو أحد النّقاشات الّتي لا تنتهي في إطار فدراليّة الطَّلَبة الجامعيّين الأوروغوايانيّين، أو تمايلي بعد إحدى ليالي السُّكْر القليلة الّتي شاركتُ فيها (إلى أيّ حدٍّ يُمكن فعليًّا تذكّر ذلك؟)، أو أحد الحوارات العميقة مع أبي، أو الصّباح الّذي وُلِدَتْ فيه بياتريث. من الواضح أنّني أسترجعُ كلّ هذه الذّكريات بالتّناوب مع الذّكريات الّتي تخصّكِ أنتِ، ولكن حتّى ذكرياتك قرّرت أن أضع لها نِظامًا. لأنّني إن لم أفعل ذلك، فستركّز كلّ صورك على جسدك وعلَيْنَا ونحن نُمارس الحبّ. وهذا الأمر غالبا ما يعكّر مزاجي. إذ يُصبح شاهدًا أليمًا على غيابك، أو على غيابي. في البدء أستمتعُ ذهنيًّا مع شعورٍ بالضّيق. أستمتعُ في الفراغ. ثمّ أشعر بالاكتئاب. وهذا الهبوط يستمرُّ معي لساعاتٍ. حتّى إنّني حين أقول لك إنّه كان عليّ فرضُ نظامٍ في هذا الميدان أيضًا فأنا أقصد القول إنّني قرّرت إضافة ذكرياتٍ أخرى تتعلّق بنا، وهي ذكرياتٌ حاسمةٌ جدًّا وثمينةٌ مثل ليالي جسدَيْنا. لقد دارت بيننا أحاديثُ كثيرة، كانت بالنّسبة إليّ على الأقلّ أحاديث لا تنسى. أتتذكّرين يوم السّبت الّذي أقنعتُك فيه، بعد خمس ساعاتٍ من الجدل، بالطُّرق الجديدة؟ وحين كنّا في مدينة ميندوثا؟ وفي مدينة أسونسيون؟ لا يهمّ ترتيب التّواريخ. ما يهمّ هو التّسلسل الّذي أفرضه على استحضار ذكرياتي. لهذا بدأت كلامي بالقول إنّني اليوم عدتُ لتوّي من النّهر. وهي ذكرى أنتِ لستِ موجودةً فيها. النّهر الأسود الّذي يقع قرب مدينة مرسيدس. في

الثّانية عشرة أو الثّالثة عشرة من عمري كنتُ أذهبُ في الصّيف لقضاء العطل في بيت أعمامي الّذي لم يكن كبيرًا بما فيه الكفاية، هو في الحقيقة عبارة عن مزرعةٍ صغيرة، لكنّه يصل إلى غاية النّهر. وبما أنّ الطّريق بين البيت والنّهر كانت مليئةً بالكثير من الأشجار الوارفة، فإنّني حين أظلّ جالسًا عند ضفّة النّهر لم يكن يراني أحد من البيت. وتلك العزلة كانت تروقني. إنّها واحدةٌ من المرّات القليلة الّتي سمعتُ فيها الطّبيعة ورأيتُها وشممتُها ولمستُها وذقتُها. كانت الطّيور تقتربُ ولم تكن تخافُ وجودي. ربّما يَلْتبسُ عليها الأمرُ وتظنّني شجرةً أو أجمة. وكانت الرّياح عمومًا ناعمةً وربّما لهذا لم تكن الأشجار الكبيرة تتجادلُ فيما بينها، وإنّما كانت ببساطةٍ تتبادل التّعليقات وتهزّ قممها بمرحٍ وتومئ إليّ بعلامات التّواطؤ. أحيانًا كنت أستند إلى أكبرها عمرًا فإذا لمست قشرتها شعرت بشيء يشبه الأبوّة. أن تمرّر يدك على قشرة شجرةٍ طاعنةٍ هو أقربُ ما يكون إلى مداعبتكَ عرفَ فرسٍ تَمتطيه يوميًّا. إذ يُخلَق تواصلٌ مُتّزنٌ ولكنّه متينٌ كفاية، لا مبالغة فيه ولا نزق كما تكون علاقتنا عادةً مع كلب، حتّى إنّ المرء ليَشتاق إليه حين يعود إلى حركة المدينة. وفي مناسباتٍ أخرى كنتُ أركبُ القارب وأجدف إلى غاية منتصف النّهر. وكان تَساوِي المسافة الّتي أبتعد فيها عن كلا الضّفّتَيْن بالخصوص محفّزًا، لاسيّما لأنّهما كانتا مختلفَتَيْن وتتجادلان. لم تكن الطّيور الّتي تتقاسم الضّفّتَيْن تتجادلُ كثيرًا، بل الأشجار هي الّتي تفعلُ وتحسّ بارتباطها بالمكان وتنتصرُ لطائفتها قليلاً، كلّ شجرةٍ في ارتباط بعالمها الصّغير، أي بالضّفّة الّتي تخصّها. أنا لم أكن أفعلُ

أيّ شيء. كنتُ ببساطةٍ أراقب. لم أكن أقرأ ولا ألعب. والحياة تمرّ فوقي، من ضفّةٍ إلى ضفّة. فأشعرُ أنّني جزءٌ من تلك الحياة، وكنتُ أصل إلى نتيجةٍ غريبةٍ مفادها أنّه على الكائن ألاّ يشعرَ بالملل إذا كان شجرةَ صنوبرٍ أو شجرةَ صفصافٍ أو شجرةَ أوكاليبتوس. لكن كما تعلّمتُ سنوات كثيرة بعد ذلك، فإنّ تَساوي المسافات لا يدوم مدّةً طويلة، وكان عليّ الاختيار بين ضفّةٍ وأخرى. وبدا من الواضح أنّني أنتمي إلى إحدى الضفّتَيْن. ها أنتِ تَرَيْنَ كيف أنّ ما قلتهُ لك في البداية كان صحيحًا: أنا عائد لتوّي من النّهر.

بياتريث
(ناطحات سحاب)

يُكتب المفرد ناطحة سحاب ويُكتب الجمع ناطحات سحاب، السّحاب في الحالتَيْن يكون جمعًا. ويحدثُ الشّيء نفسه مع أعواد الأسنان. ناطحات السّحاب هي أبنيةٌ بحمّاماتٍ كثيرة. ولهذا ميزةٌ كبيرة إذ بإمكان آلاف الأشخاص أن يتبوّلوا في الوقت ذاته. لناطحاتِ السّحاب أيضًا ميزاتٌ أخرى، ففيها على سبيل المثال مصاعد تُصيب بالدّوار. والمصاعدُ الّتي تُصيب بالدّوار هي اختراعاتٌ حديثةٌ جدًّا. أمّا الأبنيةُ القديمة فليس فيها مصاعدُ، أو فيها فقط مصاعدُ لا تُصيبُ بالدّوار، والنّاس الّذين يعيشون أو يعملون هناك يشعرون بالخجل لأنّهم متخلّفون.

غراثييلا، أي أمّي تعملُ في ناطحة سحاب. ذات مرّةٍ أخذتني معها إلى مكتبها وكانت المرّةَ الوحيدة الّتي تبوّلت فيها في ناطحة سحاب. إنّها عظيمة. لِناطحة سحاب غراثييلا مصعدٌ يُصيبُ بالدّوار مستوردٌ كلّه ولهذا فإنّه يقلّب معدتي كثيرًا. مُنْذُ فترةٍ أخبرتهم بالقصّة في الصّفّ، وكاد جميع الأطفال يموتون من

الحسد، كانوا يُريدون أن آخذهم إلى المصعد الّذي يُصيب بالدّوار الموجود في ناطحة سحاب غراثييلا. لكنّني أخبرتهم بأنّه خطيرٌ جدًّا لأنّه يتحرّك بسرعةٍ كبيرةٍ وإن أخرجت إحدانا رأسها من النّافذة الصّغيرة فيمكن أن تبقى بلا رأس. وصدّقوا ذلك، إنّهم مغفّلون، لا يعرفون أنّ مصاعد ناطحات السّحاب ليست متخلّفةً إلى هذا الحدّ لتكون فيها نوافذ صغيرة.

حين تنقطعُ الكهرباء في مصاعد ناطحات السّحاب يتفشّى الخوف. ويتفشّى في صفّي الفرح حين تدقّ ساعةُ الاستراحة. الفعلُ تفشّى فعلٌ جميل.

بالإضافة إلى المصاعد الّتي تُصيب بالدّوار، يَعمَلُ في ناطحات السّحاب بَوَّابون. والبوّابون هم رجالٌ ضخام الجثّة، لن يستطيعوا أبدًا صعود الدّرج. وحين يُصبح البوّابون أنحفَ لا يُسمح لهم بالاستمرار في العمل بناطحات السّحاب، ولكن تصير لديهم فرصةٌ أن يصبحوا سائقي سيّارات أجرة أو لاعبي كرة قدم.

تنقسم ناطحات السّحاب إلى ناطحاتٍ طويلةٍ وأخرى قصيرة. ناطحاتُ السّحاب القصيرة فيها حمّاماتٌ أقلّ بكثيرٍ من ناطحات السّحاب الطويلة. وناطحاتُ السّحاب القصيرة تسمّى أيضًا بيوتًا، ولكن يُمنع أن تكون فيها حدائق. أمّا ناطحات السّحاب الطويلة فتمنحُ ظلاًّ كبيرًا ولكنّه مختلفٌ عن ظلّ الأشجار.

أنا أحبُّ ظلّ الأشجار أكثر، لأنّ فيه بقع شمسٍ وهو يتحرّك

أيضًا. في ظلّ ناطحات السّحاب تنتشر الوجوه الجادّة والأشخاص الّذين يطلبون صَدَقَات. أمّا في ظلّ الأشجار فينتشرُ العشب وحشراتٌ مثل الدّعسوقة.

أفكّر في أنّ الحزن يتفشّى هناك حيث يقبع أبي، في السّاعات الأخيرة من المساء. كم أودّ لو يتمكّن أبي، مثلاً، من أن يزور ناطحة السّحاب حيث تعملُ غراثييلا، أي أمّي.

منـاف
(كان قادمًا من أستراليا)

تعرّفتُ عليه في مطار مدينة مكسيكو، قبالةَ مكاتب شركة الطّيران الكوبيّة. كنتُ مسافرًا إلى مدينة هافانا ومعي ثلاث حقائب، وكان عليّ أن أدفع مقابل الوزن الزّائد لأمتعتي. حينها اقترح عليّ رجلٌ، كان خلفي في الصّفّ ومعه حقيبةٌ صغيرةٌ واحدة، أن نسجّل بشكلٍ مُشتركٍ، أمتعتَنا الّتي يبلغُ وزنُها مجتمعةً 40 كيلوغراما وهو الوزن المسموح به.

وافقتُ بطبيعة الحال شاكرًا إيّاه على جميله، وأخذ موظّف شركة الطّيران الكوبيّة يوزّع الحقائب الأربعة. وعندها تحديدًا أخرج المحسنُ التّلقائيّ جواز سفره وانتبهتُ بدهشةٍ إلى أنّه كان يحمل وثيقةً أوروغوايانيّة. ليس جواز سفرٍ رسميًّا ولا دبلوماسيًّا وإنّما هو جواز سفرٍ عاديّ. ابتسم لي: «تستغربُ، أليس كذلك؟» اعترفتُ له أنّني مستغربٌ حقًّا. فأضافَ «سأشرحُ لك الأمر ونحن نحتسي فنجان قهوة».

شربنا القهوة. وسألني: «أنت هو السيّد بينيديتي، أليس

كذلك؟» «نعم أنا هو، ولكن كيف عرفتني؟ أنا لا أتذكّر وجهك». «هذا منطقيّ. كنتَ في المنصّة وكنتُ بين الجمهور. سمعتُ خُطَبَكَ مرّاتٍ كثيرة في تجمّعات بالشّارع خلال الحملة الانتخابيّة لسنة 1971. أتتذكّر المهرجان الخطابيّ الأخير لائتلاف الجبهة الموسّعة قبالة قصر البرلمان، حين كان شارع أغراثيادا مملوءًا كلّه؟ في تلك المرّة لم تتكلّم، ولكنّك كنتَ على المنصّة. كان الجنرال سيريغني الوحيدَ الّذي ألقى خطابًا. وكان خطابه جيّدًا». أظنّ أنّه قَدَّمَ لي تلك المعلومات ليكسب ثقتي، لكنّني في تلك الأثناء لم أحتج إليها. كان وجهُهُ وَجْهَ شخصٍ نزيهٍ وخالٍ من النّفاق.

ذكر لي اسمه. اسمه العائليّ اسمٌ آخر ولكنّني سأسميه ههنا فالكو. على كلّ حالٍ، اسمه العائليّ الحقيقيّ أوروغوايانيّ خالص مثل هذا. «في البداية أريدُ أن أوضّح لك أنّني أعيش في أستراليا منذ خمس سنوات. أنا عامل، رصّاص أو سبّاك، بحسب اختلاف اسم العمل بين بلدٍ وآخر». «ولأيّ سببٍ جئت إلى كوبا؟» «للسّياحة، أنا أقوم برحلةٍ. بقيتُ أَدّخِرُ خلال سنتَيْن لأمنحَ نفسي متعةَ السّفر لمدّة أسبوعٍ إلى كوبا». «وكيف حالك هناك؟» «من النّاحية الماليّة الحالة جيّدة. ولكن ليس هناك أكثر من ذلك. ثمّ إنّك تعرف أنّ الهجرة إلى أستراليا لم تكن تحديدًا لأسباب سياسيّة بقدر ما كانت لأسباب اقتصاديّة، وإن جاز القول فإنّ هذا يعني أنّها أسباب سياسيّة غير مباشرة. وهذا صحيح، ولكنّ المهاجرين لأسبابٍ اقتصاديّة ليس لديهم عمومًا وعيٌ كافٍ بهذه العلاقة. وبهذا المعنى،

فنحن في منفى جحود، ومختلف تمامًا عن المنافي في أماكن أخرى. أحيانًا يكون هناك متنفّسٌ، كأن تأتي فرقة لوس أليمارينيوس ويذهب النّاس للاستماع إليها، لأنّ أغاني البلد لا تزال رغم كلّ شيء تثيرُ مشاعرهم. ولا يقتصر الأمر على الأغاني، فهناك أسماء الأشجار والزّهور والهضاب والشّخصيّات التّاريخيّة والشّوارع والقرى والإشارات إلى السّماء ومناظر الغروب والأنهار وكلّ جدولٍ صغير. ولكن ما إن تذهب الفرقة، حتّى نعود جميعًا إلى رتابتنا وعزلتنا. أنا أقول إنّنا الأرخبيل الشّرقيّ في أستراليا، لأنّنا في الحقيقة نشكّلُ مجموع جزرٍ كبيرةٍ وأخرى صغيرة وأشخاصًا أو أزواجًا أو عائلاتٍ، الجميعُ مُتباعدون في عزلاتٍ مريحة قليلاً، ولكنّها في الأخير تظلّ عزلات. البعض يرسلُ نقودًا لمن بقي من أسرته في الأوروغواي، وهذا يمنح حيواتهم وعملَهم شيئًا من المعنى». «ولا يحاولون على الأقلّ الاندماج في المحيط الّذي يعيشون فيه، وبناءَ صداقاتٍ مع أصدقاء أستراليّين؟» «انظر، هذا ليس سهلاً. أوّلاً هناك عائق اللّغة. من الواضح أنّ الجميع ينتهون مع مرور الوقت إلى تعلّم الإنجليزيّة، لكن حين يصلُ المرء إلى هذه النّقطة يكون قد تعوّد العُزلة ومن الصّعب أن يُغيّر عاداته. إضافةً إلى أنّ المجتمع الأستراليّ وإن كان في حاجة إلى يدٍ عاملة أجنبيّة فإنّه لا ينفتحُ هكذا بيسرٍ في وجه الأجانب. دخلت منازل كثير من الأستراليّين، ولكن باعتباري سبّاكًا لا أكثر. وإذا اتّفق أن يكون أفراد العائلة مجتمعين حين أمرّ أمامهم وفي يدي صندوق عدّتي، فإنّهم يتوقّفون تلقائيًّا عن الكلام». «ولماذا يهمّك القدوم إلى كوبا

بهذا القدر كلّه؟» «لا أعرف السّبب بدقّة. إنّها واحدة من حالات الافتتان الّتي تُشبه ما يكون لدى المرء في طفولته أو مراهقته. ستقول إنّ ساذجًا مثلي لا يليق به أن يُفتتن وهو في هذه السنّ. لكنّ الأمر أشبه بانجذابٍ لا إراديٍّ، أتعرف؟ انظر، لقد قلتُ انجذابًا لا إراديًّا والآن أنتبه لمرور خمس سنواتٍ عليّ من دون أن أنطق بهذه الكلمة. هناك، لا يقتصر الأمر على ضياع المفردات مع الوقت وإنّما نُدمج دون وعيٍ ومع مرور الوقت كلمات إنجليزيّة في لغتنا اليوميّة. حسنًا، لنعد إلى كوبا. في الحقيقة كنّا حالمين كثيرًا في الأوروغواي خلال سنوات 1969 و1970 وبشكلٍ أقلّ قليلاً سنة 1971 . اعتقدنا أنّ حدوث تغييرٍ جذريٍّ ممكن أيضًا في بلدنا. ولكنّه لم يكن كذلك، على الأقلّ في هذا المدى المنظور. وعندها سَرَتْ فيّ رغبةٌ لا تقاوَم لمعرفة دولةٍ أخرى مثل كوبا، دولةٍ تمكّنت بالفعل من القيام بتغييرها الخاصّ. قل لي من فضلك، هل تعتقدُ أنّ هناك إمكانية مّا لبقائي في كوبا؟ للعمل طَبْعًا». «انتظر لترى كيف ستحسّ هناك. فكّر مثلاً في أنّك قد تُعجب بالنّاس، ويمكنك أن تكون متّفقًا مع النّظام السّياسيّ ومع ذلك يمكن للطّقس أن يسحقك. لا وجود لأربعة فصولٍ هناك، وإنّما يوجد فصلٌ واحد هو الصّيف مع موسم جافٍّ وآخر مَاطِر. أنا شخصيًّا لا يؤثّر فيّ، ولكنّني أعرف أشخاصًا آخرين من الأوروغواي والأرجنتين يشعرون بالانزعاج من فرط الحرارة والرّطوبة. على كلّ حالٍ، سبعة أيّامٍ هي وقتٌ قصير للقيام بالإجراءات المطلوبة. وعليك أن تأخذ في الحسبان وجود عطلة نهاية أسبوع في منتصفها تمامًا».

«نعم طبعًا، ولكن أينظر الكوبيّين بعيونٍ طيّبةٍ إلى التحاق الأجانب ببلدهم؟» «أنت لن تكون أجنبيًّا هناك. أنتَ من أمريكا اللاّتينيّة، أليس كذلك؟ المشكلة أكثر تعقيدًا. أتتخيّل للحظةٍ واحدة ماذا يمكن أن يحدث لو أنّ كوبا، التي فتحت الآن أبوابها ليخرج منها كلّ السّاخطين على الأوضاع، فتحت تلك الأبواب ذاتها ليأتي كلّ من يرغبُ في أن يُصبح متطرّفًا؟ ستتشكّل طوابير في مونتيفيديو وبوينوس آيرس وسانتياغو ولاباز وبويرتو برينثبي! وبالإضافة إلى ذلك مازالت هناك مشاكل حقيقيّة متعلّقة بالسّكن». «ولكن هل تعتقدُ أنّه سيكون بإمكاني محاولة ذلك؟» «طَبْعًا، حاول ذلك. لن تخسر شيئًا».

ذكّرنا ذلك الصّوت النّاعم المجهول الّذي يُعلِن في كلّ مطارات العالم عن حلول وقت السّفر ويبدو دَوْمًا كأنّه الصّوت نفسه، أنّ علينا الاقتراب من البوّابة رقم ثمانية. واصلنا خلال الرّحلة تبادل أطراف الحديث وحين قدَّمَتْ لنا المضيفةُ الوجبة الخفيفة الخاصّة بكلّ واحدٍ منّا، علّق فالكو: «هذا لا يصدّق. هؤلاء المضيفات لسن دُمًى مثل اللّواتي يعمَلْنَ في شركاتِ طيرانٍ أخرى. إنهنّ نساءٌ حقيقيّات، أرأيت ذلك؟».

افترقنا في مطار خوسيه مارتي، بعد أن أخذنا حقائبنَا الأربع، واحدةٌ له وثلاث لي. لقد كان عليه أن ينضمّ إلى المجموعة الّتي ترافقه في الرّحلة، أمّا أنا فالتقيتُ بعدّة أصدقاء كانوا في انتظاري.

يومان بعد ذلك نظّمت المسيرة قبالة مكتب مصالح الولايات

المتّحدة الأمريكيّة. وكان غزو العشرة آلاف للسّفارة البيروفيّة قَدْ تمّ. وصار الموضوع الآن أمرًا آخر: إعلان المناورات البحريّة في قاعدة غوانتانامو وتهديدات كارتر اليوميّة.

أنا أيضًا شاركتُ في الاستعراض في شارع ماليكون، مع رفاقي من بيت الأمريكيّتَيْن. خلال سنوات إقامتي الطّويلة في كوبا، لم أكن قد حضرت أبدًا لقاءً جماهيريًّا هائلاً مثل هذا. كنّا في انتظار أن يبدأ الاستعراض عند شارع لارامبا، وفجأةً رأيت فالكو، ولم يكن يبعد عنّي أكثر من عشرة أمتار.

كانت الحشود متراصّةً، ولهذا من الصّعب التّقدّم. فصرختُ: «فالكو! فالكو!»، سمع صرختي منذ البداية لكنْ لا شكّ في أنّه لم يكن ليصدّقَ أنّ أحدهم تعرّف عليه وناداه باسمه بعد ثمانية وأربعين ساعة فقط من وصوله إلى هافانا. وها قَدْ شاءت الصُّدَفُ ذلك. بكلّ تأكيدٍ أنا الشّخص الوحيد في كوبا الّذي بإمكانه التّعرّف عليه، وهناك كنتُ، على بعد خطواتٍ قليلة منه.

أخيرًا رآني، وحينها فقط بَدَتْ على وجهه علاماتُ الدّهشة ورفعَ بفرحٍ ذراعَيْه الطّويلتَيْن. مضت عشر دقائق قبل أن يُتَاحَ لأحدنا الاقتراب من الآخر. «يا لَهُ من أمرٍ رهيبٍ يا صديقي! أن تجدني أنت بالذّات من بين مليون شخص». كان متحمّسًا. «هذه الأجواء تُنعش الرّوح. ألا يذكّرك هذا بالمهرجان الخطابيّ الأخير لائتلاف الجبهة الموسّعة؟» «حسنًا، نحن هنا أكثر عددًا». «لا شكّ في ذلك. لكنّني أقصد الحماس والسّعادة».

أخيرًا بدأنا الاستعراض، ببطءٍ في البداية ثمّ بنسقٍ أسرع قليلاً، وسرعان ما أحسستُ بأنّه ضربني بمرفقه تعبيرًا عن التواطؤ. «أتعرفُ أنّني أقدمتُ اليوم على الخطوة الأولى؟» «أيّ خطوة أولى؟» «الخطوة الأولى للبقاء هنا». «رائع». «ذهبتُ إلى المكتب الّذي وجّهوني إليه، وكان بالضّبط حيث وقفت مجموعة من أولئك الأشخاص الّذين يرغبون في مغادرة البلاد. وعند اللّحظة الّتي وصلتُ فيها إلى الباب الزّجاجيّ، تمّ إغلاقه. وحينها بدأت أومئ للعامل الّذي كان قد أغلق الباب. وردّ هو بإيماءة رفض. كنتُ أصرُّ على أن يسمعني لدقيقةٍ واحدة. وحينها خطر ببالي القيام بشيء. كنتُ أحتفظ بورقةٍ في جيب السّروال. كتبتُ كلمة رفيق ووضعت بعدها الورقة فوق الزّجاج. ربّما أثرتُ فضوله، لأنّه وارَب الباب خمسة سنتيمترات فقط، وهي مسافة كافيةٌ ليَسمعَ أحدنا الآخر. «لن ننظر في طلبات مغادرةٍ أخرى هذا اليوم. أتفهم؟» «نعم أعرف، ولكنّني لم آت إلى هنا لهذا السّبب». «ولأيّ سببٍ جئت إذن؟» «جئتُ في رحلةٍ سياحيّة وأريدُ البقاء هنا». «عفوًا، تريدُ ماذا؟» «أريدُ البقاء هنا يا سيّدي». لم يستطع الصّبيّ، وقد كان صبيّ فعلاً، أن يصدّق الأمر. وعندها فتح الباب أكثر قليلاً، لكي أتمكّن من الدُّخول، مثيرا بهذا التّصرّف اعتراضاتٍ مفهومةً من الأشخاص المرشّحين ليُصبحوا منفيّين في ميامي. «قلتَ إنّك تُريد البقاء هنا؟» «نعم سيّدي، هذا ما قلتُه». نظر إليّ الصّبيّ بعُمْق، كما لو أنّه يَمْتَحنني. وبعدَها أخذ دفترًا، قطع ورقةً منه، كتب اسمًا

وأعطاني إيّاه. «انظر سيّدي، عُدْ في الغد، ولكن باكرًا، لا تتأخّر مثل اليوم، واسأل عن هذا الزّميل. هو سينظر في طلبك. حظًّا سعيدًا» وبهذا الشّكل سأعود غدًا. ما رأيك؟ أو كما يقولون هنا: ما الّذي تراه أنت؟» «أرى أنّك تتكيّف مع التّعابير الكوبيّة بشكلٍ أفضل من التّعابير الأستراليّة».

أصبح إيقاع المسيرة أسرع. وشيئًا فشيئًا بدأنا نفترق، وللحظةٍ لم أعد أراه. كنّا نمرّ بالضّبط قبالة بنايةِ مكتب مصالح الولايات المتّحدة الأميركيّة. لكن لم يطلّ أيّ أحد من النّوافذ. وحين عدتُ لرؤيته، كان في هذه المرّة يسيرُ خلفي تقريبا، وكان لسانُه يصدَح بصوتٍ جهوريٍّ ولَكْنةٍ أوروغوايانيّةٍ خالصةٍ بالشّعار الّذي تردّده الحشود المبتهجة: «بين! بون!، فَلْيَرْحَل وَلْيَسْقُط من لا يتمسّك بهذا البلد!».

الآخر
(أن ترغب، أن تقدر، إلخ)

«أنت مغفّل» يتذّكر رولاندو أسويرو بوضوحٍ ما قاله سيلفيو همسًا في ذلك الصّباح حين كان مانولو يعرضُ ما يسمّيه «الرؤية الشّخصيّة والبانوراميّة للوضع الوطنيّ ومقالاتٍ أخرى». ولكن مانولو الّذي لم يكن قد تكلّم في حينها سوى نصف ساعةٍ، قال ضاغطًا على شفتَيْه: «هل يمكنكَ أن تدعني أكمل كلامي؟» وتركه سيلفيو يكمل. وبعد نهاية تقديم عرضه قال مانولو منتشيًا: «والآن ما رأيك؟» «أنت مغفّل»، أصرّ سيلفيو بثباتٍ، وكانا على وشك الاشتباك. لكنّ سانتياغو ورولاندو تدخّلا بسرعةٍ، بالإضافة إلى أن ماريا ديل كارمن وتيتا كانتا على وشك البكاء، من فرط التّوتّر. أمّا غراثييلا فَلم تكن كذلك، لأنّها دَائمًا أكثر صلابةً وتوازنًا وخجلاً. عاد سيلفيو ومانولو إلى الجلوس، وحاول سيلفيو أن يتمالك غضبه، فشرع يدخّن النارجيلة المحشوّة بالأعشاب محدثًا صوتًا صاخبا يُسمع من بعيد. الشّيء المؤكّد هو أنّ نظريّة مانولو تبدو ملموسةً جدًّا، ولكنّها كارثيّةٌ أيضًا. «إنّها نظريّة دائريّة»،

كان هذا حُكْم سيلفيو. نعم، هي دائريّة ودون مخرج، لكنّ مانولو قَدَّمَها بطريقةٍ تجعلُ منها أمرًا لا رادّ له. كقَوْلِه، مثلاً: «من يملكونَ المال والسّلطة لن يتنازلوا أبدًا. لا تمنّوا أنفسكم يا أولاد، فهذه ليست الطبقة البرجوازيّة الإسكندنافيّة الّتي تخفّض أرباحَها بهدف البقاء على قَيْدِ الحياة. هؤلاء سيستغيثون بالعسكر، ولو التهمهم العسكر فيما بعد. مؤيّدون للدُّستور؟ موالون للقانون؟ العار أو الخجل من استعمال الزيّ العسكريّ أو من إخفاء الصّلعة بقبّعة؟ لا تنخدعوا يا أبناء وطني الأعزّاء. كلّ هذا ماضٍ ولّى. سيضربوننا ويقتلوننا كما لو كنّا من غواتيمالا، لا أقلّ ولا أكثر. بمعنى أنّه يجب علينا أن نتبارى معهم في ملعبٍ آخر، وألاّ يقتصرَ نِزَالنا على النّقاش السّياسيّ وحدَه. يجبُ أن نكونَ أندادًا لهم ونحرز عليهم أهدافًا، حتّى وإن كان ذلك من خارج منطقة الجزاء». نَالَتْ هذه الاستعارة بشكل خاصّ، إعجاب سانتياغو الّذي أظهر منذ تلك اللّحظة اهتمامًا أكبر. ولم يتوقّف مانولو عن الحديث، واضعًا الجميع في السلّة نفسها، (كما تقول كلماتُ أغنية تانغو: لا فَرْقَ بين ذُبابةٍ وشجرةِ سرو) لأنّ أكثر شيءٍ يُريد أن يُحدِثَهُ بكلّ حماسٍ هو التّغيير، ولكن ليس عبر النّقاشات وإنّما عبر الوقائع. ولم تكن تهمّه الوسائل المعتمدة كثيرًا، (فإذا لم يُساعدْ المسيح فليُساعد الشّيطان)، المهمّ هوالغايات. «سبق أن سمعت هذا من قبل»، علّق سيلفيو بنبرةٍ ساخرة. «وأنت تعتقد أنّ بإمكاننا إخراجهم؟» سأل سانتياغو، وهو يسحب نفسا من النارجيلة ولكن بصوتٍ خافتٍ

نسبيًّا. «لا»، أجاب مانولو دون تردّدٍ، وهو في غاية الانتشاء كما لو كان يبيعُ المستقبل. «لا، لن نكون قادرين، سيسحقوننا وسيرموننا في السّجن ويعذّبوننا ويقتلوننا». وعندها أقرّ سيلفيو ما سمعه، متردّدًا بين السّخرية والحَيْرة. واقتصر رولاندو على رفع حاجبَيْه في ارتيابٍ مقبول. حينذاك لن يقع أيّ شيء، استخلص المحاضر بحماس. لا شيء على الفور، لكنّ نصرهم سيكون باهظ الثّمن. سيفوزون ولكنّهم لن يعرفوا ماذا يفعلون بالجائزة. سيربحون على الورق وسيخسرون الشّعب. (أتى تصفيقٌ محتشمٌ من جهة النّساء.) سيخسرونه بشكلٍ نهائيّ». وأرْدَفَ وهو ينظرُ ببعض الاستفزاز إلى سيلفيو، «أمازلت تعتقدُ أنّني مغفّل؟». «على الأرجح نحن جميعًا مغفّلون»، قال سيلفيو مخفّفًا من نبرته قليلاً. وعندها نهض مانولو وعانقه كأنّه حيوان رخوي متعدّد الأرجل، أي بتعبيرٍ آخر عناق أخطبوط، حسب قاموس لاروس. وأثناء ذلك، كانت ماريا ديل كارمن وتيتا، بعد أن استعادتا رباطة جأشيهما، تضحكان والدّموع تَسيل من عيونهما، كأنّها قوسُ قزح. ولكنّ سانتياغو بدا على غير عادته جادًّا، وبعدَها مباشرةً شرح أنّ النِّضال، على هذا النحو، سيكون أخلاقيًّا فقط. «بالنّسبة إليّ ما أهمّيّة أن أنتصر أخلاقيًّا إذا استمرّت أحياء الصّفيح والإقطاعيّة وتحكّم البُنوك والرّفاهيّة الفاحشة، إذا ما دخلت في هذا العراك فإنّي أريد أن أكون منتصرًا حقيقيًّا.» «هذا رائع يا رفيق، قال مانولو، كلّنا نُريد أن نكون منتصرين حقيقيّين، لا تظنّنّ أنّك تكتشفُ البارود، المسألة ليست

مسألةَ رغبةٍ بل مسألةَ قدرة.» ومرّةً أخرى تحمّس سيلفيو، وفي تلك اللّحظة تفطّن إلى أنّ شعار مانولو كان أرحب، فالمسألة ليست مسألة رغبة ولا مسألة قدرة، بل مسألة مضاجعة. أتَتْ ضحكاتٌ خافتةٌ من جهة النّساء. وبسرعةٍ كانت الفطائر جاهزة. «هيّا نأكل قبل أن تبرد». «أمّا أنا فأشعر بالامتلاء بفعل شراب المتة». «ما يحدث هو أن الهياج يصيبكم وأنتم تتجادلون فلم تنتبهوا إلى أنكم شربتم إبريقيْن كامليْن من الشاي». «يا لها من راحة! هيّا يا سادة نلتهم الفطائر، ثم إنّ هذا النبيذ رائع». «وهل تعتقد أن فطائر مثل هذه ستكون موجودة بعد الثورة؟».

السيّد رفائيل
(الله المعين)

أغلق عينيّ. كم أودّ أن أغلق عينيّ وأبدأ من جديدٍ وأفتحهما فيما بعد على صحوة الفكر المتأخّرة الّتي تجلبها السّنوات، ولكن مع الحيويّة الّتي لم تعد لديّ الآن. يهبُ الله خبزًا لمن ليس له أسنان، ولكن قبل ذلك، قبل ذلك بكثيرٍ، وَهَبَ الجوع لمن كان بأسنانه. جميلٌ هو هذا الفخّ الّذي وضعه الربّ. على كلّ حالٍ، الأمثال الشعبيّة تُشبه سيرةً ذاتيَّةً إلهيّة. مسألة إن كان الإله هو المسيح خَلَقَت خلافًا حادًّا: أذى وغضبا. الله يخلقهم وهم يجتمعون: التآمر والضّغط. ما لقيصر لقيصر وما لله لله: توزيع فوضويّ وآخر ذو ضوابط. كما يشاء الإله: السّلطة العظمى والهيمنة. الإله لم يعر اهتمامًا: لامبالاة وتجاهل. يدعو الله ويضربُ الأرض بمطرقةٍ: الشّرطة الموازية وفيالق العسكر الموازية وسرايا الموت، إلخ. حين يشاء الإله: قوّةٌ شاملة. فليحرّرنا الإله ويحفظنا: استعمارٌ جديد. يعاقب الله دون عصا ولا حَجَرٍ: تعذيبٌ لا يمكن تحديده. اذهب، الله معك: رفاق السّوء.

أغلق عينيّ ولكن لا لرؤية كوابيسي المعتادة وإنّما لألمس عمق الأشياء. هناك توجد الصّور البليغة، تلك الّتي تخصّني أنا وحدي. كلّ واحدة هي مثل الوحي الّذي لم أفهمه ولم أُولِهِ اهتمامًا. والحال أنّه لا يمكن العودة إلى الوراء. يمكن التقاط ما تعلّمناه لكنّه لم يعد يصلح الآن إلاّ للقليل.

أغلق عينيّ وحين أفتحهما أَجِدُها. أيّ واحدةٍ منهنّ؟ واحدة هي وجه، وأخرى بطنٌ، وواحدةٌ أخرى نظرة. كم واحدةً أخرى؟ في الحبّ، ليس هناك وضعيّات سخيفة ولا مُصطنعة ولا فاحشة. في اللاّحُبّ كلّ شيءٍ سخيف ومُصطنع وفاحش، وكذلك القاعدة والتّقاليد.

فجأةً لا أدري لماذا يُصبح الماضي باذخًا. جسمي الّذي كان لي، الهواء الّذي استنشقتُه، الشّمس الّتي أنارتني، الطّلبة الّذين استمعتُ إليهم، العانة التي تمكّنتُ من إقناعها، شفق، إبط، شجرة صنوبر متمايلة.

يصبحُ الماضي باذخًا ومع ذلك لا يعدو أن يكون أكثر من خيبةِ أملٍ بصريّة، لأنّ الفقير ذا الحضور البائس يفوز في معركةٍ واحدةٍ ومصيريّة: أنّه موجود. أنا موجودٌ حيث أنا موجود. وما هذا المنفى إن لم يكن بدايةً أخرى؟ كلّ بدايةٍ شابّةٌ، وأنا عجوزٌ يعود ليبدأ من جديدٍ وأعود شابًّا. سُلّم التّرمّل، وسُلّم المدرّس المحنّك، وسُلّم أرشيف الكلمات. محكومٌ عليّ بأن أعود شابًّا. إنّه التّسمين الأخير كما يقول البُلَهاء. وأنا نحيف الآن، اللّعنة. في بلدي كنتُ أقول سحقًا،

ولكنّني كنتُ أيضًا نحيفًا. بين «سحقًا» و«اللّعنة» هناك وطنٌ كبير هو أمريكا اللاّتينيّة، وابنٌ سجين. سجينٌ يبعثُ على الحزن، لأنّه يشعرُ بنشاطٍ وتفاؤلٍ وحيويّةٍ ولا يملكُ أسبابًا كافيةً ليكون على هذه الحالة النّفسيّة الفريدة. تهتزّ مشاعري، سحقًا. أنا حيثُ أنا، وهو حيث هو. ولدي المسكين. لو كان بإمكاني أن أقايض نفسي به لما تردّدت. ولكنّهم لن يقبلوا بي. لستُ مكروهًا بما فيه الكفاية. وأنا لم أرغب في إسقاط نظامهم ونزع سلاحهم وهَزْمِهِمْ. أمّا هو فبَلى، أراد ذلك وفشل. لو كان بإمكاني الدّخول إلى هناك كي يخرج هو، لما عشت أيّامي كئيبًا إلى هذا الحدّ. أنا أفكّر في أنّهم ما كانوا ليعذّبوني في عمر السّابعة والسّتّين، لكن على العموم لا يمكن الجزم، من يدري؟ هناك أيضًا كنتُ سأغمضُ عينيّ وبتلك الطّريقة سأتخلّص من القضبان الحديديّة. وربّما أتمكّن من لمس عمق الأشياء. ولكن لا. أنا حيث أنا وهو حيث هو. أغمض عينيّ وأرى ابني ولكنّني أفتحهما وأراها هي. أرى من؟ ربّما امرأة الباخرة، أو امرأة الشّجرة، أو امرأة الطّائر. الله يخلقهنّ وهنّ يَفْتَرِقن. لو كنتُ الإله لأمرتُ بشكلٍ قاطعٍ أن تَحضُرَ امرأةُ الشّجرة. لكنّني لستُ كذلك، لهذا لا تَحضُرُ إلاّ ليديا.

جرحى ومكدومون
(خوف رهيب)

وضعت غراثييلا نقطة النّهاية في تقريرٍ حول النّصف الثّاني من السّنة. تنفّسَت بعمقٍ قبل أن تسحب من الآلة الكهربائيّة الأوراق الأصليّة ومعها سَبْع نُسَخٍ. لم يعد في المكتب أحد. كانت قد عملت ثلاث ساعاتٍ إضافيّة، لا لتقبض مقابلاً عن ذلك وإنّما لأنّ المدير في مأزقٍ، وهو رجلٌ طيّبٌ، ويوم غد آخر أجل لتقديم التّقرير حول النّصف الثّاني من السّنة.

ضمّت الورقة الأخيرة مع الأوراق الثّلاث والثّلاثين المتبقّية. غدًا في ساعةٍ مبكّرة ستوزّع الأصل والنُّسخ على ثماني مَحافظ. أمّا الآن، فهي مُتعبةٌ جدًّا. تركت كلّ شيء في الدّرج الثّاني، ووضعت الغطاء البلاستيكيّ فوق الآلة الكاتبة ونظرت إلى يديها، كانتا متّسختَيْن بفعل الكربون الأسود. دخلت لحظة إلى الحمّام، وغسلت يدَيْهَا بإتقانٍ، وسرّحت شعرَها، ووضعت أحمر شفاهٍ فوق اللّون السّابق، بعد أن أصبح باهتًا، ونظرت إلى نفسها في المرآة دون أن تبتسم، ولكنّها رفعت حاجبَيْها قليلاً كما لو أنّها تسأل نفسها أو

تتشكّك أو ببساطةٍ لتتحقّق من درجة تعبها. زمّت للحظةٍ شفَتَيْهَا مباشرةً بعد أن وضعت أحمر الشّفاه. وتنهّدت تنهيدةً مسموعةً. ثمّ عادت إلى مكتبها وأخرجت حقيبتها من الدّرج الأوّل، نزعت معطفها من المشجب ولبسته. ثمّ فتحت الباب، وخرجت إلى الممرّ، وقبل أن تطفئ الأضواء وتغلق الباب ألقت نظرة. كان كل شيءٍ على ما يرام.

حين فُتح باب المصعد، تفاجأت. لم تتوقّع وجود أحد ولكنّها فوجئت بوجود ثيليا، الّتي تفاجأت هي أيضًا.

- لم أرك منذ قرنٍ من الزّمن. ماذا تفعلين عند المكتب في هذه السّاعة المتأخّرة؟

- كان عليّ أن أراجع تقرير النّصف الثّاني من السّنة. وهو طويل جدًّا.

- أنت تقدّمين تنازلات كبيرة لمديرك. ذات يومٍ سينتهي بك الأمر إلى مُضاجعته.

- لا يا بُنيّتي، كوني مطمئنّةً. ليس المديرُ من الصّنف الّذي يُعجبني. لكنّه شخصٌ طيّب. بالإضافة إلى أنّه تقريبًا لم يطلب القيام بهذا العمل. وفوق كلّ ذلك، هو لم يكن معي في المكتب.

- عزيزتي. ليس عليك تقديم كلّ هذه التّبريرات.هي مجرّد مزحة.

وصلتا إلى الشّارع. كان الضّباب كثيفًا وكان يُسمع تأفّفُ سائقي السّيّارات المعتاد من مثل هذا الجوّ.

- هل تودّين شرب كأس شاي؟

- أمّا الشاي فلا، ولكن ربّما كأس نبيذ. سيكون ذلك جيّدًا لي بعد أن كتبتُ التّقرير الأصليّ الّذي بلغ 34 صفحةً مع سَبْع نُسَخٍ أخرى.

- هذا ما كنت أريده. عاش الانطلاق!

جلستا بجانب نافذة. ومن طاولةٍ مجاورةٍ أخذ رجلٌ شابٌّ وأنيقٌ ينظر إليهما نظرةً مُتفحّصة.

- حسناً، قالت ثيليا بصوتٍ منخفض، يبدو أنّنا مازلنا جديرتَيْن بنظرات الرّجال.

- وهل هذا يُثيرك أمْ يجعلكِ كئيبة؟

- لا أدري. هذا يتوقّف كثيرًا على حالتي المعنويّة، وعلى شكل الشّخص المتلصّص أيضًا؟

- وهل يُثيرك هذا الشّكل؟

- لا.

- الحمد لله أنّك أجَبْتِ بـ«لا».

وضع النّادل كأسَي الشّراب بهدوء.

- بصحّتكِ.

- بصحّتكِ وحرّيّتكِ.

- جيّد. هذا أكْمَلُ.

- وَأعتقدُ أنّه كان شعارَ القائد أرتيغاس.

- حقًّا؟ وكيف عرفتِ ذلك؟

- لو أنّك عشتِ السّنوات الّتي عشتُها أنا مع سانتياغو، لصرت أنتِ أيضًا تحفظين سيرة القائد أرتيغاس. إنّه مهووس به كثيرًا.

انتهزت ثيليا الفرصة لتشربَ من كأسها قليلاً.

- ما آخر الأخبار الّتي وصلتك؟

- هي الأخبار ذاتها في كلّ مرّة. يكتبُ بانتظامٍ، ما عدا حين يعاقبونه على قيامه بشيء مّا. ومعنويّاته جيّدة.

- وهل هناك أملٌ في أن يُطلقوا سراحه؟

- قد تكون هناك دواعٍ. أمّا الآمالُ فليست عريضة.

لم يكن في الشّارع، عند تلك السّاعة، ما يدعو إلى الانبهار. وظلّت المرأتان صامتَتَيْن عدّة دقائق، تنظران إلى السّيّارات والحافلات الممتلئة والنّساء اللّواتي يصحبن كلابهنّ والمتسوّلين بأوراقهم الّتي كتبت عليها قصصهم الإيضاحيّة وإلى أطفال الشّوارع بملابسهم الرثّة وإلى الشّباب الوسيمين ورجال الشّرطة. كانت ثيليا أوّل من تخلّص من هذه الرّتابة المثيرة للدّهشة.

- وأنت؟ كيف تشعرين؟ كيف تحتملينَ انفصالاً طويلاً كهذا؟ (توقّفت لَحْظَةً) إذا كنتِ لا ترغبين. فلا تجيبيني.

- في الحقيقة، أودّ أن أجيبكِ. ولكن المشكلة هي أنّني لا أملك إجابة.

- ألا تعرفين ما تَشعرين به؟

- أشعرُ بأنّني مُشوّشة وتائهة وغير واثقةٍ من نفسي.

- وهذا منطقيّ، أليس كذلك؟

- ربّما. لكنّه لا يبدو لي منطقيًّا جدًّا، حين أرغبُ في الإجابة عن سؤالك الثّاني المتعلّق بكيفية احتمالي الانفصال؟

- ما الّذي يحدث؟

- ما يحدثُ هو أنّني أحتملهُ ببساطةٍ، بكلّ بساطةٍ. وهذا ليس أمرًا طبيعيًّا.

- لا أفهمك يا غراثييلا.

- أنتِ تعرفين أنّنا، أنا وسانتياغو، كنّا نُشكِّلُ زوجًا رائعًا. وتعرفينَ أيضًا أنّنا متماثِلان كثيرًا في السّياسة. كنّا في المربّع نفسه، وإن كان يقبَعُ الآن في السّجن وأنا هنا حرّة طليقة. حينما ألقوا القبض عليه، ظننتُ أنّني لن أستطيع احتمال الأمر. فارتباطنا لم يكن جسديًّا فحسبُ. وإنّما كان روحيًّا أيضًا. لا يمكنكِ تصوّر مدى حاجتي إليه في الفترة الأولى.

- والآن لا؟

- الأمر ليس بهذه البساطة. أنا مازلتُ أحبّه. وكيف لا أحبّه بعد مرور عشر سنواتٍ على علاقتنا الرّائعة؟ وفِكرةُ أن

يكون سجينًا تبدو لي مروّعة. وأنا على وعيٍ كاملٍ بآثار غيابه في تربية بياتريث.

- نعم. ولكن كلّ هذا يوجد في كفّة ميزانٍ واحدة. ماذا عن الكفّة الأخرى؟

- المشكلة هي أنّ هذا الانفصال الإجباريّ جعله شخصًا أكثر حنانًا. أمّا أنا فأصبحتُ أكثر صلابةً. سأشرح لكِ الوَضْعَ بكلماتٍ قليلة، وهذا أمرٌ لا أعترفُ به لأحد. حتّى إنّه يصعبُ عليّ الاعتراف به لنفسي: كلّما مرّ وقتٌ أكثر، أشعرُ بأنّني أحتاج إليه بدرجةٍ أقلّ.

- غراثييلا.

- أنا أعرف ما ستقولينه لي: إنّ الأمر غير منصفٍ. أعرف هذا جيّدًا. لستُ غبيّةً حتّى لا أعرفه.

- غراثييلا.

- ولكنّني لا أستطيع أن أستمرّ في خداع نفسي. مازلتُ أحسّ تجاهه بالكثير من الودّ، ولكنّه شبيهٌ بما يمكن أن تحسّه تجاهه أيّ زميلةٍ في النِّضال، لا زوجته. هو يقضّي الوقت في الاشتياق إلى جسدي، يشعرني بذلك دائمًا في رسائله، أمّا أنا فلا أشعرُ بالحاجة إلى جسده. وهذا يجعلني أحسُّ، كيف سأقول لكِ؟ بأنّني مُذنبة. لأنّني في الحقيقة لا أعرف ماذا يَحْدُثُ لي.

- قد يكون هناك تفسيرٌ للأمر.

- طبعًا، أنتِ تعتقدين أنّ هناك رجلاً آخر في حياتي. ولكن في الواقع ليس هناك أيّ رجلٍ آخر.

- متأكّدة؟

- حتّى الآن ليس هناك أيّ رجلٍ آخر.

- لماذا أضَفْتِ : حتّى الآن؟

- لأنّه من الممكن في أيّ لحظةٍ أن يدخل رجلٌ آخر في حياتي. فألاّ أشعرَ بالحاجة إلى جسد سانتياغو تحديدًا، لا يعني أنّ جسدي ميت. ثيليا: منذ أكثر من أربع سنواتٍ لم أُمارس الحبّ مع أيّ شخص. ألا تعتقدين أنّ هذا أمرٌ مبالغ فيه؟

- أنا لا أعرف، لا أعرف.

- أنت لديكِ بطبيعة الحال بيدرو بجانبكِ. وأمورُكِ على ما يرام لحسن الحظّ. ولكن، هل بإمكانك معرفةُ ماذا سيحصلُ لكِ لو قضّيت أربعَ سنواتٍ دون أن تَرَيْه ودون أن تَلْمَسيه، ودون أن يَرَاكِ هو وَيَلْمَسَكِ؟

- لا أعرف ولا أريدُ أن أعرف.

- يبدو لي من الجيّد أن تمتنعي عن مواجهة مشكلةٍ ليست مشكلتكِ بشكلٍ مجّاني. ولكنّني أعرفُ ما الّذي يحصلُ لي. وليس لديّ مخرجٌ آخر سوى معرفةِ الأمر. ويُمكنني أن أؤكّد لكِ أنّ الوضع ليس سهلاً ولا مريحًا ولا سارًّا.

- ولم تفكّري في إخباره بالأمر شيئًا فشيئًا، رسالةً تِلْوَ أخرى؟

- فكّرتُ في ذلك بطبيعة الحال. وهذا يُشعرني بخوفٍ رهيب.

- خوف؟ من ماذا؟

- من أن أحطّمه. من أن أحطمّ نفسي. لا أدري بالضّبط.

خلف الجدران
(المُكمّل)

أن تصلني أخبارٌ منكِ يشبه أن أفتحَ نافذةً: ما تحكين لي عنكِ وعن بياتريث وعن العجوز وعن العمل وعن المدينة. أحتفظُ بمواعيد الجميع، ولذا فإنّ بإمكاني في أيّ لحظة أن أنظّم صوري: ستكونُ غراثييلا الآن بصددِ الرّقن على الآلة الكاتبة، وأبي قد أنهى حصّته في هذه اللّحظة، وبياتريث بصددِ تناول فطورها على عَجَلٍ حتّى لا تتأخّر في الذّهاب إلى المدرسة. حين يكون الواحد منّا مضطرًّا إلى المكوثِ ساكنًا في مكانٍ واحدٍ، كم تصير مدهشةً الحركة الذّهنيّة الّتي يُمكن اكتسابها. يمكن تمديد الحاضر كما يشاء المرء، أو القفز نحو المستقبل بسرعةٍ مذهلة، أو العودة إلى الخلف، وهذا أخطر فهناك توجدُ الذّكريات، كلّ الذّكريات، الجيّدة والعاديّة والكريهة. هناك يوجد الحبّ، أيْ توجدين أنتِ والوفاءات الكُبرى والخيانات الكُبرى أيضًا. هناك يوجدُ ما كان بوسع المرء القيام به وظلَّ إمكانًا، وما كان بوسعه ألاّ يقوم به وصار واقعًا. مفترقُ طُرُقٍ حيثُ الطّريق الّتي وقع عليها الاختيار هي الطّريق الخطأ. ومن هناك يبدأ الشّريط

السّينمائي، بمعنى كيف كان للحكاية أن تصير لو أنّ الاختيار وقع على الوجهة الأخرى، تلك الّتي استُبْعدت آنذاك. عمومًا، بعد عدّة لقطاتٍ، يوقفُ المرء العَرْضَ ويُفكّر في أنّ الطّريق الّتي اختارها لم تكن خاطئةً تمامًا وأنّه ربّما لو كان اليوم في مفترق الطّرق ذاته، فإنّ اختياره سيكون هو نفسه، باختلافاتٍ بسيطة طبعًا، وبالتّأكيد بسذاجةٍ أقلّ، وبحذرٍ أكثر، بسبب الشّكوك. ولكن مع المحافظة على الطّريق الأساسيّة. هذه المساحات البيضاء الكبيرة هي عادةً مناطق تعرف فيها الهمّة خمودًا، ولكن إذا تمّ التّعامل معها بشكلٍ مغايرٍ فإنّه يمكن استثمارها أيضًا. في الفترات الأخيرة الّتي سبقت الاعتقال الإجباريّ وما قبلها، جرى كلّ شيءٍ على عجلٍ ودون ترتيبٍ وتحت ضغوطات كثيرة، وكان محاصرًا بضروراتٍ شتّى لا تَرْحَمُ وبقرارتٍ كثيرةٍ يجبُ اتّخاذها، إلى درجة أنّه لم يكن هناك وقتٌ للتّأمّل، ولا قدرة على التّفكير ومعاودة التّفكير في خطواتنا، أو النّظر بوضوحٍ في أنفسنا. أمّا الآن فهناك وقت، بل هناك متّسعٌ من الوقت، حالات أرقٍ عديدة، وليالٍ كثيرة تحضر فيها الكوابيس نفسها والظّلال نفسها. والنّزوع الطبيعيّ والأكثر سهولةً في آنٍ هو التّساؤل فيمَ ينفعني الوقت الآن؟ لماذا هذا التأمّل الّذي تأخّر عن وقته ومرّ زمانه وأصبح غير ذي جدوى؟ ومع ذلك فهو يُفيد. الميزة الوحيدة لهذا الوقت الفارغ هو أنّه يُتيح للمرء إمكانيّة أن ينضَجَ، وأن يعرف مع مرور الوقت حدودَه الخاصّة ونقاطَ ضعفه ومقدار قوّته، وأن يقترب شيئًا فشيئًا من حقيقة نفسه، وألاّ يبني آمالاً كاذبةً

حول أهدافٍ لا يُمكنُه أبدًا الوصول إليها. وفي المقابل يمكنه أن يتهيّأ معنويًّا ويُرتّب وَضْعَهُ ويتدرَّب على الصّبر للحصول على ما يمكن ذات يومٍ، أن يصير في متناول يده. حتّى إنّه ليَتَمكّن، في هذه الظّروف المتفرّدة، من إصابة الهدف والتّعمّق في التّحليل. وسأجرؤ على الاعتراف لكِ بشيءٍ: إذا كنتُ بالفعل لا أستطيع أن أضع مخطّطًا خماسيًّا لكوابيسي، فإنّ بإمكاني أن أحلم وأنا مستيقظ وأوزّع أحلامي على جملة فصول. وهكذا شيئًا فشيئًا سأفصّلُ وأدقّق النّظر فيما كنتُ أريدُه من قبل وما صرت أريده الآن، ما فعلتُ وما سأفعل، لأنّني سأتمكّن يوما مّا من العودة إلى القيام بعدّة أشياء. ألا تعتقدين ذلك؟ ذات يوم سأغادر هذا المنفى الغريب وألتحق بالعالم من جديد. أليس كذلك؟ وسأكون شخصًا مختلفًا، وأعتقد علاوةً على ذلك أنّني سأكون شخصًا أفضل، ولكنّي لن أكون مطلقًا عدوَّ الشّخص الّذي كُنتُه أو عدوّ ما أنا عليه الآن، وإنّما سأكون مكمّلاً له.

نعم، أن تصلني أخبارٌ منكِ هو أشبه بفتحِ نافذةٍ، ولكن حينها قد تجتاحني رغبةٌ لا يمكنُ كبحُهَا في فتح نوافذَ أخرى، والأسوأ من هذا، ويا لَهُ من جنون، هو الرغبة في فتح باب. ومع ذلك، لقد حُكِمَ عليّ برؤية خلفيّة هذا الباب وظهرِهِ العدائيّ والصّلب المنيع المسلّح كالإسمنت، ولكنّه لن يكون أبدًا أكثر صلابةً من حجّةٍ قويّةٍ أو من سببٍ مُقنع.

أن تصلني أخبارٌ منكِ هو أشبه بفتح نافذةٍ، ولكنّه إلى غاية الآن ليس كفتحِ باب. ربّما سأردّد كلمة باب مرّات كثيرة، لكن

ينبغي لكِ أن تفهمي أنّ هذه الكلمة هنا تُماثل هوسًا. وإنْ بدت المسألة بالنسبة إليكِ غير قابلةٍ للتّصديق، ولكنّ كلمةَ باب تمثّل هوسًا أقوى بكثيرٍ من كلمة قضبان. توجد القضبانُ هناك، إنّها وجودٌ حقيقيّ ومقبول ومفهوم بكلّ ضخامتها البليدة. ولكن ليس بإمكان القضبان أن تصيرَ شيئًا آخر غير ما هي عليه فعلاً. ليس هناك قضبانٌ مفتوحةٌ وقضبانٌ مغلقة. في المقابل، الباب هو جماعُ أشياءَ كثيرة. فعندما يكون مغلقًا، وهو كذلك دَوْمًا، فهذا يعني العُزْلَةَ والحَظْرَ والصّمت والحنق. وإن حدث وفُتِحَ، لا من أجل فسحةٍ أو عملٍ أو عقوبةٍ، وهي أسبابٌ أخرى عديدةٌ لإغلاقه، وإنّما من أجل العالم، فسيكون ذلك أشبه باستعادةٍ للواقع وللنّاس الّذين نحبّهم وللشّوارع والأذواق والرّوائح والأصوات والصّور والشّعور بالحرّية. سيكون شبيها مثلا، بأن أستعيدكِ أنتِ وأستعيدَ ذراعَيْك وفَمَكَ وشَعْرَك. لكن ما الفائدةُ من محاولة إدارةِ مزلاجٍ لا يستسلمُ، وإدارةِ قفلٍ لا يفتح.

في الحقيقة، إنّ كلمة باب هي من أكثر الكلمات تداولاً هنا، أكثر بكثيرٍ من كلّ الكلمات الأخرى الّتي تنتظر خلف ذلك الباب، لأنّنا جميعًا نعرف أنّنا كي نصل إليها، أو كي نصل إلى كلماتٍ مثل ابنٍ وزوجةٍ وصديقٍ وشارعٍ وسريرٍ وقهوةٍ ومكتبةٍ وساحةٍ وملعبٍ وشاطئٍ وميناءٍ وهاتفٍ، من اللاّزم اجتياز كلمة باب. وهذا الباب، وهو يُدير لنا ظهرَه دَوْمًا ولكنّه موجودٌ هنا، ينظرُ إلينا بشدّةٍ وتعصّبٍ وقسوةٍ وتصلّبٍ، دون أن يمنحنَا أيّ

وعدٍ ودون أن يُعطينا أيّ أملٍ، يُغلق نفسه دَوْمًا في وجوهنا. ومع ذلك، نحن لا نستسلم هكذا بسهولةٍ، نحن أيضًا ننظّم حملتَنَا ضدّ العُزلة ونكتبُ رسائل أو مشاريعَ رسائل، آخذين المرسل إليه والرّقيب في الوقت ذاته بعين الاعتبار، فنستمرّ كالمعتاد في ممارسة الرّقابة على أنفسنا ولكنّنا نكون أجرأَ بعض الشيء. أو نفكّر بحرّيّةٍ في حواراتٍ داخليّةٍ مثل هذا الحوار، وبالأحرى هو لن يصل حتّى إلى أن يُكْتَب على قطعة ورقٍ مهترئ. ولكن من أبرز ميزات هذه الحملة وأكثرها إيجابيّةً هي تحديدًا أن نقطع على أنفسنا وعودًا، وأن نعطي أنفسنا آمالاً، ليست تلك الّتي لا تُصدّق أو الأخرى ذات النّزوع الانتصاريّ، وإنّما تلك القنوعة والمحتملة، وأن نتخيّل أنّنا نفتح الباب في وجوهنا. أحيانًا يكون لدينا ورقُ لعبٍ أو شطرنج، ولكن ليس دَوْمًا. آه، غير أنّ لَدَيْنَا حقّ لَعِبِ لُعْبَة المستقبل، وبطبيعة الحال في لعبة الحظّ تلك نحتفظ دَوْمًا بورقةٍ في كمّ القميص أو نحتفظ بحركةٍ «محاصرة الملك وقَتْلِه» وهي حركةٌ أصيلةٌ وسرّيّة، حركةٌ لن نبذِّرَها في اللّعب اليوميّ بل ندّخِرُها للفرصة الكبيرة، مثلاً حين نواجهُ كابابلانكا أو أليكهيني، ولا نقول كاربوف لأنّه موجود وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن نسيء إلى اسمه. نتحدّث أيضًا عن الموسيقى والموسيقيّين كلّما اتّفق ألاّ يأخذوا زميلي في الزّنزانة أو يأخذوني أنا، تُرَافِقُنا الموسيقى إلى مكانٍ آخر. ولكن يُمكنني بمفردي أو مع شخص آخر أن أتذكّر مثلاً الكثير من أمسياتي الرائعة وأنا متفرّجٌ. وهكذا أحكي لنفسي،

في حالات العُزلة، أنّني رأيتُ المطرب والممثّل موريس شوفالييه وسمعته في مسرح سوليس، بعد أن أصبح مخضرمًا، ولكنّه ظلّ يحافظُ على روح الدّعابة وكان خفيف الظّلّ حتّى جعلَنَا نعتقدُ جميعًا أنّه يرتجل كلّ واحدةٍ من نُكته الّتي يتداولُها الجميع. ورأيت مغنّي الجاز لويس أرمسترونغ وسمعتُه في مسرحِ بلاثا، ومازال بإمكاني إلى غاية الآن أن أستحضرَ بيني وبين نفسي الطّابع البشريّ المقنع الّذي تعكسُه بَحَّةُ صَوْتِه. ورأيتُ المغنّي الفرنسيّ شارل تروني وسمعتُه، لا أدري بالضّبط في أيّ مركزٍ إسبانيّ بشارع سوريانو، وكان الجميع يجلسون على كراسٍ كأنّها كراسي طاولة أكلٍ، أمّا نحن الأطفال فكنّا نجلسُ على الأرض. وأخذ الفرنسيّ الّذي كان يتصنّع قليلاً ولكنّه ماهرٌ، يغنّي لنا أغنيةً اكتشفتُ بعد سنواتٍ أنّها تُسمّى الشّاطئ[1] أو مساء الخير سيّدتي الجميلة[2].

ورأيتُ المغنّية الأمريكيّة ماريان أندرسون وسمعتُها، لا أذكر الآن أين حدث ذلك بالضّبط، في مسرحِ سودري أمْ في مسرحِ سوليس؟ ولكن نعم أتذكّر بشكلٍ واضحٍ هيئةَ تلك السّمراء العظيمة الوديعة، وهي تجلس كحيوانٍ ضخمٍ مُنقرضٍ يُحاول بشكلٍ مأساويّ أن يتسامَى بجِنْسِه. وبعد ذلك بكثيرٍ رأيتُ الكاتبَ والنّاقد الفرنسيّ روب جرييه وسمعتُه يقولُ معتدًّا بنفسه إنّ توظيف صيغة الماضي النّاقص في رواية ألبير كامو «الغريب»

---

(1) La mer بالفرنسية في الأصل الإسباني.

(2) Bonsoir jolie madame بالفرنسية في الأصل الإسباني.

كانت أهمّ من القصّة المحكيّة نفسها. ورأيتُ مرسيدس سوسا وسمعتُها وهي تغنّي وحيدةً وخفيّةً تقريبًا في مسرح زيتلوفسكي بشارع دوراثنو. ورأيتُ الرّوائيّ روا باستوس وسَمِعْتُه، وكان مُتواضعًا وغير مُتصنّعٍ، وهو يقولُ أمام جمهورٍ قليلِ العددِ بشكلٍ مخزٍ، إنّ الباراغواي كانت خارجَ حساباتِ الزّمن دَوْمًا. ورأيتُ السيّد إثيكييل مارتينيث إسترادا وسَمِعْتُهُ، شهورًا قليلةً قبل وفاته، وهو يُلقي محاضرةً حول موضوع لا أتذكّره لأنّ انتباهي آنذاك كان منصبًّا على وجههِ النّحيف الشّاحب الجافّ وعلى عينَيْنِ حادَّتَيْ النّظرات وكانتا الدّليلَ الوحيدَ على أنّه مازال مُتشبّثًا بالحياة. ورأيتُ الشَّاعر نيفتالي رييس وسَمِعْتُهُ، وهو يمزحُ ويسخرُ ويزهو بنفسه في لطفٍ، ويروي في نَفَسٍ شَاعِرِيٍّ قويٍّ، مثل مزمورٍ، ذكرياته في إيسلا نيغرا. ورأيتُ ابن الجزيرة الأخرى وسَمِعْتُهُ في مسرح إكسبلانادا، كنتُ بين جمهورٍ يهتزّ أمام مدّة الحفل وعنفوانه وأسلوبه المفاجئ وقد شكّل بالنّسبة إلى الكثيرين مصدرَ ارتباك. إنّها ذكرياتُ صبيٍّ وذكرياتُ مراهقٍ وذكرياتُ رجلٍ ولكنّها بشكلٍ لا يقبلُ الجدال ذكرياتي الخاصّة. لذا، فإنّني حين أرفع السّتارة، كما يمكنكِ أن تلاحظي، أصير شخصًا بالغ الأهمّيّة، وأنا أيضًا أصفّق لنفسي وأطالبُ نفسي كما يفعل الجمهور: نُريدُ المزيد، نُريدُ المزيد، نُريدُ المزيد، نُريدُ المزيد.

منـاف
(رجل في دهليز)

كنتُ قَدْ تعرّفتُ على الدّكتور سيليس زوازو في مونتيفيديو، منذ قرابة عشرين عامًا، حين جاء ليعيش منفيًّا في الأوروغواي، إثر نجاح واحدٍ من الانقلابات العسكريّة الكثيرة التي لطالما لطّخت تاريخ بوليفيا. نشرت آنذاك كتبًا قليلةً وكنتُ أعمل في قسم الحسابات بشركةٍ عقاريّةٍ كبيرة.

ذات مساءٍ رنّ هاتف مكتبي وجاءني صوتٌ رصينٌ من السّماعة: «معك سيليس زوازو». في البداية ظننتُ أنّها مزحة لكنّ ذلك لم يؤثّر في إجابتي إذ لم أُسقط فرضيّة أن يكون الأمر حقيقة وإن كانت فرضية ضعيفة. لم تكن دهشتي قد زالت بعدُ، ولكنّه قطع شكّي باليقين. في الحقيقة، كان يدعوني إلى الذّهاب للقائه في فندق نوغارو. فكّرت في أنّه سيحدّثني عن بوليفيا وعن العسكر الّذين استولوا على السّلطة، وهو على أيّ حالٍ لم يَشرح لي الأسباب الّتي جعلته يختارني أنا تحديدًا، ولكنّني كنتُ مخطئًا.

سنوات قليلة قبل ذلك كنتُ قد نشرتُ مقالةً عن مارسيل بروست والإحساس بالذّنب. المهمّ، أنّ سيليس زوازو كان يريدُ الحديث معي حول بروست ومواضيع أدبيّةٍ أخرى. وجدتُ أنّ ذلك السّياسيّ الّذي لم يسافر كثيرًا، تلك الشّخصيّة الّتي حكى لي العديد من الأصدقاء عن مواقف تؤكّدُ شجاعتها المدنيّة، هو رجل مثقّف بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، وكان قارئًا نهمًا للأدب المعاصر.

تكلّمنا عن بروست، بطبيعة الحال، ونحن نحتسي الشّاي ونأكل الخبز المحمّص. لم يكن ينقصنا سوى حلوى المادلين. وخلال المرّات القليلة الّتي تطرّقنا فيها إلى المسائل السّياسيّة، كان ذلك بسبب أسئلتي، أمّا هو فكان يريد الحديث عن الأدب، وبالمناسبة، لقد قال أشياء ذكيّة وبالغة العمق.

بعد ذلك اللّقاء الأوّليّ، احتسينا الشّاي مرّاتٍ عديدة في فندق نوغارو، وأنا أحتفظ بذكرياتٍ قويّةٍ وفي غاية اللّطف عن تلك الحوارات. وبعد ذلك بقليلٍ غادر مونتيفيديو والتحق من جديدٍ بصفوف الكفاح والتقلّبات السّياسيّة في بلده بوليفيا، البلد الّذي لا يمكن تعويضه بأيّ بلدٍ آخر.

مرّت سنوات طويلة دون أن أراه، وإن كنتُ قد تابعتُ دَوْمًا نشاطه السّياسيّ الّذي لا يتوقّف: بشكلٍ علنيٍّ عندما كان يُتاح له ذلك، وبشكلٍ سرّيٍّ حينما لا يكون الأمر متاحا. ذات ليلةٍ ماطرة من أحد شهور العام 1974 في بوينوس آيرس، أعتقد أنّني كنتُ

قادمًا من شارع الباراغواي محاولاً أن أحمي نفسي من المطر. وفجأةً، عندما مررتُ راكضًا أمام دهليز رأيتُ هناك رجلاً كان هو أيضًا يتّقي وابل المطر.

تقهقرتُ إلى الخلف. كان ذلك الرّجل الدّكتور سيليس بِلَحْمِه وشحمه، وقد رآني وتعرّف عليّ. «الظّاهر أنّك اضطررتَ أنتَ أيضًا إلى القُدوم إلى المنفى» «نعم يا دكتور. عندما تحدّثنا في مونتيفيديو بدا هذا الوضع مستحيلاً، أليس كذلك؟» «نعم، كان يبدو كذلك». لم أميّز في ذلك الظّلام الدّامس ابتسامته، ولكنّني كنتُ أتخيّلُها. «وفي هذا المنفى الخاصّ بك، هذا الّذي لم يكن منتظرًا، أيّ مرحلةٍ هي الحاليّة؟». أجبتُ بشيءٍ من الخجل: «أنا في المرحلة الثّالثة». «إذن لا تيأس. أنا وصلتُ إلى المرحلة الرّابعة عشرة».

في تلك اللّيلة لم نتحدّث عن بروست.

بياتريث
(هذا البلد)

هذا البلدُ ليس بلدي لكنّه يُعجبني كثيرًا. لا أعرف إن كان إعجابي به يفوق إعجابي ببلدي أو يقلّ عنه، فقد قدمتُ إلى هنا في سنٍّ مبكّرة ولهذا لا أتذكّر كيف كان. أحد الفروق الّتي توجد بين البلَدَيْن هي أنّ كلمة «أحصنة» تُكتبُ بشكلٍ مغايرٍ في كلّ واحدٍ منهما، لكنّها جميعًا تَصْهَل، والأبقار تخور والضّفادع تنقّ.

هذا البلد أكبر من بلدي ومردّ ذلك على الخصوص إلى أنّ بلدي صغيرٌ جدًّا. في هذا البلد يعيشُ جدّي رفائيل وأمّي غراثييلا، وملايين آخرون. من الجميل معرفة أنّ الواحدة منّا تعيشُ في بلدٍ تسكنهُ ملايين عديدة من البشر. عندما تأخذني غراثييلا معها إلى مركز المدينة، تمرّ من أمامنا حشودٌ من البشر في الشّارع. يمرّ الكثير والكثير من النّاس أمامنا، إلى درجةٍ يبدو لي فيها أنّه يجبُ عليّ أن أتعرّف إلى ملايين النّاس جميعهم الّذين يعيشون في هذا البلد.

أيّامَ الآحاد تكون الشّوارع شبه خالية، وعندئذٍ أتساءلُ أين اختفى ملايين البشر الّذين رأيتهم يوم الجمعة؟ جدّي رفائيل

يقول إنّ النّاس يمكثون أيّام الآحاد في بيوتهم للرّاحة. والرّاحة تعني النّوم.

في هذا البلد ينامُ النّاس كثيرًا، خصوصًا أيّام الآحاد لأنّ الملايين من النّاس ينامون في هذا اليوم. إذا شخر كلّ واحدٍ من النائمين تسع مرّاتٍ في السّاعة، أمّي مثلا تشخر أربع عشرة مرّة في السّاعة، فهذا يعني أنّ كلّ مليون نسمة يشخرُ تسعة ملايين مرّة في السّاعة. أي أنّ الشّخير يعمّ الأرجاء.

أحيانًا أرى في النّوم أحلامًا. وتقريبًا أحلم بهذا البلد دَوْمًا، ولكنّني في بعض اللّيالي الأخرى أحلم ببلدي. تقول لي غراثييلا إنّ الأمر غير ممكنٍ لأنّه يستحيلُ عليّ تذكّر بلدي. ولكنّني عندما أحلم أتذكّره فعلاً، رغم أنّ غراثييلا تقول إنّني أقوم بخدعة. والحقّ أنّني لا أقوم بأيّ خدعة. آنذاك أحلم بأنّ أبي يأخذني وهو يمسك بيدي إلى فيلا دولوريس وهو اسم حديقة الحيوانات. ويشتري لي الفول السّودانيّ لأعطيه للقردة. وهذه القردة ليست من حديقة حيوانات هذا البلد لأنّني أعرف قردتها جيّدًا وأعرف زوجاتها وأبناءها. قردة أحلامي هي قردة فيلا دولوريس وأبي يقول لي «أترين يا بياتريث تلك القضبان الحديديّة؟ هكذا أعيش أنا أيضًا». وعندئذٍ أستيقظ في هذا البلد وأنا أبكي، فتضطرّ غراثييلا إلى أن تأتي لتقول لي: «ولكنّه يا صغيرتي مجرّد حلم».

أنا أقول يا للحسرة، ألاّ يكون أبي موجودًا، مثلاً، بين ملايين النّاس الّذين يعيشون في هذا البلد؟!

جرحى ومكدومون
(أن تحلم مستيقظة)

- أترين، لهذا لا أريد أن تأتي وحدك.

- ماذا فعلت؟

- لا تتظاهري بالبراءة الآن.

- ولكن ماذا فعلت؟

- كنتِ ستعبرين الشّارع وإشارة عبور المارّة حمراء.

- لا توجد أيّ سيّارةٍ قادمة.

- بل هناك سيّارة قادمة يا بياتريث.

- لكنّها بعيدة جدًّا.

- هيّا نعبر الآن.

تمرّان قبالة السوبر ماركت. ثمّ تمرّان أمام المصبغة.

- غراثييلا.

- ماذا هناك؟

- أعدكِ بأن أعبر الشّارع دَوْمًا حينما تكون الإشارة خضراء.

- سبق أن وعدتني بذلك الأسبوع الماضي.

- لكنّني أعدكِ بكلّ جدّيّةٍ هذه المرّة. هل تُسامحينني؟

- ليست مسألة مُسامحة من عدمها. ألا ترين أنّك إذا عبرت الشّارع وإشارة عبور المارّة حمراء يمكن أن تدهسك سيّارة؟

- معك حقّ.

- ماذا سأفعل أنا يا بياتريث لو حدث لك مكروه؟ كيف سيشعرُ والدُك لو أصابك سوء؟ ألا تفكّرين في ذلك؟

- لن يحدثَ لي أيّ شيء يا أمّي. لا تبكي. أرجوك. سأعبر الشّارع دَوْمًا والإشارة خضراء. غراثييلا، أمّي، لا تبكي.

- لقد توقّفتُ عن البكاء يا بلهاء. هيّا، ادخلي.

- مازال الوقت مبكّرًا. الحصص الدّراسيّة ستبدأ بعد عشرين دقيقة. والشّمس دافئةٌ وجميلة. وأريد أن أبقى معك مزيدًا من الوقت.

- أنتِ كثيرة التّملّق.

حين تقول غراثييلا تلك الجملة، ترتخي قليلاً وتبتسم.

- هل سامحتني؟

- نعم.

- ستذهبين إلى المكتب الآن؟

- لا.

- هل أنتِ في إجازة؟

- عملتُ كثيرًا الأسبوع الماضي ولذا منحوني هذا الاثنين يوم إجازة.

- وماذا ستفعلين؟ ستذهبين إلى السّينما؟

- لا أعتقد. أظنّ أنّني سأعود إلى البيت.

- ستأتين لاصطحابي عند الخروج من المدرسة؟ أم بإمكاني العودة بمفردي؟

- بودّي أن أثق فيكِ.

- ثقي يا أمّي. لن يحدثَ لي شيء، حقًّا.

لا تنتظر بياتريث إجابة غراثييلا. تقبّلها، في الهواء تقريبًا. وتدخل وهي تجري إلى المدرسة. تظلّ غراثييلا ساكنةً بُرهةً تُراقب بياتريث وهي تبتعد. وبعد ذلك تضغط على شفتيها وتذهب.

سارت ببطءٍ وهي تأرجحُ حقيبة يدها، وكانت تتوقّف أحيانًا كأنّها تائهة. حين وصلت إلى الجادّة، طافت بنظرتها سلسلةُ المباني الكبيرة. فجأةً، يحتكّ بها الأشخاص الّذين يعبرون الشّارع، يدفعونها، يقولون لها أشياء، وعندها تقرّر أن تعبر هي أيضًا. ولكن قبل أن تصل إلى الرّصيف المقابل، كانت الإشارة قد أصبحت حمراء وكان على سائق شاحنة أن يُدير المقْودَ لتجنّب دهسها.

تنعطف الآن إلى شارع شبهِ مقفرٍ، به عدّة حاويات زبالة طافحة ونتنة الرّائحة. تقترب من إحداها وتنظر باهتمام إلى ما بداخلها. تقوم بحركةٍ كما لو أنّها سَتُدخل يدها، لكنّها تتوقّف.

تسيرُ أمام مجموعاتٍ سكنيّةٍ عديدة. في الزّاوية الّتي تسبق الجادّة الأخرى هناك امرأةٌ تتسوّل، بجانبها ينام طفلان صغيران جدًّا. حين تقترب، تبدأ المرأة من جديدٍ بترديد لازمتها.

- لماذا تتسوّلين؟ لماذا؟

تنظرُ المرأة إليها مندهشة. هي معتادةٌ على الصَّدَقة وعلى الرّفض وعلى اللاّمبالاة. ولكنّها غير معتادةٍ على الحِوار.

- كيف؟

- أسألك لماذا تتسوّلين؟

- لكي آكل سيّدتي. أعطني لوجه لله.

- ألا تستطيعين العمل؟

- نعم يا سيّدتي. أعطني لوجه لله.

- لا تستطيعين أم لا تريدين؟

- لا أستطيع يا سيّدتي.

- لماذا؟

- لا يوجد عمل. أعطني حبًّا في الله.

- دعي الله وشأنه. ألا تنتبهين إلى أن الله لا يعيرك أيّ اهتمام؟

- لا تقولي هذا يا سيّدتي. لا تقولي هذا.

- خذي.

- شكرًا سيّدتي. لوجه الله.

تمشي الآن بخطوات أسرع وأكثر ثباتًا. بقيت المرأة المتسوّلة في الخلف مذهولة. يجهشُ أحدُ طفلَيْها بالبكاء. تديرُ غراثييلا رأسها لتنظر إلى المجموعة، لكنّها لا تتوقّف. وهي على بعد شارعَيْن من منزلها، تميّز بشكلٍ غائمٍ صورةَ رولاندو الّذي كان يستندُ إلى الباب. تسير بضعة أمتارٍ أخرى وتحيّيه رافعةً ذراعها. ولكن يبدو أنّه لم يرها. فتكرّر الحركة وحينها يجيبُ هو أيضًا ملوّحًا بذراعه. ويتقدّم للقائها.

- كيف عرفتَ أنّني قادمة إلى المنزل؟

- أمرٌ بسيط. اتّصلت بمكتبك وقالوا لي إنّك لن تشتغلي اليوم.

- كنت على وشك الذّهاب إلى السّينما.

- نعم. فكّرت في هذه الإمكانيّة. لكنّ الشّمس رائعة إلى درجة أنّه بدا لي من غير المحتمل أن تقرّري حبس نفسك في قاعة سينما. وهكذا أتيت إلى هنا. وكما ترين، أصبت الاختيار.

يقبّلها على خدّيها. تفتّشُ في حقيبتها. وتجد المفتاح فتفتح الباب.

- ادخلْ. اجلسْ. هل تريدُ أن تشرب شيئًا؟

- لا شيء.

تفتح غراثييلا السّتائر وتخلع سترتها. ينظر إليها رولاندو بعينين فاحصتَيْن.

- كنتِ تبكين؟

- هل يظهر عليّ ذلك؟

- هيئتك اليوم توحي بما يسمّى تقنيًّا: ما بعد العاصفة.

- لا تقلق. إنّها اضطراباتٌ بسيطة.

- ماذا حدث؟

- ليس أمرًا مهمًّا. إحساس غير مبرّر بفتور الهمّة أمام متسوّلة، وقبل ذلك غضبةٌ كان لا بد منها على بياتريث.

- على بياتريث؟ مع أنّها غاية في اللّطف.

- إنّها طفلةٌ طيّبة. ولكنّها تغضبني دَوْمًا.

- وماذا حدث؟

- مجرّد غباءٍ منّي. إنّها متهوّرة جدًّا عند عبور الشّارع. وهذا الأمرُ يخيفني.

- أهذا كلّ ما في الأمر؟

يقدّم لها رولاندو سيجارة، لكنّها ترفضها. يأخذ هو واحدة ويشعلها. وينفث أوّل الدخان وينظر إليها من خلاله.

- غراثييلا. متى ستقرّرين؟

- أقرّر ماذا ؟

- أن تعترفي لنفسك. لا أدري بماذا تحديدًا. ولكن من البديهيّ أنّه أمر لا تريدين تقبّله.

- لا تبدأ من جديد يا رولاندو. تزعجني هذه اللّهجة الأبويّة.

- أنا أعرفكِ منذ زمنٍ طويل يا غراثييلا. أعرفكِ حتّى قبل أن

يعرفكِ سانتياغو.

- هذا صحيح.

- ولأنّني أعرفكِ جيّدًا فأنا أعلم أنّك لستِ على ما يرام.

- أشعر بذلك حقًّا.

- وستستمرّين بالشّعور هكذا إلى أن تعترفي به.

- هذا ممكن. لكنّه صعب وقاس.

- أعرف.

- الأمر متعلّق بسانتياغو.

- آه.

- ويتعلّق خصوصًا بي. المهمّ، الأمر ليس معقّدًا إلى هذه الدّرجة. لكنّه قاسٍ. لا أدري ماذا يحدث لي يا رولاندو ويصعبُ عليّ تقبّله. لكنّني لم أعد في حاجةٍ إلى سانتياغو.

- ومنذ متى تشعرين بهذا؟

- لا تطلب منّي تواريخ. لأنّني لا أعرف. إنّه شيء غير معقول.

- لا تستطيعين وصف الأمر بعد.

- لا أجد للأمر وصفًا آخر. إنّه شيء غير معقول يا رولاندو. سانتياغو لم يفعل لي شيئًا. فقط اعتقل. ما رأيك؟ وبعد كلّ هذا، هل يمكن أن نفعل بشخص مّا شيئا أفظع وأبشع؟ هذا ما فعل بي. أُعتقلَ. تَركني.

- هو لم يتركْكِ يا غراثييلا. لقد أخذوه منكِ.

- أعرف ذلك. لهذا أقول لك إنّه شيءٌ غير معقول. أنا أعرف أنّهم أخذوه ومع ذلك أشعر كما لو أنّه تركني.

- وتلومينه على هذا؟

- لا، كيف سألومه على ذلك؟ لقد تصرّف بشكلٍ جيّد، تصرّف بشكلٍ جيّدٍ جدًّا. تحمّل التّعذيب، وكان شجاعًا ولم يبلّغ عن أحد. إنّه قُدوة.

- ورغم ذلك..

- ورغم ذلك بدأت أبتعدُ عنه شيئًا فشيئًا. والبُعْدُ مَنحني متنفّسًا للتّفكير في علاقتنا كلّها.

- الّتي كانت جيّدة.

- كانت جيّدة جدًّا.

- إذن؟

- لم تَعُد كذلك الآن. هو ما يزال يكتب لي رسائل عاطفيّة، حارّة وحنونة. ولكنّني أقرؤها كما لو أنّها كُتبت لامرأةٍ أخرى. أيُمكنك أن تشرح لي ما الّذي حدث؟ أيكون السّجن قد جعلَ من سانتياغو شخصًا آخر؟ أمْ أنّ المنفى حوّلني إلى امرأةٍ أخرى؟

- كلّ شيء ممكن. ولكن بإمكان كلّ شيء أن يكتمل أيضًا وأن يُصبح أكثر غنى وأن يتحسّن.

- أنا لم أتحسّن ولم أصبح أفضل. أشعر بأنّني أكثر بؤسًا وأكثر جفاءً. ولا أريد أن أستمرّ في هذا البؤس والجفاء.

- غراثييلا. هل مازلتِ تُشاركين سانتياغو موقفه السّياسيّ؟

- بطبيعة الحال. إنّه موقفي أنا أيضًا، أليس كذلك؟ ولكن كلّ ما في الأمر أنّه وقع سجينًا. وفي مقابل ذلك أنا موجودةٌ هنا.

- هل تلومينه على التزاماته السّياسيّة؟

- هل أنتَ مجنون؟ لقد فعل ما كان عليه أن يفعل. وأنا أيضًا فعلتُ ما كان عليّ فعله. من هذه النّاحية أنتَ مخطئ تمامًا. ففي هذه النّقطة بالذّات كنّا ومازلنا على وفاق. يوجد الخلل في العلاقة الّتي تجمعنا، لا في العلاقة الاجتماعيّة وإنّما في العلاقة الزّوجيّة. أتفهم؟ هذا على الأقلّ ما أنا متأكّدةٌ منه تمامًا. وما لست متأكّدةً منه هو السّبب. وهو ما يجعلني أحسّ بضيق. فلو أنّ سانتياغو أساء إليّ بأيّ عمل دنيء أو لو أنّي رأيته يقوم بأيّ عملٍ دنيء في حقّ شخصٍ آخر لكان الأمر مفهومًا. ولكنّ الأمر ليس كذلك. إنّه شخصٌ طيّبُ المعدن، وفيٌّ وصديقٌ جيّد ورفيقٌ جيّد وزوجٌ صالح. وكنتُ مغرمةً به كثيرًا.

- وهو؟

- هو أيضًا. ويبدو أنّه ما يزال مغرمًا بي. أنا الّتي جُننت.

- غراثييلا. أنتِ ما تزالين شابّة. أنتِ جميلة وذكيّة وأحيانًا

حنونة كذلك. ولعلّ ما تحتاجين إليه هو المقابل، المقابل العاطفيّ.

- آه، كم هو صعبٌ هذا الوضع.

- ذلك الشّيء الّذي لا يستطيع سانتياغو منحكِ إيّاه عبر الرّسائل، وخصوصًا عبر رسائل تخضع للرّقابة.

- هذا ممكن.

- هل بإمكاني أن أطرحَ عليكِ سؤالاً، لكنّه سيكون سؤالاً طائشًا جدًّا؟

- بإمكانكَ فعل ذلك. وبإمكاني أيضًا ألاّ أجيبك.

- أنا موافق.

- هيّا إذن، اسأل.

- هل تحلمينَ برجالٍ آخرين؟

- هل تقصدُ أحلامًا غراميّة.

- نعم.

- هل تقصد الأحلام وأنا نائمة أم أحلام اليقظة؟

- أقصد كليهما.

- عندما أنام لا أحلم بأيّ رجل.

- وحين تكونين مستيقظة؟

- حين أكون مستيقظة أجل أحلم.

السيّد رفائيل
(حمقى وسيمون وقبيحون)

كتبَ لي سانتياغو، وهو بخير. لقد تعلّمتُ أن أقرأ ما بين سطوره، وأعرف من خلالها أنّه ما يزال سليم العقل، وذاك ما كنتُ أخشاه، لا أن يُبلغ عن أحدٍ أو أن يضعف. هذا لا يمكن. أعتقدُ أنّني أعرف ابني. خوفي كان من أن يفقد رشدَه وينزلقَ نحو ما لستُ أدري. سبق لمدير السّجن أن قال، ولا أدري إن كان المدير الأخير أم ما قبل الأخير: «لم نجرؤ على تصفيتهم جميعًا حين أتيحت لنا الفرصة، وسيكون علينا أن نطلقَ سراحهم في المستقبل. علينا استغلال ما تبقّى لدينا من وقتٍ لنجعلهم يُجنّون». على الأقلّ كان صادقًا، أليس كذلك؟ كان صادقًا وحقيرًا. ولكنّ ذلك الاعتراف الوقح طرح بشكل مّا جوهر القضيّة: المشكلة تكمن فيهم، في هؤلاء الكلاب، هناك شيءٌ شيطانيّ. هم من استغلّوا الوقت ليُجَنّوا. لكنّهم ليسوا حمقى وسيمين، إنّهم مجانين مشوّهون وقبيحو الوجه، مجانين بفعل ميولهم واختيارهم الحرّ، وهو أشدّ أشكال الجنون حقارة. حصلوا على مِنَحٍ للدّراسة في قاعدة فورت

ثانويات العسكريّة ليتخرّجوا منها مجانين. ولكن، رغم أنّ مدير السّجن ذاك قال ذلك، قبل أكثر من خمس سنوات، فأنا مازلتُ متشبّثًا بالكلمات الستّ الوحيدة الّتي يمكن الاستفادة منها في برنامجه المثير للقشعريرة: «علينا أن نطلق سراحهم في المستقبل». لنقل إنّهم لم يجرؤوا على تصفية سانتياغو حين أتيحت لهم الفرصة، ولكن هل سيكون من بين الّذين سيطلقون سراحهم قبل أن يُجنّوا؟ أتطلّع إلى ذلك. لقد تمكّن سانتياغو من أن يولّد أو ربّما من أن يكتشف في دواخله حيويّةً غريبة. وقوعه في جحيم السّجن لم يحوّله إلى رمادٍ، ربّما أصابه بشياطٍ فقط. أعتقد أنّ التّشبّث بسلامة العقل هناك يفيد أكثر من التّشبّث بأمل. وهو ما يزال سليم العقل. سألمسُ شيئًا من خشبٍ حتّى لا يمسّه سوء. ولإزالة كلّ الشّكوك من الأفضل أن يكون شيئًا دون أرجل: مثلاً هذه الملعقة من شجر الزّيتون وقد قدّمتها إلي ليديا هديّةً. هو ما يزال رصيناً لأنّه تشبّث بالعقل بكامل إرادته. وهو يحدّد القَدْر الملائم من كرهه بحذرٍ وفطنة، وهذا أمر حاسم. فالأحقاد لا تُنعش الواحد منّا أو تُهيّجه إلاّ إذا كان مُسيطرا عليها. أمّا حين تكون هي المُسيطرة فهي تحطمنا وتشوّش فكرنا. أعرف أنّ امتلاك حسٍّ سليم أمرٌ صعب عندما يكون المرء قد مرّ بالذّلّ والصّمت المتعنّت والقرف من الموت والتّيقّظ دون هوادةٍ والرّعب التّضامنيّ والعذاب بجرعاتٍ غير مريحة. بعد هذا المسار، يمكن أن يصير التّشبّث بسلامة العقل شكلاً من أشكال الهذيان. بهذا الشّكل وَحْدَهُ يمكن تفسير هذا

الوفاء المزعج للاتّزان، وذاك الوفاء للمبادئ، بطبيعة الحال. ولكن هناك أشخاص كانوا ذوي مبادئ كثيرةٍ ومتينةٍ ومُعلنةٍ إلاّ أنّهم مع ذلك استسلموا ثمّ شعروا بالخزي، أشخاص لا أحكمُ عليهم، ليكن هذا واضحًا لي وللجميع، لأنّ الواحد منّا لا يعرف من يكون حقًّا، ولا مدى قابليّته للتّحوّل إلى رمادٍ أو مدى مضادّته للاحتراق، إلاّ بعد أن يمرّ بأحد المواقد. بصراحةٍ أقول إنّ المبادئ هي بكلّ تأكيدٍ عنصرٌ رئيسيّ، لكنّها عنصرٌ واحدٌ فقط. والباقي هو احترام المرء لنفسه، ووفاؤه للآخرين، وكثير من الإصرار، وكثير من العناد الخالص بالخصوص، وكذلك، وهذا خطر ببالي الآن، إزالة هالة القُدسيّة عن الموت بالتّدريج، لأنّ هذا بكلّ تأكيدٍ هو الحجّة القاطعة والدّامغة الّتي يلوّحون بها: إنّها الإمكانيّة الحقيقيّة والحضور الأصيل للموت، ولكن ليس أيّ موتٍ وإنّما الموت الشّخصيّ. وليس بإمكان المرء أن يفوز بالنِّزال إلاّ بتحقيره أمام نفسه واقتلاعه من شهرته الخرافيّة، وأن يقتنع بأنّ الموت على أيّ حالٍ ليس بكلّ هذا السّوء إذا ما مات الواحد منّا بشكلٍ جيّد، إذا ما مات دون أن يكون مرتابًا من نفسه. ومع ذلك، يخطر ببالي الآن، أنا الّذي لم أعش أبدًا مثل هذه المجازفة، أنّ الأمر لا يمكن أن يكون سهلاً. لأنّ المرء في ظروفٍ مثل هذه يكون وحيدًا بشكلٍ مُرعب، ولا يكون مصحوبًا حتّى بالحضور القذر للسّقف أو للجدران، ولا حتّى بالوجوه القذرة لمن يحطّمونه، وحيدًا مع قلنسوّته أو بتعبيرٍ أكثر دقّة، وحيدًا مع الجزء الخلفيّ من ثوب

الخيش. وحيدًا مع سرعة دقّات قلبه وتقيّؤاته واختناقه أو حالة الضّيق اللاّمتناهية. ومن الواضح أنّه حين ينتهي كلّ هذا ويُختتم، وإذا كان واعيًا بأنّه ما يزال على قيد الحياة، فمن المؤكّد أنّ رواسب من الإحساس بالكرامة ستبقى، ومعها بقايا دائمة من الضّغينة. لن يُفْقَد شيءٌ من جديد مطلقًا، وإن كان المستقبل الغامض يوفّر الشّعور بالأمان والثّقة والحبّ والخطو الثّابت. بقايا ضغينةٍ يمكنها أن تصبح مرضًا مُزمنًا وبإمكانها أيضًا أن تفسد الشّعور بالأمان والثّقة والحبّ والخطو الثّابت. لعلّها مرتبطةٌ بأكثر من مستقبلٍ فرديّ. أيْ أنّ هؤلاء القُساة، هؤلاء الخبراء في الغلظة، آكلي لحوم البشر غير المتَوَقَّعين، أئمّة جماعة الخديعة المقدّسة، ليس لديهم ذنبٌ راهنٌ فحسب، وإنّما هم أيضًا بمثابة امتدادٍ يكاد يكون لامتناهيًا لهذا الذّنب. هم ليسوا مسؤولين عن كلّ ضغينةٍ شخصيّة، أو عن مجموع هذه الضّغائن فحسب، وإنّما هم مسؤولون أيضًا عن التّسبّب في تعفّن الرّكائز القديمة لمجتمعٍ بأكمله. حين يُعذّبون رجلاً، سواء قتلوه أم لا، فإنّهم يُعذِّبون زوجته ووالديه وأولاده، وإن لم يعتقلوهم، وتركوهم مهجورين وحيارى في بيته المغتصب، ويُفسدون علاقاته الاجتماعيّة. حينما يعرّضون مناضلاً لشتّى أنواع العنف، كحالة سانتياغو، ويدفعون أسرتَه إلى منفى غير اختياريّ، فإنّهم يمزّقون أوصال الزّمن ويغيّرون تاريخ هذا الغصن، هذه الجماعة الصّغيرة. أن يعيد المرء ترتيب حياته في المنفى لا يعني، كما يقال في أحيان كثيرة، أن يبدأ العدّ من الصّفر، وإنّما أن يبدأ العدّ من

ناقص أربعة أو ناقص عشرين أو ناقص مائة تحت الصّفر. أولئك الّذين انعدمت فيهم الرّحمة، أولئك الّذين حصلوا على نياشينهم لأنّهم كانوا مُناضلين قساة، أولئك الّذين بدؤوا متزمّتين وانتهوا مُرتشين، أولئك فتحوا في ذلك المجتمع قوسًا سيغلق بالتّأكيد ذات يومٍ، حين لن يقدر أحدٌ على الإمساك بخيط صِلاته القديمة. وعليه سيكون من الواجب نسج صِلاتٍ أخرى وترتيبها، وعندئذٍ لن تكون الكلمات هي نفسها، لأنّ بعض الكلمات الجميلة عذّبت أيضًا أو أعدمت أو أدرجت على قوائم المفقودين من قبل أولئك، ولن يكون الفاعل وحروف الجرّ والأفعال المتعدّية والمفعول به هي نفسها. وستكون قواعد النّحو قد تغيّرت في ذلك المجتمع، الّذي سيولدُ بعمليّةٍ قيصريّة، وسيظهر حينها واهنًا وفقير الدّم ومتردّدًا وحذرًا حذرًا مفرطا، ولكن مع مرور الوقت سيجد له مخرجًا، مخترعًا قوانين جديدة واستثناءات جديدة، وكلمات متوهّجة تخرج من رماد الكلمات الّتي أحرقت قبل الأوان، وحروف عطفٍ رابطة أنْسَب، لتكون جسرًا بين الّذين بقوا والّذين رحلوا وعندها سيعودون. ولكن لن يكون بإمكان أيّ شيءٍ أن يَبْدُوَ مشابهًا لما قبل تاريخ 1973. لا أعرف بدقّةٍ إن كان الوضع الجديد أفضل أم أسوأ، لكنّي أعرف بدرجةٍ أقلّ أنّني سأتمكّن من التّعوّد، إذا ما كان لي أن أعود ذات يومٍ إلى ذلك البلد المختلف، الّذي يعيشُ الآن مخاضه في الغرف الخلفيّة للممنوع. نعم، من المحتمل أن يكون اللاّمنفى قاسيًا جدًّا كالمنفى. والمجتمع الجديد لن يشيّده المسنّون

مثلي ولا حتّى الشّباب النّاضجون مثل رولاندو أو غراثييلا. نحن ناجون بطبيعة الحال ولكنّنا أيضًا جرحى ومكدومون. نحن وهمْ. هل سيشيّده إذن أطفال اليوم، مثل حفيدتي؟ لا أدري، لا أدري. ربّما القساوسة وصانعو هذا الوطن المتأرجح والمتفرّد هم اليوم أطفال، غير أنّهم لن يغادروا البلد. وليس مثل الصِّبية والصّبايا الّذين سيحملون في خيالهم ثلج أوسلو أو مساءات البحر الأبيض المتوسّط أو أهرامات تيوتيهواكان أو درّاجات بخاريّة صغيرة في طريق أبيان أو سماوات سوداء من الشّتاء السّويدي، ولا الصِّبية والصَّبايا الّذين سيحضرون في ذاكرة الأطفال المتسوّلين في لا ألاميدا، أو المدمنين على المخدّرات في الحيّ اللاّتيني أو الهيجان الاستهلاكيّ في كاراكاس أو مكيدة الانقلاب العسكريّ في مدريد أو كتائب النّازيّين الجدد للمعجزة الألمانيّة. على أيّ حال، يمكن أن يساعدوا، أن يقتسموا ما تعلّموه وأن يسألوا عمّا لم يتعلّموه، أن يحاولوا التّأقلم والاجتهاد. ولكن من سيصوغ البلد الجديد والمتفرّد للمستقبل القريب، ذلك الوطن الّذي ما يزال اليوم لغزًا، سيكونون هم مراهقي اليوم، من كانوا هناك وظلّوا هناك، من رأوا من خلال نظرةٍ طفوليّة، ولكنّها ليست فاقدةً البتّة للذّاكرة، جزءًا لا يستهان به من المناوشات القاسية، ورأوا كيف كان مراهقون آخرون، في 1969 و1970 يُطعنون مثل أعداءٍ، ورأوا كيف اقتادوا إلى السّجن آباءهم وأعمامهم وأحيانًا أمّهاتهم وحتّى أجدادهم، ولم يتمكّنوا من رؤيتهم من جديد إلاّ بعد مرور مدّة

طويلة، ولكن أن يَرَوْهم من وراء القضبان أو من بعيد أو حتّى عن قُربٍ فهو أمرٌ رديفٌ للعزلة والبُعد، ورأوا النّاس يبكون وبكوا هُم أنفسهم بجانب توابيت كان فتحها ممنوعًا، ورأوا كيف أنّ الصّمت الهادر سكن بعد ذلك في الزّوايا، ورَأَوا المقصّ وهو يستعمل في حلاقة الشّعر وفي الحِوارات، ورأوا الكثير من موسيقى الروك وموسيقى الجوك بوكس وآلات القمار لكي ينسوا ما لا يمكن نسيانه. لا أدري كيف ولا متى؟ ولكنّ أطفال اليوم سيصبحون طليعة عمليّةٍ كبرى وصادقة لتنزيل المثل إلى أرض الواقع. ونحن ذوو التّجربة؟ نحن أصحاب الأفكار القديمة، كما يقول الإسبان؟ حسنًا، نحن الّذين سنكون إذّاك متمتّعين بعدُ بقوانا العقليّة، نحن أصحاب الأفكار القديمة الّذين سنكون محافظين بعدُ على حالة جيّدة، سنُساعدهم على أن يتذكّروا ما كانوا قد رأوه، وما لم يروه أيضًا.

مناف

(العزلة الثابتة)

الصّحفي (هـ...) الخبير في العلاقات الدّوليّة ومراسل جريدةٍ بلغاريّة في مونتيفيديو، انتهى به الأمر في آخر المطاف إلى العاصمة البلغاريّة صوفيا. فعلى خلفيّةٍ واحدةٍ من الهجمات الكثيرة الّتي قام بها النّظام، كان عليه أن ينفي نفسه إلى الأرجنتين، حيث عاش سبعة أشهر. ولكن بعد مقتل ثيلمار ميشيليني وغوتييريث رويث، تحوّلت الأرجنتين كذلك إلى بلد لا يمكن للمنفيّين الأوروغوايانيّين العيش فيه. فخرج تحت حماية الأمم المتّحدة صَوْبَ كوبا ومن هناك إلى بلغاريا.

كان يعيش وحيدًا، بعيدًا عن زوجته وأبنائه، ولكنّه بالتّأكيد كان قد ربط علاقات صداقةٍ مع البلغاريّين، وهم أناسٌ مضيافون، يعشقون جلسات الشُّرب الّتي أساسها النُّبل والعواطف الإنسانيّة، ومن المؤكّد أيضًا أنّه استمتع في هذه الشّوارع المدهشة بمشاتل الزُّهور الّتي تتوزّع على طول تلك الأرض الجميلة وعرضها، أرض ديميتروف بطبيعة الحال، ولكنّها أيضًا أرضُ صديقي

فاسيل بوبوف، الّذي كتب قبل عشر سنواتٍ قصّةً لعليفة ونشرَها عن منتسبَيْن إلى حركةٍ طوباماروس الثّوريّة الأوروغوايانيّة كان قد التقى بهما ذات مرّةٍ في مصعدِ فندقٍ بهافانا.

نعم، سيكون بلا شكٍّ قد تعوّد على مربّى اللّبن، وهو بالمناسبة بلغاريّ الأصل، وعلى القساوسة الأرثوذكس، والقهوة على الطّريقة التّركيّة الّتي أجدها شخصيًّا لا تُحتمل. ولكن لا شكّ في أنّه قد أحسّ مع ذلك بذلّ العيش وحيدًا، وذلّ أن يرى نفسه في المرآة كلّ صباحٍ بذهولٍ جديد واستسلامٍ قديم.

حين وَصلتُ إلى صوفيا في منتصف العام 1977 لحضور لقاء رابطة «كتّاب من أجل السلام»، لم تكن قد مرّت سوى أيّام قليلة على تحوّل (هـ...)، وهو الصّحفي المتمرّس، إلى خبرٍ بارزٍ في وسائل الإعلام. ومثل كلّ مساءٍ، كان قد وصل إلى شقّته، وربّما نام، ولم تصل أخباره إلاّ بعد عدّة أيّامٍ من ذلك، عندما ذهب زملاؤه في العمل، وقد تعجبّوا من غيابه، وطرقوا باب شقّته، فلمّا أعياهُم الجوابُ، اتّصلوا بالشّرطة لتفتحه لهم.

كان ممدّدًا على سريره، ما يزال على قيد الحياة، ولكنّه فاقد الوعي. لقد سبّب له انهيار مّا شللاً نصفيًّا. منذ ثلاثة أيّامٍ على الأقلّ وهو على هذه الحال. ولم تنفعه العناية المركّزة في شيء.

في الواقع لم يمت بسبب الشّلل النّصفيّ وإنّما بسبب الوحدة. قال الأطبّاء: لو أنّ أحدا مّا عثرَ عليه في الوقت المناسب، لظلّ على قيد الحياة بلا شكّ. وحين وجده أصدقاؤه كان قد فقد الوعي

ولكن من المفترض أنّه ظلّ يعي طيلة أربع وعشرين ساعة على الأقلّ ما كان يحدث له. إنّه لأمرٌ محزنٌ أن أحاولَ جَعْلَ نفسي معنيًّا وأن أخمّن ما كان يدور بخلد ذلك الرّجل الّذي عجز عن الحركة. ولكنّني بدافع الاحترام لن أجعلَ نفسي معنيًّا وإن كان ممكنا أن أجعلَ تلك الأفكار قابلة للتّصديق بفعل ظروفي الخاصّة.

قبل سنتين، في منفاي بالأرجنتين، في شقّتي الصّغيرة الواقعة في تقاطع شارعَي لاس هيراس وبويريدون، مررتُ بمحنةٍ مشابهة. ظللتُ خلال يومٍ كامل نصف فاقدٍ للوعي، فريسة ما يُدعى ألم الرّبو. ويبدو أنّ بعض الأصدقاء اتّصلوا بي، ولكنّني لم أتفطّن إلى ذلك بالرّغم من أنّ الهاتف كان فوق السّرير. هم ظنّوا دون شكّ أنّني لم أكن موجودًا في الشّقّة آنذاك. وخلال تلك الشّهور القاتمة في أرجنتين لوبيث ريغا، حين كانت تظهر في كلّ يوم عشر جثثٍ أو عشرون جثّةً في حاويات الزبالة، كان من المعتاد جدًّا أن ينام كثيرون منّا في بيوت الأصدقاء لا سيّما في ليالٍ مقلقة. وفي حلقةِ مفاتيحي كانت لديّ دَوْمًا ثلاثة مفاتيح تضامنيّة على الأقلّ.

في المساء استعدتُ وعيي نسبيًّا وأجبتُ عن اتّصالٍ هاتفيّ، اتّصال واحدٍ فقط، وبعدها عدتُ إلى غيبوبتي من جديد. تلك الإشارة الوحيدة تمكّنت من إنقاذي. الصّحفي (هـ...) لم تُتَح له تلك الإمكانيّة. تركتهُ العُزلة ثابتًا في مكانه.

الآخر
(أصلي وبديل)

مثل شعاعٍ هي الصّغيرة بياتريث، آه لو كان بإمكان سانتياغو رؤيتها. يعرف رولاندو أنّه بلا شكٍّ أصعب امتحان يخوضه ذلك المجتهد الشّهير. سنواتٌ دون بياتريث، من يدري كم سنةً مرّت. الآن هناك أمل مّا. ستكون لدى سانتياغو، بطبيعة الحال، دواعي حنينٍ أخرى عديدة، وغراثييلا بلا شكّ من بينها، ولكن من المؤكّد أنّ الأهمّ بالنّسبة إليه هو ما يتعلّق ببياتريث، لأنّه حين اعتقل كان قد بدأ لتوّه يستمتعُ بها. ليس بقدرٍ كبيرٍ بطبيعة الحال، لأنّها سنوات صعبة جدًّا، ولكنّه على أيّ حالٍ كان يخصّص كلّ يومين أو ثلاثة أيّام بعض الوقت لرؤيتها، ويحضرها إلى السّرير الكبير، ويلعب خلال فترة من الزّمن مع الصّغيرة الّتي كانت منذ نعومة أظافرها في غاية الفطنة. كان سانتياغو بالفعل أبًا بشكلٍ غريزيّ، ليس مثل رولاندو أسويرو الّذي تعوّد على ارتياد المواخير في المقام الأوّل، وعلى فنادق المومسات بعد ذلك. في الحقيقة، كانت السّياسة هي الّتي قضت على أسلوبه الأمريكولاتينيّ في الحياة، وللإشارة فإنّ فنادق

الموسات كانت في الآونة الأخيرة تُستخدم لإجراء الاتّصالات السرّيّة. ويالها من خسارة، فلطالما أحسّ بقليلٍ من الخجل لعدم خلعه حتّى سترتَه ولوجوب احترام رفيقته الجِدّيّة في جوّ المرح والانشراح الكلاسيكيّ ذاك. حسنًا، أحيانًا كان السّياق يتفوّق على القوانين المعمول بها، وفي جميع الحالات، يبدو له دَوْمًا أنّ هنالك شططًا في استخدام السّلطة من قِبَل المسؤولين عديمي المسؤوليّة، لأنّ الرّفيقات على العموم كنّ في منتهى الجمال وعلى المرء أن يظلّ شديد اليقظة كي لا يهيج ويركّز تفكيره على كتل الجليد وعلى قمم يكسوها الثّلج، إلى درجة أنّه في الأخير ينسى الرّسالة الّتي وصلته وينسى أنّ عليه تبليغها.

مثل شعاعٍ هي الصّغيرة بياتريث. ظلّ يتكلّم معها اليوم لفترةٍ طويلة، وَهُمَا ينتظران غراثييلا. تروقُ لرولاندو كثيرًا طريقة حديث الطّفلة عن الأمّ ومعرفتها الجيّدة بها وبنقاط قوّتها ومكامن ضعفها. ولكنّ اللاّفت هو أنّها تقول ذلك دون غرورٍ أو عجرفة، بل إنّها تفعل ذلك بدقّةٍ تكاد تكون عِلْمِيَّة. ومن الواضح أنّ تلك الدقَّة تتبخّر حين تبدأ بالحديث عن سانتياغو. فلقد جعلت منه إلَهًا. واليوم انهالت على رولاندو، بل العمّ رولاندو، إذ كلّ أصدقاء غراثييلا وصديقاتها هم أعمام وعمّات، انهالت عليه بسيلٍ من الأسئلة حول السّجن، كيف تكون زنازينه؟ وهل صحيح أنّ السّماء تُرى من هناك؟ وهو يجيب بـ«نعم». ولكنّها تقول في قرارة نفسها «ربّما يقول ذلك لكي لا نبكي أنا وغراثييلا»، وتسأله لأيّ

سببٍ سُجن بالتّحديد؟ إذ كلٌّ من غراثييلا ورولاندو يؤكّدان أنّه شخص طيّب جدًّا وأنّه يُحبّ وطنه كثيرًا.

إذّاك صمتت برهةً لتسأله بعدها بعينين شبه مغلقتَيْن، مركّزةً في قلقٍ لم يكن دون شكٍّ جديدًا، «عمّي أيّ بلدٍ هو وطني؟ أعرف أنّ وطنك هو الأوروغواي، ولكنّني في حالتي هذه، أتيتُ صغيرةً من هناك، إذن قل لي من فضلك، أيُّ بلدٍ هو وطني؟» وكانت تشير بسبّابتها إلى صدرها وهي تقول كلمة وطني، وكان عليه هو أن يتنحنح، وأن يتمخّط أيضًا ليمنح نفسه وقتًا وليقول لها بعد ذلك إنّه من الممكن أن يكون لبعضِ الناس، ولا سيما إذا كانوا أطفالا، وطنَان، واحدٌ أصليّ وآخر بديل. لكن الطّفلة أصرّت حينها على السّؤال: أيّ بلد هو وطنها الأصليّ؟ فأجابها بأنّ الأمر واضحٌ وأنّ وطنها الأصليّ هو الأوروغواي. وعندئذٍ أصرّت على وضع إصبعها على الجرح وسألت: «ولماذا لا أتذكّر شيئًا عن وطني الأصليّ إذن، وفي مقابل ذلك أتذكّر أشياء كثيرة عن وطني البديل». ولحسن الحظّ أنّ غراثييلا وصلت في تلك اللّحظة بالضّبط وفتحت الباب، فقد كانا ينتظران قرب النّافذة دون أن يستطيعا الدُّخول إلى البيت. ذهبت لتغسل يديها وتسرّح شعرها قليلاً وأمرت بياتريث أن تغسل يديها أيضًا، فأجابتها الصَّبيّة بأنّها قد غسلتهُما منتصف النّهار، فاستشاطت غراثييلا غضبًا وأخذتها من ذراعها حتّى المغسل ببعض خشونة ونفاد صبر، وعادت متوتِّرةً إلى حيث يوجد رولاندو، وكان جالسًا على الكرسيّ المتأرجح، ونظرت إليه كما لو

أنّها انتبهت للتوّ إلى وجوده، وقالت له «مرحبًا» بصوتٍ مُتعبٍ ومستسلمٍ، صوتٍ يكاد لا يُشبه صوتَها.

خلف الجدران
(المنتجع)

لا أدري لماذا قضّيت هذا اليوم وأنا أتذكّر طويلاً إجازات الصّيف في سوليس. كان البيتُ الصّغير جميلاً وقريبًا جدًّا من الشّاطئ. أحيانًا، حين ينفدُ صبري أو أغضب، أفكّر في الكثبان الرّمليّة فأهدأ. من كان له أن يفكّر، في تلك الأيّام الهانئة الّتي تشبه السّعادة كثيرًا، أنّه سيقع لنا بعد ذلك كلّ ما وقع؟ أتذكّر عندما صعدنا إلى الجبل، وعندما التقينا سونيا وروبين صُدفةً، وعندما استأجرنا الأحصنة، كنت أنت تبقين ثابتةً على متن الحصان ولا تتوقّفين على الرّغم من كلّ أوامرك وجهودك في أن يبدأ المهر بالحركة، فتحسّين بانزعاجٍ فظيع. ومع ذلك، لا أتذكّر هذه التّفاصيل السّاحليّة - الرّيفيّة وَحْدَها. يسكنني أيضًا شعور مّا بالضّيق يعكّر استمتاعي الكامل بتلك الرّاحة البسيطة الّتي امتدّت ثلاثة أسابيع. أتتذكّرين أنّنا تحدّثنا عن هذا الأمر مرّات عديدة عندما كان الغروب يخيّم فوق البيت الصّغير، وساعة المغرب تجعلنا حزينين وحتّى كئيبين قليلاً؟ نعم، في رفاهيّتنا تقشّفٌ مهول، وراحتنا زهيدة التّكلفة

ولم تكن فخمةً البتّة، ومع ذلك كنّا نفكّر في من لا يملكون شيئا، لا عملا ولا خبزا ولا مسكنا، ولا حتّى ساعةً خاصّةً للكآبة لأنّ مرارتهم كانت دائمة. وهكذا كنّا ننتهي إلى الصمت، دون حلولٍ منظورة، وكنّا نشعرُ بشكلٍ غامضٍ بالذّنب. وبطبيعة الحال، في الصّباح التّالي، عندما كان الهواء المنعش والمالح يصلنا، ويخترق شعاعُ الشّمس الأوّل مبكّرًا البيتَ الصّغيرَ، أمام تواطؤ الطّبيعة ذاك، يتحسّن مزاجنا ونعود لنشعر بالامتلاء والتفاؤل، فتنكبّين أنت على جمع الحلازين، بينما أقضّي أنا الوقت على الدرّاجة، لأنّك خلال تلك السّنوات كنت تلاحظين بشكل مّا، أنّني ذو بطن منتفخ، وكما ترين، مرّت سنوات عديدة أخرى وليس لديّ بطنٌ منتفخ، ولكنّني تخلّصت منها بطبيعة الحال جرّاء علاجٍ آخر، ربّما ليس هو أفضل ما يُنصح به. وبالنسبة إلى زيارات الأصدقاء، فقد كان لها في الفترات الأخيرة جانب جيّد وجانب سيّئ. أليس كذلك؟ لا شكّ في أنّها كانت مسلية أكثر ومحرّضة على نقاشاتٍ مفيدة، بالرّغم من أنّها كانت طويلةً أحيانًا، كان لها بالنّسبة إليّ فائدة واضحة دَوْمًا: فهي تُساعدني على أن أكتشف في داخلي ما كنتُ أفكّر فيه حقًّا حول مواضيع عديدة. ولكن ذلك الصّيف الجماعيّ كان سيّئًا أيضًا، لأنّه انتزع منّا الحميميّة وضيّق علينا إمكانيّة الحوار الخاصّ بنا نحن الاثنين، وحصرها في السّرير وحدَه، وهو المكان الّذي اعتدنا استعمال أساليب تواصل أخرى فيه. ويالَلشّتاتِ الّذي انتهى إليه جميع أفراد المجموعة! أحدهم لم يَعُد موجودًا، وأما النّساء فأعتقد

أنّهنّ يعشن في أوروبا. ألا تتراسلين معهن؟ وحسب ما وصلني فإنّ أحد الشّباب يعيش هناك. فهل ترينه أحيانًا؟ عانقيه نيابة عنّي. وماذا يفعل؟ هل يعمل؟ هل يدرس؟ هل ما يزال زير نساءٍ كما كان؟ أحتفظ بذكرى طيّبةٍ عن تبحّره في التّانعو وعن مزاجه التّصالحيّ. وكيف أصبح منتجع سوليس اليوم؟ هل مطعم «التشاخا» ما يزال موجودًا؟ كان لطيفًا تناول الغداء في صالونه المعدّ من جذوع الأشجار، المليء عُمومًا بالإنجليز المهذّبين والمتحفّظين مثل العادة. لماذا يحبّ الإنجليز هذا المنتجع كثيرًا؟ ربّما كانوا يحبّونه للأسباب نفسها الّتي نحبّه نحن من أجلها: هناك كانت استعادة الشّعور بالمكان أمرًا ممكنًا، على الأقلّ في تلك السّنوات، وبالإمكان رؤية الشّاطئ باعتباره شاطئًا لا باعتباره مشروعًا تجاريًّا كبيرًا يُستثمر فيه المالُ. والإطار الطّبيعيّ ما يزال محتفظًا بطراوته، لأنّ المساكن، حتّى الفاخرة منها على احتشامٍ، لم تكن تفسد المنظر. كان السّير بجانب شاطئ البحر في الصّباح الباكر والموجات النّاعمة تداعب أقدامنا، أمرًا مدهشًا يمنح المرء الرّغبة في البقاء على قيد الحياة. أعتقد أنّ هذا الأمر كان يعجبنا أيضًا، لأنّه يرمز بشكل مّا إلى الأوروغواي في ذلك الوقت: بلد الموجات النّاعمة، لا بلد العواصف العاتية الّتي أتت فيما بعد. وفي أحد الأطراف هناك صخورٌ، ولكنّها ليست صخورًا كبيرةً تتكسّر عليها الأمواج. كان الواحد منّا يجلس ببساطةٍ، والماء يغزو الفراغات بين صخرةٍ وأخرى، ويجول ويغسل تلك القنوات الصّغيرة، ويقلب السّرطانات رأسًا على عقب ويقذف أنصاف

بلح البحر الّتي تجتمع دَوْمًا في أحد المخابئ وسط الصّخور وقطع الحجارة المتناثرة. وعند الغروب كان الإحساس مختلفًا، ربّما أقلّ توليدًا للطّاقة والتّفاؤل، ولكنّه يحمل هدوءًا لم أعد لاختباره مرّةً أخرى منذ ذلك الوقت. كانت الشّمس تختفي رويدًا رويدًا خلف كثبان مدينة خواريغيبيري، وصوت الأمواج الوديعة الموقّعُ يختلط بصوت خوارٍ بدا بعيدًا جدًّا وربّما لأجل ذلك، يصير محمَّلاً بالشّجن ونُذُر الشّؤم. في بعض الأيّام كنّا نصابُ بعدوى تلك الكآبة المؤقّتة، ولكنّها تتحوّل أحيانًا بشكلٍ غير متوقّعٍ لتصبح سببًا للضّحك في اليوم ذاته، لأنّه ببساطةٍ ليست لنا أسبابٌ شخصيّةٌ للوساوس المرضيّة، وإذّاك، رغم أنّ عينيك الخضراوين كانتا تتبلّلان أحيانًا وتتشكّل في حلقي عقدة، كنّا واعيين دَوْمًا بأنّه ليست هناك أسبابٌ محدّدة للحزن، ما عدا تلك المرتبطة بالمعنى العمليّ لكوننا نحيا ونموت. المعنى العمليّ للحياة. وكنّا نتمشّى أثناء عودتنا، مُتعانقين وصامتين، وفي راحة يدي اليمنى أحسّ بأنّ بشرة خصرك العاري تقشعرّ، بالتّأكيد لأنّ الدّفعة الأولى من النّسيم اللّيليّ قد بدأت تلوح، ويكون لزامًا علينا الوصول إلى البيت لنلبس سترَتَيْنا ونشرب كأس شرابٍ مع الليمون ونحضّر اللّحم المشويّ مع البيض والسّلطة ونتبادل قليلاً من القبل، قليلا فقط، لأن الأفضل يأتي لاحقًا.

بياتريث
(كلمة عظيمة)

الحرّيّة كلمةٌ عظيمة. مثلاً، عندما تنتهي الحصص الدّراسيّة يُقال إنّ الواحدة منّا حرّة. وكلّما طالت مدّة هذه الحرّيّة، بإمكانها التّجوّل واللعب، وليس عليها أن تدرس. يُقال عن دولة مّا إنّها حرّة عندما يكون أيّ شخص، رجلاً كان أو امرأة، قادرًا على القيام بما يحلو له. لكن حتّى في الدُّول الحرّة، هناك أشياء ممنوعة كلّيًّا، كالقتل مثلاً. ومع ذلك، يمكن قتل البعوض والصّراصير وقتل البقر لشيّ لحومها. السّرقة، مثلاً، ممنوعة، لكن بالرّغم من ذلك ليس أمرا خطيرا إن احتفظت بباقي النّقود بعد شراء ما تكلّفني به غراثييلا، الّتي هي أمّي، من مستلزمات للبيت. على سبيل المثال، الوصول المتأخّر إلى المدرسة ممنوع رغم أنّه يجب في هذه الحالة كتابة رسالة، أو من الأفضل القول إنّه يجب أن تكتب غراثييلا الرّسالة لتبرير سبب التأخّر. وهكذا تقول المعلّمة: تأخّر مبرّر.

الحرّيّة لها معانٍ كثيرة. مثلاً، إذا كانت الواحدة منّا خارج السّجن، يُقال عنها إنّها حرّة. لكنّ أبي سجين، ومع ذلك يقولون

إنّه في «حرّيّة»، لأنّ السّجن الّذي يقبع فيه منذ سنواتٍ طويلة يُسمّى هكذا. عمّي رولاندو يقول عن هذا الأمر: يالها من سخريةٍ سوداء. ذات يومٍ حكيتُ لصديقتي أنخيليكا أنّ السّجن حيث يقبع أبي يُسمّى «حرّيّة»، وأنّ العمّ رولاندو قال عن الأمر إنّه سخريةٌ سوداء، وقد أعجبت صديقتي أنخيليكا بالكلمة حتّى إنّها أسمت الجرو الّذي أهداها إيّاه عرّابها «سخرية سوداء». أبي سجين، ولكن ليس لأنّه قتَلَ أو سَرق أو وصل متأخّرًا إلى المدرسة. غراثييلا تقول إنّه في «حرّيّة» أي أنّه سجين، بسبب أفكاره. يبدو أنّ أبي مشهور بأفكاره. أحيانًا، تتكوّن لديّ أنا أيضًا أفكار، لكنّني إلى غاية الآن لستُ مشهورة. ولهذا فأنا لستُ في «حرّيّة»، أيْ لستُ سجينة.

إذا اتّفق أن أصير سجينةً ذات يوم، فأودّ أن تكون دميتَيّ توتي ومونيكا سجينتَيْن سياسيّتَيْن أيضًا. فأنا أحبّ أن أنام وفي حضني على الأقلّ دميتي توتي، ولا أحبّ ذلك مع مونيكا كثيرًا لأنّها لا تتوقّف عن الهمهمة. لكنّني لا أضربها قطّ، خصوصًا لترضى غراثييلا عن سلوكي.

هي لم تضربني إلاّ مرّات قليلة، لكنّها عندما تضرب، أكون في حاجةٍ إلى كثير من الحرّيّة. عندما تضربني أو تصرخ في وجهي أناديها: هي. لأنّها لا تحبّ أن أناديها هكذا. من الواضح أنّني أكون غاضبةً جدًّا عندما أصل إلى حدّ مناداتها بـ«هي». وإن جاء جدّي مثلاً وسألني أين أمّي وأجبته: «هي في المطبخ»، يعرف الجميع تلقائيًّا أنّني غاضبة جدًّا، لأنّني إن لم أكن كذلك، أكتفي بالقول إنّ

غراثييلا في المطبخ. يقول جدّي دَائمًا إنّني أشدّ أفراد العائلة عصبيّة، وهذا أمرٌ يجعلني في غاية السّعادة. وغراثييلا أيضًا لا تحبّ أن أناديها غراثييلا، ولكنّني أناديها على هذا النحو لأنّني أجد اسمها جميلاً. فقط عندما أحبّها كثيرًا، عندما أعشقها وأقبّلها وأحضنها بشدّة، وهي تقول لي: «آه يا صغيرتي لا تعصريني هكذا»، عندها أقول لها أمّي أو ماما، وتتأثّر غراثييلا وتصبح في غاية الحنان وتداعب خصلات شعري، وما كان لهذا الأمر أن يظلّ بهذه الطّريقة ولا بهذه الطيبة لو أنّني قلتُ أمّي أو ماما في كلّ ساعةٍ وحين، ولأيّ سببٍ كان.

إذن، الحرّيّة كلمةٌ عظيمة. بالنّسبة إلى غراثييلا، أن يكون شخص مّا سجينًا سياسيًّا مثل أبي ليس وصمة عار إطلاقًا. بل يكاد يكون فخرًا. لماذا استعمال فعل «يكاد»؟ هو إمّا فخرٌ أو وصمة عار. أتحبّ أن أقول لها مثلاً إنّ هذا الأمر يكاد يكون وصمة عار؟ في الواقع، أنا فخورةٌ جدًّا بأبي لأنّ أفكارًا كثيرة خطرت بباله، كثيرة جدًّا، ولهذا رموه في غياهب السّجن. أظنّ أنّ أبي حاليًّا لا يزال يحمل أفكارًا، أفكارًا قويّة. لكن من المؤكّد تقريبًا أنّه لا يقولها لأحدٍ، لأنّه إن قالها، عند خروجه من «حرّيّة» ليعيش في حرّيّةٍ، فيمكنهم أن يُعيدوه مرّةً أخرى إلى «حرّيّة». أترون كم هي عظيمة هذه الكلمة؟

مناف
(المثوى ما قبل الأخير)

إنّ موت رفيقٍ، وخصوصًا عندما يتعلّق الأمر بشخصٍ محبوبٍ جدًّا مثل لوفيس بيديمونتي، يكون دَائمًا بمثابة تمزّقٍ وانكسار. ولكن حين يكون الموت تتويجًا لمحاصرته في المنفى، وإن حدث ذلك في جوٍّ أخويٍّ للغاية مثل هذا، فإنّ التّمزّق تكون له تبعات أخرى، ومعانٍ أخرى.

الموت، هذه الخاتمة الطّبيعيّة، هذه النّهاية الحتميّة، يَحمل دَوْمًا شيئًا من العودة، العودة إلى الأرض المغذّية، العودة إلى رحم الطّين، طيننا الّذي لن يكون مشابهًا لأي طينٍ آخر في العالم أبدًا. الموت في المنفى هو في الظّاهر نفيٌ للعودة ولعلّ هذا هو أشدّ جوانبه ظلاما .

من أجل ذلك، خلال الفترة الطّويلة والمؤلمة لمرض لوفيس، كان يصعبُ علينا جدًّا أن نراه بحيويّةٍ، يبتسمُ، ويخطّطُ لمشاريع، والأصعب من كلّ هذا أن ندخل في لعبة مداراة، ونذكر مشاريع مستقبليّة يكون هو حاضرًا فيها، ونتخّيل أو نفهم ضمنيًّا أنّه سيعود ليتنفّس هواء مسكنه، ويرى شاطئ البحر، ذلك القلب

المضيء لنهار مونتيفيديو، ويستمتع بالعنب والخوخ، وتلك هي رفاهيّة الفقير.

كيف أتحدّث عن الأشياء الجيّدة البسيطة الّتي تكسبُ الحياة طعمًا، وكانت تكسب حياته هو معنى، إذا ما عرفنا أنّ الموت يتبع خطاه وأن لا أحد بإمكانه حمايته أو إخفاءه، ولا الموت عوضًا عنه، ولا حتّى إقناع كلاب الصّيد الضّخمة الّتي كانت تتعقّبه، ولا حتّى ذرف الدّموع خصّيصًا كي يظلّ حيًّا بيننا.

يعني المنفى في السّنوات الأولى، من بين جملة أخرى من الأشياء، مرارة العيش بعيدًا. أمّا الآن فهو يعني أيضًا مرارة الموت بعيدًا. تضمّ القائمة الآن خمسة أسماء أو ستّة. العزلة والأمراض أو الأعيرة النّارية، قضت عليهم ومن يدري بالتّحديد كم عددهم في هذا البلد الشّاسع جدًّا، هذا البلد الّذي يَسْهُل أن يتيه المرء فيه.

تكون الجرعة أمرَّ إذا ما فكّرنا في أنّ الموت بسبب المنفى هو إشارة إلى أنّهم انتزعوا مؤقّتًا، لا من لوفيس وحده وإنّما منّا جميعًا، ذلك الحقّ الأسمى، حقّ مغادرة القطار في المحطّة الّتي انطلقت منها الرّحلة. لقد انتزعوا منّا موتنا الأليف، ببساطة موتنا، ذلك الموت الّذي يعرف على أيّ جنبٍ ننام وما هي الأحلام الّتي تُغذّي سهراتنا.

لذلك عندما نُقِرُّ الآن بأنّ لوفيس، الرّفيق العزيز مثل قليلين، ذهب دون أن يتمكّن من العودة، نَعِدُه بأن نكافحَ، لا لنُغيّر الحياة

فحسب بل لنصون الموت، ذلك الموت الّذي هو رحمٌ وولادة، الموت في طيننا.

كان لوفيس صحفيًّا ممتازًا، مناضلاً ثوريًّا، صديقًا مخلصًا، معجبًا متحمّسًا بالثّورة الكوبية، ولكن أيمكننا أن نوجز كلّ تلك الخصائص ونقول إنّه كان رجلَ شعبٍ استثنائيًّا؟ مع صفات البساطة والتّواضع، والشّغف والكرم، والقدرة على العطف والعمل، والفرح والجرأة، والفعاليّة والمسؤوليّة، وهو ما يكثّف بشكل مّا أفضل ما يحمله شعبنا.

اجتمعت فيه خاصّيّتان تكمّل إحداهما الأخرى، وهما لا تتعايشان غالبًا في المنفيّ: النّظر والسّمع المنتبهان بشكلٍ متواصلٍ للعذاباتِ والصّراعاتِ والإشاعاتِ ولصورِ الوطن البعيد من ناحية، وقدرته الواسعة على أن يكون شخصًا نافعًا من ناحيةٍ أخرى، وهي قدرةٌ وضعها في خدمة اندماجه المثمر في كوبا الّتي يعرف ثورتها ويدافع عنها ويحبّها كما لو كانت ثورته، ولمّا كنّا نعرف بشكلٍ من الأشكال ثورته، فقد أصبحت ثورتنا نحن أيضًا.

مع كلّ إحباطاته ومراراته، لم يكن المنفى بالنّسبة إليه ذريعةً مطلقًا، ولا حتّى عذرًا للانعزال والوحدة. كان يعرف أن أفضل صيغةٍ لمواجهة سياط المنفى هي الاندماج في المجتمع الّذي يأوي المنفيّ، وهكذا بقناعةٍ راسخةٍ عَمِل بشجاعةٍ وفرحٍ، تقريبًا مثل أيّ كُوبِيٍّ آخر، دون أن يتوقّف مطلقًا عن أن يكون أوروغوايانيًّا نموذجيًّا.

لنتذكّر أنّه من الأفكار السّائدة المرتبطة بتجارة الموت في العالم الرّأسمالي، تتمّ الإشارة باستمرار إلى «المثوى الأخير». أمّا بالنّسبة إلى رَفيقٍ مثل لوفيس، فقد تركناه اليوم فيما يمكن وصفه بالمثوى ما قبل الأخير فقط، لأنّ مثواه الأخير سيكون دَوْمًا بيننا، في عطفنا وفي ذكرياتنا. وسيكون مثوى بأبوابٍ مفتوحةٍ ونوافذ تطلّ على السّماء.

بهذه الطّريقة وَحدَها سنهزم هذا الموت الّذي يبدو بلا عودة. وسنهزمه لأنّه لا أحد منّا يشكّ في أنّ لوفيس سيعودُ مع أولئك الّذين سيعودون من بيننا ذات يومٍ إلى مسقط الرّأس. سيعود في قلوبنا وفي ذاكرتنا وفي حيواتنا، قلوب وذاكرة وحيوات ستكون أفضل لمجرّد أنّه في رحلة العودة سيرافقها رجلٌ بالغٌ عفيفٌ ومخلصٌ وشريفٌ جدًّا وكريمٌ وبسيطٌ كلّ البساطةِ وصادقٌ، رجلٌ من الشّعب.

جرحى ومكدومون
(حقيقة وتمديد)

في ساعةٍ متأخّرة من المساء ذهبت لترى حماها. لقد مرّت تقريبًا خمسة عشر يومًا من دون أن تزوره. والمشكلة الوحيدة هي أنّ مواعيدهما لم تكن تتوافق.

- عجبًا. عجبًا. قال السيّد رفائيل بعد أن قبّلها. يبدو أنّ أمرًا خطيرًا قد وقع بما أنّك جئتِ لرؤيتي.

- لماذا تقول هذا؟ أنتَ تعرف جيّدًا أنّ الحديث معكَ يروقُ لي.

- أنا أيضًا يروقُ لي الحديث معك. لكنّك لا تأتين إلاّ عندما تكون لديكِ مشاكل.

- هذا ممكن. وألتمسُ منكَ العذر.

- لا تنزعجي. تعالي متى شئت. حين تكون لديكِ مشاكل أو من دونها. كيف حال حفيدتي؟

- أصابها زكامٌ خفيف، ولكنّها عمومًا على ما يرام. في الأشهر الأخيرة صارت تحصّل علاماتٍ جيّدةً في المدرسة.

- إنّها ذكيّة، ولكنّها ماكرةٌ أيضًا. لِنَقُل إنّها تُشبه جدّها. لمْ تحضريها بسبب الزّكام؟

- نسبيّا لهذا السّبب. ولكن كنتُ أودُّ الحديث معك على انفراد.

- أخبرتك بهذا مسبقًا. أترين؟ حسنًا، ما هي المشكلة؟

جلست غراثييلا على الأريكة الخضراء، بل رمَت بنفسها فوقها تقريبًا. تملّت مطوّلاً وببطءٍ ذلك المكانَ الفوضويَّ قليلاً، شقّةَ المسنِّ الّذي يعيش وحدَه، وابتسمت بفتور.

- يصعب عليّ البدء، خصوصًا وأنا أتوجّه بالحديث إليك أنت بالذّات. ولكن بالرغم من ذلك أنت الشّخص الوحيد الّذي أودّ أن أتحدث معه في الموضوع.

- هل الأمر متعلّقٌ بسانتياغو؟

- نعم. أو بالأحرى: نعم ولا. الموضوع الجانبيّ هو سانتياغو، أمّا الموضوع المركزيّ فهو أنا.

- انظري كم أنتنّ متمركزات حول ذواتكنّ معشر النّساء.

- ليس النّساء فقط. لكن بجدّيّةٍ الآن يا رفائيل، قد يكون الموضوع تحديدا هو: أنا وسانتياغو.

جلس رفائيل أيضًا، لكن في الكرسيّ المتأرجح. غامت عيناه قليلاً، وقبل أن يتكلّم تأرجح في الكرسيّ مرّات عديدة.

- أين تَكمنُ المشكلة؟

- المشكلة فيّ أنا.

بدا رفائيل مستعدًّا لاختصار الطّريق.

- هل فَتَرَ حُبُّك له؟

لم تكن غراثييلا، بطبيعة الحال، جاهزةً للخوض في الموضوع بهذه السّرعة. تنحنحت قليلاً، وبعدها تنهّدت.

- اهدئي يا امرأة.

- لا أستطيع. انظر كيف ترتجفُ يداي.

- إن كان هذا سيفيدك في شيء، فسأقول لك إنّني كنتُ منذ عدّة شهورٍ أتوقّع ما وقع. ولذا لن يخيفني شيء.

- كنتَ تتوقّع شيئا مّا؟ هل من السّهل ملاحظة أن تغييرا مّا لحق بي؟

- لا يا غراثييلا. لا يلاحظ عليك أيّ شيء عموما. ولكن ببساطةٍ، بدا لي أنّ تغييرا مّا قد حدث لأنّني أعرفك منذ سنواتٍ طويلة، وإضافة إلى ذلك فأنا والد سانتياغو.

كانت أمام غراثييلا نسخةٌ مقلّدةٌ بإتقانٍ من لوحة «المدخن» للرّسام سيزان. ولقد رأت صورة السّكون تلك مائة مرّةٍ هناك، ولكنّها أحسّت فجأةً بأنّها لا تستطيع احتمال تلك النّظرة الّتي بدت لها زائغة. في مساءاتٍ أخرى وبفعل وقع الظّلال، كانت نظرة المدخن تبدو لها شاردةً تمامًا، ولكنّها في مقابل ذلك، تخيّلت الآن، أنّه ينظر إليها هي. ربّما يكمُن تفسير هذا الأمر في الغليون الموضوع

في الفم بشكلٍ مشابهٍ جدًّا للشّكل الّذي كان سانتياغو يضعه به. ولذا أشاحت بنظرها عن اللّوحة ونظرت من جديد إلى رفائيل.

- سيبدو لكَ الأمرُ جنونًا وغباءً. سأستبقُ الأمر وأقول لكَ إنّ هذا هو رأيي أنا أيضًا.

- في عمري هذا، لا شيء يبدو جنونًا. ففي الأخير، يتعوّد الواحد منّا الكلامَ الخشنَ والانفجاراتِ والانجذاباتِ الفجائيّةَ، بدءًا من تلك المتعلّقة بشخصه هو.

بدا أن غراثييلا قد تحمّست. فتحت حقيبة اليد وأخرجت سيجارةً وأشعلتها. وقدّمت العلبة إلى السيّد رفائيل.

- شكرًا، لكن لا أريد. انقطعت عن التدخين منذ ستّة أشهر. ألم تنتبهي لذلك؟

- ولِمَ أقلعتَ عن التدخين؟

- مشاكل مرتبطة بالدّورة الدّمويّة، ولكن ليس هناك شيء جدِّي. على كلّ حالٍ، لقد ناسبني ذلك. في البداية كان الأمرُ معقّدًا، خصوصًا بعد تناول الطعام. أمّا الآن فقد تعوّدت الوضعَ.

سحبت غراثييلا الدخان ببطءٍ، ويبدو أنّ ذلك قد بعثَ فيها شجاعة.

- لقد سألتني إذا ما لم أعد أُحبّ سانتياغو. وسواء أجبتكَ بنعم أم بلا، فسأكون بصددِ تشويه الحقيقة.

- يبدو أنّ الأمر معقّد، أليس كذلك؟

- نعم قليلاً. من البديهيّ أنّني، في جانبٍ مّا من الجوانب، مازلت أحبّه، لأنّ سانتياغو لم يفعل شيئًا يجعلني أكفّ عن حبّه. أنتَ تعرفُ أكثر من أيّ شخصٍ كيف يتصرّف. لا في ما يتعلّق باستقامته السّياسيّة والنِّضاليّة فحسب ولكن أيضًا في الجانب الشّخصيّ. إنّه يتصرّف معي دَائمًا بشكلٍ رائع.

- إذن؟

- إذن أنا مازلتُ أحبّه كحبّي لصديقٍ رائعٍ، كحبِّ شخصٍ مّا لرفيقٍ لا تشوبُ سلوكه شائبة. ومن جانبٍ آخر، هو والد بياتريث مع كلّ ما يعنيه ذلك.

- لكن.

- لكن أنا، باعتباري امرأة، لم أعد أُحبّه. ومن هذا الجانب بالتّحديد لم أعد أحتاج إليه، أتفهمني؟

- أفهمك بطبيعة الحال. لستُ مُتحجّرًا إلى هذه الدرجة. بالإضافة إلى أنّك تقولين ذلك بوضوحٍ تامٍّ وباقتناعٍ كبير.

- كيف يمكنني اختصار الأمر؟ ربّما بأن أقوله بفظاظة. وأرجو أن تسامحني. لا أرغبُ في مُضاجعته بعد اليوم. يبدو لك الأمر فظيعًا، أليس كذلك؟

- لا، لا يبدو لي فظيعًا. ربّما يبدو لي حزينًا. ولكن في الحقيقة، لم يعد العالم في الآونة الأخيرة حفلة.

- لو لم يكن سانتياغو سجينًا، لما اكتسى الأمر كلّ هذه الأهمّيّة. وبكلّ بساطةٍ كان سيحدث لنا ما يحدث للكثير من النّاس. كان يمكننا أن نتحدّث في الموضوع ونناقشه. أنا متأكّدة من أنّ سانتياغو سيتفهّم الوضع في نهاية المطاف، وإن كان قراري سيجعله يحسُّ بمرارةٍ وبخيبة أمل. ولكنّ الحال هو أنّه في السّجن.

- نعم، إنّه في السّجن.

- وهذا يجعلني أحسّ بأنّني محاصرة. هو مسجونٌ هناك، ولكنّني أنا أيضًا مقيّدةٌ في هذا الوضع.

رنّ الهاتف. فقامت غراثييلا بحركةِ تأفّفٍ. لقد كسر الجرس نسق التّواصل، وأتْلَفَ جوَّ الاعتراف. ترك رفائيل الكرسيّ المتأرجح ورفع سمّاعة الهاتف.

- لا، أنا لستُ وحدي الآن. لكن بإمكانكِ المجيء غدًا. لي رغبةٌ في رؤيتك. نعم، هذا صحيح. لستُ وحدي، لكنّها زيارةٌ لا تزعجكِ. حسنًا، أنتظرك في المساء. هل يُناسبكِ القدوم في السّابعة؟ إلى اللّقاء.

وضع الصّهرُ سمّاعة الهاتف وعاد ليجلس على الكرسيّ المتأرجح. نظر إلى غراثييلا، وأحسّ بتعبير المفاجأة على وجهها، وعندئذٍ لم يَجِدْ بُدًّا من أن يبتسم.

- حسنًا، أنا شخصٌ مُسِنٌّ ولكن ليس إلى درجةٍ مبالغٍ فيها. إضافة إلى أنّ العزلة الكاملة أمرٌ في غاية السّوء.

- تفاجأتُ قليلاً، ولكنّني سعيدةٌ من أجلك يا رفائيل. وهذا الوضع جعلني أحسّ أيضًا ببعض الخجل. فالواحد منّا يكون مُنغمسًا دَائمًا في مشاكله الشّخصيّة، ويظنّ أنّها هي وحدَها المهمّة. ولا ينتبهُ عادة إلى أنّ للآخرين كذلك مشاكلهم الخاصّة.

- سأقولُ لكِ إنّ هذا الأمر الّذي يخصّني لا أسميه تحديدًا مشكلة. هي ليست شابّةً، أتعلمين؟ وإن كانت بالفعل أصغر منّي بكثير. وهذا ما يمثّلُ عاملاً مُحفّزًا دَائمًا. بالإضافة إلى أنّها إنسانةٌ طيّبة. لا أعرف إلى متى ستدومُ هذه العلاقة، ولكنّها حاليًّا تجعلني بحالٍ جيّدة. اعترافٌ مقابلَ اعتراف، سأقول لك إنّني أشعرُ بثقةٍ أكبر في نفسي وبتفاؤلٍ أكبر وبرغبةٍ أشدّ في مُواصلة العيش.

- أنا سعيدةٌ حقًّا لسماع هذا.

- نعم، أنا أعرف أنّك صريحة.

مدّ الصِّهْرُ ذراعًا إلى بابٍ صغيرٍ في خزانة الكتب. فتحه وأخرج زجاجةً وكأسَيْن.

- هل تريدينَ كأسًا؟

- نعم سيكون ذلك مناسبًا.

قبل أن يتناولا الكأسَيْن نظر كلٌّ منهما إلى الآخر، وابتسمَتْ غراثييلا.

- كدتَ تنسيني قصّتي بقصّتك المفاجئة.

- لا أظنّ ذلك.

- أقول ذلك على سبيل المزاح. إذ كيف أنساها؟

- هل هذا ببساطةٍ هو كلّ ما في الأمر يا غراثييلا؟ ألاّ تُضاجعي سانتياغو من جديدٍ حين يخرج ذاتَ يومٍ من السّجن؟ هل هذا كلّ شيءٍ أمْ هناك أمرٌ آخر؟

- في البداية لم يكن هناك شيءٌ إضافي. كان المشكل هو البُعْد فقط. في الحقيقة بُعدي أنا، واستبعاد علاقةٍ جسديّةٍ مُستقبليّة مع سانتياغو.

- والآن؟

- الأمر الآن مختلف. أعتقدُ أنّني بدأتُ أقعُ في حبٍّ شخصٍ آخر.

- آه.

- قلتُ أعتقدُ أنّني بَدَأت.

- انظري يا غراثييلا، إذا اعترفتِ بأنّك بدأت، فهذا يعني أنّك وقعتِ في الحبّ فعلاً.

- هذا ممكن. ولكنّني لستُ متأكّدة. أنتَ تعرفه. إنّه رولاندو.

- وهو؟

- الأمر صعبٌ بالنّسبة إليه هو أيضًا. لقد كانا دَائمًا، هو وسانتياغو، صديقَيْن جيّدَيْن. لا تظنّنّ أنّني لم أنتبه لما في هذا الأمر من تعقيدٍ إضافيّ.

- بحثتِ عن أصعب علاقةٍ ممكنة، ألا تظنّين ذلك؟
- أظنّ ذلك. إنّها صعبةٌ جدًّا.
- وماذا ستفعلين؟ أو ماذا فعلتِ؟ هل كتبتِ لسانتياغو؟
- هذا هو السّبب الرّئيسيّ لزيارتي لكَ اليوم. لا أدري ما عليّ فعله. فمن جهة، مازال سانتياغو يكتب لي رسائل عشق. وأنا أعرف أنّه صادق. وأشعر بأنّني منافقة جدًّا وأنا أحاول الردّ عليه في المنحى نفسه. ومن جهة أخرى، يبدو لي مفزِعًا جدًّا أن يستسلمَ ذات يوم، هناك في سجن «حرّيّة»، بين أربعة جدرانٍ، بسبب رسالةٍ منّي أخبرهُ فيها بأنّني لا أريدُ أن أظلّ زوجته. وأنا واثقةٌ من أنّ سادية العسكر ستدفعهم إلى تسليمها له على الفور. والأسوأ من هذا كلّه، أن أخبره بأنّي وقعتُ في حبٍّ أحد أفضل أصدقائه. في أيّامٍ أكون مقتنعةً تمامًا بضرورة أن أخبره وأحسم الأمر من دون تردّدٍ وبالرّغم من كلّ شيء، وفي أيّامٍ أخرى أقول لنفسي إنّ ذلك سيكون قسوةً لا جدوى منها.
- الوضع محزنٌ، أليس كذلك؟
- أجل.
- أنا أميلُ إلى الاعتقاد بأنّ مجرّد إيصال الخبر إليه سيكون كما قلتِ في النّهاية: قسوةً لا جدوى منها. تمثّلان، أنتِ وبياتريث، بالنّسبة إلى سانتياغو سبب تشبّثه بالحياة.
- وأنت؟

- أنا والده. وهذا أمرٌ مغاير. الآباء مثل الهدايا، لا أحد يختارهم. أمّا الزّوجة والأولاد فيُكتسَبون بفعلٍ إراديّ، وقرارٍ شخصيّ. سانتياغو يُحبّني ولا شكّ، وأنا أيضًا أحبّه، ولكن كانت هناك مسافةٌ تفصل بيننا دائمًا. ومع أمّه كان الأمر مختلفًا. فقد استطاعت أن تحقّق تواصلاً جيّدًا معه، وكان موتها بالنّسبة إلى سانتياغو كارثةً صعب عليه تقبّلها. وهذا طبيعيّ فقد كان عمره آنذاك خمس عشرة سنة. ولكن، كما قلتُ لك، بالنّسبة إليه، هناك حيث هو، أنتِ وبياتريث تمثّلان الآن مستقبله: الآجل أو العاجل، لا يهمّ. هو يفكّر في أنّه ذات يومٍ، سيكون بإمكانه الاجتماع بكما وأنّ كلّ شيءٍ سيبدأ من جديد.

- نعم، هذا ما يفكّر فيه.

- ولكن، كما قلتِ أنتِ، لو لم يكن في السّجن لكان كلّ هذا حزينًا ولكن لكان طبيعيًّا أكثر. فإنهاء علاقةٍ بين زوجَيْن يكون دَائمًا أمرا غير مستحبٍّ، ولكن أحيانًا يكون الاستمرار كَرهًا في علاقة مّا أسوأ بكثير.

- بماذا تنصحني يا رفائيل؟

رفع رفائيل كأسه وشرب الويسكي الّذي صَبَّهُ لنفسه. وكان هو من تنهّد الآن.

- التّدخل في حياة الآخرين تهوّرٌ دَوْمًا.

- ولكن سانتياغو ابنك.

- وأنتِ أيضًا ابنتي.

- وأنا أشعرُ هكذا.

- أعرفُ ذلك. ولهذا فالأمر أكثر تعقيدًا.

رنّ الهاتف مرّةً أخرى، ولكنّ رفائيل لم يرفع السّمّاعة.

- لا تقلقي. إنّها ليست ليديا.هل ذكرتُ لك اسمها سابقًا؟ من يتّصل في هذه السّاعة هو شخصٌ ثقيل الدّم دائمًا. طالبٌ ينهالُ عليّ دَوْمًا بِسَيْلٍ أسئلةٍ لا تنتهي حول عناوين بعض المراجع.

يبدو أنّ الطالب قد كان مثابرًا أو عنيدًا أو فيه الصِّفَتان معًا، لأنّ الهاتف ظلّ يرنّ. وأخيرًا عاد الصّمت.

- بما أنّك تسألين، فأنا سأنتصر لفكرة ألاّ تكتبي له شيئًا عن الموضوع. أيْ أن تستمرّي في التّظاهر. أعلم أنّ هذا الأمر يجعلك تتألّمين. ولكن خذي بعين الاعتبار مسألة أنّك حرّة، ولديك حوافز واهتمامات وعواطف أخرى. أمّا هو فَلَدَيْه مقابلَ ذلك أربعة جدران وبعض القضبان الحديديّة. أن تقولي له الحقيقة يعني أن تحطِّميه. وأنا لا أريد أن يتحطّم ابني الآن تحديدًا، بعد أن نجا من فظاعاتٍ كثيرة. ذات يوم، عندما يخرج، وأعلم أنّه سيخرج، بإمكانكِ إخباره بكلّ وضوحٍ، ومواجهة كلّ مرارته أيضًا. وعندما ستتاحُ لكِ تلك الفرصة، أنا أمنحك الإذن بأن تقولي له إنّني مَن نصحك بالصّمت. في البداية سيغيظه الأمر كثيرًا، وسينفجرُ

كما كان يفعل في أفضل أوقاته، وربّما سيبكي، وسيعتقد أنّ العالم يتداعى فوق رأسه. ولكنّه لن يكون آنذاك بين أربعة جدرانٍ، وسيكون بعيدًا عن القضبان الحديديّة، وله أيضًا، كما لكِ أنتِ الآن، حوافز واهتمامات وعواطف أخرى. المهمّ، هذا هو رأيي، وأنتِ طلبتهِ منّي.

- أجل، أنا طلبتهُ منك.

- وما رأيكِ؟

بدا الصِّهر لحظتَها أكثر قلقًا وعصبيّةً منها. حين أمال زجاجة الشّراب من جديدٍ، انتبه إلى أنّ اليد الّتي تحملُ الكأس ترتعشُ قليلاً. وقد انتبهت غراثييلا لذلك.

- هدّئ من روعك، قالت له على سبيل السّخرية.

عندئذٍ ارتخى قليلاً وابتسم، ولكن من دون رغبةٍ كبيرة.

- قد يكون هذا أفضل خيار، أو على الأقلّ هو الخيار الوحيد الرّصين.

- أفهم أن ليس هنالك حلّ مقبول بالكامل. وهل تعرفين لماذا ليس هنالك حلٌّ مقبولٌ بالكامل؟ لأنّ الشّيء الوحيد غير المقبول حقيقةً هو الوضع الّذي يعيشه سانتياغو.

- أظنّ أنّني سأعمل بنصيحتك. سأواصل التّظاهر بأن لا شيء تغيّر.

- بالإضافة إلى أنّ المستقبل يمكن أن يحمل معه مفاجآت

للجميع. وهكذا إذا كنتِ لا تحتاجينه اليوم، فيمكنك أن تشعري بالحاجة إليه من جديد.

- تعتقدُ أنّني غير مستقرّةٍ إلى هذا الحدّ، أليس كذلك يا رفائيل؟

- لا. أعتقدُ أنّنا جميعًا، نحن الموجودين هنا والّذين هناك في أماكن أخرى كثيرة، نعيش وضعًا مختلاًّ. بعضنا بدرجةٍ أعلى وبعضنا الآخر بدرجةٍ أقلّ، ونبذل جهدًا لتنظيم وضعنا حتّى نبدأ من جديد ونضع قليلاً من النّظام في مشاعرنا وفي علاقاتنا وفي حنيننا. ولكن ما إن نهمل أنفسنا قليلاً حتّى تظهر الفوضى من جديد. وكلّ وقوعٍ جديد في الفوضى، واعذريني على الحشو، سيكون أكثر فوضويّة.

أغلقت غراثيلا عينيْها لحظة. ونظر إليها رفائيل بفضول. ربّما خاف من أن تجهش بالبكاء. لكنّها عادت وفتحت عينيْها اللّتين كانتا مبتلّتَيْن قليلاً، أو ربّما برّاقتَيْن قليلاً. ونظرت بانتباهٍ إلى الكأس الفارغة الّتي ظلّت تحملها في يدها ومدّتها صَوْبَ السيّد رفائيل.

- هل تصبُّ لي كأسًا أخرى؟

السيّد رفائيل
(أخبار عن إميليو)

أشعر كأنّني مضغوط، كأنّني تائه، كأنّني ألهث، لكن دون إصدار صوت، مثل تجربة أبوّةٍ بائسةٍ وأوّليّة. أشعر كما لو أنّني أرى نفسي في واجهة محلٍّ من بعيد، وكأنّ صورتي هي صورة دميةِ عرضٍ لم يضعوا عليها غير ربطة عنقٍ لتصبح أكثر سخافة. لحسن الحظّ، يبدو أنّني أقنعت غراثييلا، ولكن هل أنا مقتنع؟ النِّفاق رذيلة، ولكنّني لستُ متأكّدًا تمامًا ممّا إذا كانت الصّراحة دَوْمًا فضيلة. أريدُ أن أكون واقعيًّا، أن تكونَ رؤيتي رحبةً، وأن أكون مرنًا، أريد أن أكون مستجيبًا لروح العصر. المزعج، إضافة إلى كلّ ذلك، هو أنّني أبٌ. بمعنى أنّ سانتياغو عندما يخرج أخيرًا من سجنه، وقد أرسل إليّ المحامي رسالةً للتّو تحملُ الكثير من الأملِ، ستكون في انتظاره هنا محنة أخرى، هي أن يرى غراثييلا من خلال القضبان الحديديّة وهي تعيش حبًّا جديدًا، وأن يُخرِج بياتريث في عطل نهاية الأسبوع ويأخذها إلى حديقة الحيوانات وإلى الحدائق العامّة، وفي بعض المرّات إلى السّينما، وأن يسألها أقلّ ما يُمكن عن أشياء محرجة، لأنّ

كلّ جوابٍ مهما يكن صريحًا، سيزعجه، وسيجعله يعيد حساباته. وبعد ذلك، المطلوب منه أن يتعامل من جديدٍ مع رولاندو، ولكن بأيّ صفة؟ هل بصفته رفيق النِّضال القديم، أو حتّى زميل زنزانةٍ، أم بصفته الرّجل الّذي يُضاجع زوجته الآن؟ ماذا يحدث لابني أيّها السّادة؟ أعرف ما يملك وحتّى ما يفيض عن حاجته، ولكنّ السؤال اليوم هو ما الّذي ينقصه. ما هو العنصر المفقود في هذه الحكاية؟ ليس من الصّعب عليّ تخيّل الثّنايا والطّيّات الّتي تجعل النّاس يحبّونه، ولكنّني أقرّ بأنّني عاجزٌ عن فهم الأسباب الّتي تقوده إلى نهاية حبٍّ تعيسة. أيّ نقصٍ ورثه عنّي أو عن أمّه؟ عليّ أن أعثر عليه. عليّ أن أعثر على ذلك الابن الحقيقيّ الّذي لم أعرف بعدُ من هو تقريبا. اليوم تحديدًا نفضتُ الغبار عن الرِّسالة السرّيّة، الرّسالة الوحيدة إلى غاية الآن الّتي تمكّن من إرسالها مع كاملِ الضّمانات بأنّها لن تخضع للرّقابة السّجنيّة، ومازلتُ أجهل القناة الخارقة للعادة الّتي أُرسلت منها. والغريب في الأمر أنّ تلك الرّسالة الفريدة كانت لي وليست لغراثييلا. *«انظر يا أبي، بما أنّني واثقٌ من استلامكَ هذه الرّسالة، فقد قرّرت أن أقول لك فيها كلّ الأشياء المتهوّرة الّتي ستقرأ. عليّ من هذا المكان المقفر أن أقوم بإيماءات لأحد مّا، ومن سأختار غيرك أنت. عليّ أن أقوم بإيماءات كي لا أستسلم، كي لا أتفرّق إلى قطع. لا تحزن، إنّها استعارة. ولكنّها تترجم بشكل مّا شعورًا دقيقا. أليس كذلك؟ لنكشف الأمور: لا تخف من أن أكون قد تكلّمت أو وَشَيْت بأحد. هذا لم يحدث. هناك*

بعض الأشياء الّتي علّمتني إيّاها، وهذه واحدةٌ من الأشياء الّتي تعلّمتها. آه، لكنّني لستُ بطلاً أيضًا. هل ستتفاجأ إذا قلت لك إنّني لا أعرف حتّى الآن إن كنت قد التزمت الصّمت عن قناعةٍ أمْ لحسابات مخصوصة؟ نعم، حسابات. لاحظت دَوْمًا أنّك فيما تنفي كلّ شيء، نعم فأنت تصرّ بعنادٍ على قول لا، ولا، بالرأس وباليد وبالشّفتين وبالعينين وبالحنجرة، وأولئك الوحوش يضربونك كأنّهم يضربون كيسًا، أنت تحسّ بأنّهم في العمق يفترضون أنّك تقول لهم الحقيقة أحيانًا، أي أنّك لا تعرف أيّ شيء على الإطلاق، آه، ولكن ماذا لو ضعفت وقلت شيئًا بسيطًا، شيئًا سخيفًا ربّما لن يفيدهم في شيء ولن يضرّ بأحد، عندها سيتغيّر موقفهم، لأنّهم منذ تلك اللّحظة سيظنّون أنّك تعرف أشياء كثيرة، وعندئذٍ سيهشّمون عظامك، سينكّلون بك. وإذا واصلت الإنكار بشكلٍ دائم سيحطّمونك، وهذا منطقيّ، لكن من الممكن أيضًا ابتداءً من يوم معيّن أن يتركوك في سلام، لأنّهم ربّما سيكونون قد اقتنعوا بأنّك حقًّا لا تعرف شيئًا. ولكنّك إن قلت شيئًا، ولو معلومةً صغيرة، عندها لن يتركوك في سلام مطلقًا. ربّما سيتركونك لبعض الوقت ولكنّهم سيعودون بعد ذلك إلى سابق تعنيفهم. هاجسهم الوحيد هو أن ينتزعوا منك باقي المعلومات. ومن هذا الجانب أكرّر لك أنّني لا أعرف هل التزمت الصّمت عن قناعة أم بسبب حسابات استحضرتها. ربّما فعلت ذلك بسبب ذلك العامل الأخير، ولكنّها في العمق دفاعات يولّدها المرء. على أيّ حال أنا راضٍ، إذ لم يقع

أحد بسبب ضعفي. ولكن ليس هذا ما أريد أن أتكلّم معك حوله. أنت تعلم ما كان دائمًا مركز مرافعات المحامي: أنّني لم أقتل أحدًا. (هل تتابعني؟) ولكنّني قتلت، أجل قتلت. أرجو ألاّ يسبّب لك اعترافي جلطة. هذا الأمر لا يعرفه المحامي ولا رفاقي ولا غراثييلا ولا أيّ شخص آخر. أنت الوحيد الّذي تعرفه الآن، وتعرفه لأنّني أريد أن أزيل حمله عن ظهري. أنت ترى كم أخاطر بوضعي وأنا أكتب هذا بكلّ وضوحٍ، رغم كلّ درجات الأمان القصوى الّتي ترسل بها هذه الرّسالة، ومع ذلك فأنا أفعل هذا لأنّني لا أستطيع الاحتفاظ بهذا السّرّ لنفسي مدّةً أطول. المهمّ، سأحكي لك. كانت قد مرّت قرابة عشرة أيّام على وجودي في مخبإ، وهو واحد من بين مخابئ كثيرة. كنتُ قد قضّيت اليومين الأخيرين بمفردي، من دون أن أخرج إلى الشّارع بتاتا، وكان طعامي مقتصرًا على تناول المعلّبات، وكنت أطالع إحدى الرّوايات البوليسيّة، وأسمع الرّاديو ولكن بسمّاعات الأذن فقط، كي لا أثير الانتباه. في النّهار تظلّ السّتائر مغلقة، وكذلك في اللّيل بطبيعة الحال، لكن دون إنارة أيّ ضوء، إذ من الواجب أن نحافظ على هيئة البيت المهجور. كانت الميزة الكبيرة لهذا المخبإ هي أنّ له مخرجًا إلى شارعين مختلفين، وقد منحني هذا الأمر، في خضمّ كلّ ما يجري، شيئًا من الأمان، لأنّ المخرج الثّاني مخفيّ بدقّة، إذ يوجد في نهاية ممرٍّ تطلّ عليه شقق عديدة، أغلبها مخصّصة للّقاءات الغراميّة، ولذا، فالحركة قليلة وهذا أيضًا مساعد. كنت أنام بعين مفتوحة. وذات ليلة جعلتني

بعض الأصوات الخفيفة والحركات غير المحسوسة تقريبًا أفتح العين الثّانية. بدا لي أنّ الأصوات آتية من الحديقة الصّغيرة المقابلة للبيت. نظرت من وراء السّتائر ورأيت ظلاًّ يهتزّ بصعوبة، ولكنّني لم أتمكّن من أن أميّز هل هو ظلّ شخص مّا أم ظلّ شجرة صنوبر قصيرة القامة في الجهة الثّانية. بقيت ثابتًا بلا حركة، ولكن فجأةً انتابني شعورٌ بأنّ أحدا مّا يتحرّك داخل البيت. وأنا أفكّر في الأمر الآن، أظنّ أنّهم كانوا في غاية الوثوق من عدم وجود أحد هناك، إلى درجة أنّهم أهملوا قواعد السّلامة قليلاً. وبالإضافة إلى ذلك، لديّ انطباعٌ بأنّهم قلّة، ثلاثة أفراد أو أربعة فقط، وبأنّهم لم يقتربوا من البيت لمعرفتهم بأيّ شيء محدّد، وإنّما لأنّهم صاروا في ذلك الوقت يشكّون في كلّ شيء. وعندها وقع عليّ نور مصباح يدويّ ومرّت دقيقة شعرت بأنّها أبديّة، وجاء الصّوت قائلاً بخفوتٍ: «سانتياغو، ماذا تفعل هنا؟» فكّرت في البداية أنّه أحد الرّفاق، ولكنّ ذلك لم يكن ممكنًا لأنّ رفاقي ينادونني بشكلٍ آخر. وبعد أن أزاح قليلاً المصباح اليدويّ الّذي كان يبهرني استطعت أن أرى، أوّلاً الزيّ الرسميّ، ثمّ السّلاح الّذي يحمله، وأخيرًا الوجه. هل تعرف من كان؟ تماسك أيّها العجوز. كان إميليو. نعم، هو الشّخص نفسه الّذي تفكّر فيه، إنّه ابن العمّة آنا، ابن أختك. أنت لا تعلم قافلة الصّور الّتي تمرّ برأس المرء في لحظة مماثلة. كان لديّ هامش صغير لأخذ القرار. وصراحةً، لقد كان هو من بإمكانه السّيطرة على الموقف، لأنّني لم أكن في وضع يسمح لي بالوصول إلى سلاحي.

وكانت تأتي من الحديقة الصّغيرة أصوات خطوات، وقليل من الصّخب. وعاد هو ليتكلّم: «استسلم يا سانتياغو، هذا أفضل حلّ، أنا لم أكن أعرف أنّك متورّط في هذا، ولكن استسلم». وكان ينظر إلى السّلاح، لا إلى سلاحه وإنّما إلى سلاحي الّذي لم يكن بإمكاني الوصول إليه. «أنا أيضًا لم أكن أعرف أنّك متورّط في هذا يا إميليو». كلانا كنّا نتحدّث بهمس. «مرّت سنوات طويلة لم يَرَ فيها أحدنا الآخر»، همهم هو. «إنّها لحظة سيّئة هذه الّتي نلتقي فيها»، همست له. واتّخذت قرارًا فوريًّا فجأةً. ضَمَمْتُ قبضتيّ واقتربت منه، كما لو أنّني أطلب أن يضع الأصفاد في يدي. «حسنًا، أنا أستسلم». ووثق هو. لم يكن ليثق في أيّ شخص آخر. تركني أقترب، حتّى بدا لي أنّه أنزل سلاحه قليلاً. لا أتذكّر الآن الحركات السّريعة الّتي قمت بها، ولكنّ الأكيد هو أنّ تينك اليدين اللّتين كان يفتَرَض أن تكبّلا، كانتا بعد ذلك بثوان تشدّانه من عنقه، واستمرّتا في الشدّ إلى أن توقّف عن الحركة. لا أدري كيف حصل كلّ ذلك في صمتٍ تامّ. واصلت الظّلال حركتها في الحديقة الصّغيرة، ولكن من دون أن تتبادل الكلام، وكان ذلك مفهومًا، إذ لم يكن بإمكانها الكشف عن وجودها بتلك الطّريقة. كنت حافي القدمين ولكن بكامل ملابسي، فأنا أنام دَوْمًا مرتديًا ملابسي. مشيت بأسرع ما يمكنني صوب المخرج الثّاني، آخذًا معي في طريقي نعلاً من الخيش كان موضوعًا فوق كرسيّ. وصلت إلى باب الشّارع الآخر المُطلّ على ممّر الشُقَقِ المخصّصة للمواعيد الغراميّة. ولم تكن هناك أيّ شمسيّات

في النّافذة ولا أيّ ثقب في الباب، ما يعني أنّه عليّ بكلّ بساطةٍ أن أخاطر، وخاطرت. خرجت ولم أجد أحدًا. كانت السّاعة تشير إلى الثّالثة فجرًا. تقدّمت عشرة أمتار من دون أن أركض. وفجأةً رأيتها ولم يكن بإمكاني تصديق الأمر: حافلة صغيرة تتقدّم ببطءٍ، وليس على متنها غير مدنيّين، هي واحدة من تلك الحافلات القديمة بسطح مفتوح وهي تابعة لشركة «كوطسكا». صعدت بقفزةٍ واحدة. وبعد ذلك بنصف ساعةٍ نزلت في ساحة الاستقلال. لم تذكر الجرائد مطلقًا تلك العمليّة الصّغيرة المحبطة، ولم يظهر أيضًا اسم إميليو باعتباره واحدًا من الضّحايا النّبلاء لمعارضي نظام الحكم القتلة. لم يكن هناك إلاّ إعلان عن الوفاة. وحتّى نحن، أنا وأنت وغراثييلا... كنّا موجودين بين الأقرباء الّذين شاركوا بحزنٍ عميقٍ في الجنازة. لعلّك كنت موجودًا خلال ليلة السّهر على الجثمان قبل دفنه. أنا لم أحضر، بطبيعة الحال، رغم أنّني في لحظة مّا شعرت برغبة في ذلك. ولكنّني كنت مرهقًا جدًّا في ذلك الوقت. وسنة بعد ذلك، حين أمسكوا بنا في مداهمة الشرطة في فيلا مونيوث، أخضعوني لمئات جلسات الاستنطاق وهشّموا عظامي مطوّلاً ولكنّهم لم يسألوني بتاتا عن ذلك الحدث. لماذا لم يتفطّنوا لما وقع؟ لن أعرف السّبب أبدًا. في الحقيقة لم يكن أحد في العائلة يعرف أنّ إميليو رجل شرطة. ولكن إذا كانت مهنته بكلّ ذلك الغموض، لماذا كان يلبس زيًّا رسميًّا؟ ستسأل نفسك لماذا أقول لك كلّ هذا الكلام. أنا أقصّه عليك لأنّني لم أتخلص البتّة من تلك الواقعة، الّتي

أرى أنّه لا مفرّ منها. أهو رأيُ برجوازيّ صغيرٍ؟ ربّما. إنّها عملية القتل الوحيدة الّتي ارتكبتها، (يا للسخرية). حضرت مواجهات عديدة، وفي مناسبات كثيرة كانوا على وشك قتلي، وأنا أيضًا كنت على وشك تصفية أحدهم، ولكن يبدو أنّ مهارتي في التّصويب بالسّلاح ليست نموذجيّة. لا أملك أيّ موتٍ آخر في رصيدي (أو لعلّه يكون دَيْنًا؟) ما المشكلة في أنّ ابن العمّة لا يُمحى من ذاكرتي، وكذلك يَدايَ المتوتّرتان وهما تَشدّانه من عنقه. أراه في المنام مرّتين في الشّهر أو ثلاثا، ولكن ليس أثناء واقعة قتله مطلقًا. هي ليست كوابيس. أحلم بزمن بعيد جدًّا، عندما كنّا طفلين (هو يكبرني بسنة واحدة، أليس كذلك؟) كنّا نلعب كرة القدم في الملعب الصّغير الّذي يوجد خلف الكنيسة، أو في شهور الإجازات عندما نذهب إلى المتنزّه العام في ساعات القيلولة، فيما تستسلمون أنتم البالغون لنوم عميق، فنشعر بأنّنا أحرار، وكنّا نستلقي فوق العشب أو فوق بساط الأوراق المتساقطة ونشرد ونشرد، ونخطّط لمشاريع نكون فيها دائمًا معًا، ونسافر ولكن على متن سفينة لأنّ الطّائرات تخيفنا، وإضافة إلى ذلك، سيكون بإمكاننا اللعب على سطح السّفينة، لأنّ المضيفات تمنعن ذلك في الطائرات، هكذا كان يقول إميليو. وكنّا نواصل الشرود، هو سيصبح مهندسًا، لأنّه يحبّ قاعدة الضّرب التّبادليّ، كما قال، وفكّرت أنا في أن أصبح موسيقيًا لأنّني أحبّ أن أعزف موسيقى التانغو نافخًا في ورقة تدخين من خلال مشطٍ. وكنّا نتحدّث عنكم أنتم المسنّين أيضًا، فيُبْدي هو رأيه، «هم لا يفهموننا

ولكنّهم يحبّوننا»، وآنذاك حدّدنا سقف الأربعة عشر عاما لهروبنا بشكلٍ نهائيّ من منازلنا، لنبدأ هكذا في تحقيق سلسلة مغامرات شكّلناها مرّات ومرّات شفهيًّا. أنا أحلم بالطّفل إميليو، ولهذا فهي ليست كوابيس. الكابوس يأتي حين أستيقظ. عندها أرى يديّ تشدّانه من عنقه الّذي لم يكن ناعمًا ورقيقًا كما كان في الثامنة أو التاسعة أو العاشرة من عمرنا وإنّما كان قصيرًا وغليظًا. لعلّه بدا لي هكذا بسبب ياقة القميص. ذُكر اسمه في مناسباتٍ عديدة، هنا في السّجن أو قبله في الثّكنة، وبطبيعة الحال لم يكن أحد يعرف أنّه ابن عمّتي. الجميع متّفقون على أنّه جلاّد، أحد الجلاّدين الأكثر قسوة، شخص حقير يستمتع بوضع آلة التّعذيب المسمّاة المنخس في مؤخّرة السّجين أو في خصيتيه. بعضهم يعلم أنّه مات منذ فترة ولكنّهم يجهلون الظّروف الّتي مات فيها، وأنا لا أعلّق بشيء حين يتمنّى معتقل مّا ألاّ تكون وفاته قد حدثت بطريقة طبيعيّة، أن يكون أحدهم قد هشّم رأس ابن العاهرة ذاك، الساديّ الحقير... وأوصاف أخرى في المعنى نفسه. ليس شعورًا بالذّنب ذاك الّذي يقلقني أحيانًا، وإنّما التّفكير في أنّني ذَبحتُ في ذلك الفجر، بشكل مّا، طفولتي. وربّما أتذكّر نظرة الثّقة الّتي كانت باديةً على وجهه حين مددت يديّ معًا كما لو أنّني أطلب منه أن يضع فيهما الأصفاد. وربّما أفكّر اليوم في وجود سبب وراء همسه في كلامه، ربّما لاعتقاده أنّني لست وحيدًا في المنزل، ولم تكن كلّ الأوراق لصالحه، رغم أنّه وعى في تلك اللّحظة أنّ سلاحي ليس في متناول يدي. أو ربّما كي

لا يقتلني الآخرون بسبب توتّر الأعصاب أو لمجرّد القسوة، لأنّني في آخر المطاف أنا سانتياغو ابن خاله، ومن الأفضل أن يتمكّن من تسليمي حيًّا على أن يأخذني جثّة وتعلم العائلة ذات يوم بهذا الأذى. أو ربّما لأنّه تذكّر فجأةً كلّ الماضي المشترك في شرودنا ونحن مستلقيان فوق العشب وفوق بساط الأوراق المتساقطة، وهو ما أربكه وتركه أعزل. أو ربّما لم تهاجم تفكيره بسرعةٍ، مثلما حدث معي، الفوارق الأيديولوجيّة العميقة الّتي جعلتنا نتواجه في حرب بلا هوادة ولا تعترف بأيّ قرابة. لكنّني لم أقتُل أحدًا يا أبي وأظنّ أن هذه الواقعة الوحيدة ستلازمني إلى الأبد. من المرجّح أن يعني هذا الأمر ضعفي، بالرّغم من أنّني أبنت عن قوّة كبيرة في أشياء أخرى. وأقول لك المزيد: أعتقد أنّني ما كنت لأحمل هذا الشّعور لو أنّني قتلته رميًا بالرّصاص خلال مواجهة. شعوري هذا مردّه إلى أنّني قتلته بتلك الطّريقة، كيف أصفها، الحقيرة، وقد تكون على شيء من الدّناءة، منتهزًا دهشته الّتي كانت دهشةً عاطفيّة، وإذا أردت أن أكون صريحًا، لا يمكنني تجنّب التّفكير بهذا الشكل. وأنا وإن صرت أعلم الآن أنّه تحوّل إلى شخص خبيث، شخص سفّاح لا يتورّع عن أذيّة الآخرين، وعلى الرّغم من أنّ الجميع يقولون إنّ موته أفضل، وأنا أيضًا أقول ذلك لنفسي، فإنّني حينما ضغطت على عنقه بيديّ المتوتّرتين، كنت في الحقيقة أجهل ذلك، وقد قتلته ببساطة لأبقى على قيد الحياة، وهو الّذي شرد معي فوق بساط الأوراق المتساقطة. تخيّل معي مشاريع مشتركة تتمحور حول

هروبنا من بيتينا، ورحلات على متن سفينة لنلعب معًا ألعابنا المفضّلة. كيف أشرح لك، إنّهما قيمتان مختلفتان، هويّتان مختلفتان، إنّهما شخصان مختلفان موضوعان جنبًا إلى جنب، كلاهما اسمه إميليو. هل تفهمني يا أبي؟ لم أتكلّم مع غراثييلا عن هذا الأمر ولن أتكلّم معها عنه لأنّها لن تفهمه، ولأنّها تميل دَوْمًا إلى تبسيط الأشياء. ستقول لي إنّ ما فعلته هو عين الصّواب، نَقُصَ جلاّد من هذا العالم. أو ستقول لي: «كيف استطعت أن تفعل هذا بابن عمّتك». ولكنّ الحقيقة ليست هذه ولا تلك. الأمر أكثر تعقيدًا يا أبي، إنّه أكثر تعقيدًا. الآن اسمع ما سأقول لك. خذ بعين الاعتبار أنّ هذه الرّسالة فرصةٌ وحيدة، أرجو أن أتمكّن يوما مّا من أن أحكي لك كيف حدثت هذه الصّدفة المذهلة، ومن المؤكّد أنّها لن تتكرّر من جديد أبدًا. من المستحيل أن تجيبني عبر هذه الطّريقة أو عبر طريقة أخرى، تكون جديرة بالثّقة. ومع ذلك عليك أن تجيبني. (أليس كذلك يا أبي؟ هل ستجيبني فعلاً؟) عليك أن تفعل ذلك عبر الطّريقة المعتادة، الطّريقة الّتي تمرّ فيها الرّسالة بالضّرورة عبر الرقابة السّجنيّة. يجب أن نحصر إجاباتنا في اثنتين ممكنتين، وإن كنّا نعرف جيّدًا كم من التّلوينات يمكن أن توجد بين الواحدة والأخرى. سجّل هذه النّقاط إذن. إذا تعرّفت الوضعَ: لا أقول إذا وافقت عليه أو برّرته، ولكن إذا فهمته على الأقلّ، رتّب أمورك، لتجعل كلمة «أَفْهَمُ» تظهر سطرين قبل تحيّة النّهاية. أمّا إذا كنت في المقابل ترى أنّه أمرٌ خسيسٌ أو غير مقبول، احرص عندئذٍ على أن تكتب

«لا أَفْهَمُ» في الموضع ذاته. اتّفقنا؟ وداعًا يا أبي». قرأت تلك الرّسالة عشر مرّات تقريبا. وانتظرت يومين قبل أن أبدأ في الكتابة له. ثمّ أنهيت رسالتي على هذا النّحو: «*حفيدتي، باعتبارها الأولويّة الثّانية، هي ابنتك أيضًا، إنّها جميلة وفطنة كعادتها، لقد بدأت تدرس اللّغة الفرنسيّة، ما رأيك؟ أحيانًا، حين تأتي لرؤيتي، تطلعني على آخر درسٍ تعلّمته في حصص اللّغة الفرنسية. لكن يبدو أنّني أصبحت ثقيل السّمع، فالسّنوات لا تمرّ عبثًا، أو ربّما ثقيل الذّاكرة، إذ أنّني لا أكاد أَفْهَمُ ما تقول، حين تقرأ عليّ باللّكنة الفرنسيّة المنمّقة إحدى قصص شارل بيرو. إلى اللّقاء يا بني*».

الآخر
(منذهل وكلّ شيء)

إنّه انطباعٌ جديدٌ بالنّسبة إليه. ليس مزعجًا، لم يكن كذلك. ولكنّ الحقيقة أنّه وضع نفسه في مأزق. لم يحصل له هذا مع أيّ امرأةٍ قطّ. إذ كان، رولاندو أسويرو، صاحب المبادرة دَوْمًا، وهو الّذي يتحكّم بزمام كلّ علاقةٍ، سواء انتهت إلى السّرير أم لم تنته. وقد كانت المسألة بالفعل مسألة مبادئ: أن تكون العلاقة مؤقّتة، وأن تكون كلّ المعلومات والغايات واضحةً وشفّافةً مثل الماء، ودون أن يتمكّن أحدٌ في ما بعد من محاصرته بشهادةٍ شفويّةٍ لوعدٍ لم يفِ به. (مثلما سها نصّ الإكليروس عن تسجيل: «حتّى لا تخلف العهود، فالأفضل ألاّ تقطعها».) لحسن الحظّ، وهذا يجبُ عليّ أن أعترف به، كان يعثرُ دَوْمًا على نساءٍ فوضويّاتٍ مستعدّاتٍ للمغامرة، وكنّ يوافقن منذ الوهلة الأولى على قوانين اللعبة، وحين تنتهي بعد ذلك، كنّ يتبخّرن وهنّ يودّعنهُ وداعا ودّيا وينتهي كلّ شيءٍ بسلام. ومن جانبٍ آخر، كان يعامل السّيّدات أو الأمّهات، أيْ زوجات أصدقائه المقرّبين، كالأخوات. صحيح أنّه بين فينةٍ

وأخرى يخصّهنّ بنظرة مشبوهة، ولكنّه مع ذلك لم يتجاوز حدود الملاطفات الهزليّة والوديّة، على الرّغم من أنّه يثير لديهنّ غنجًا فطريًّا في كثيرٍ من الأحيان. تلك النّظرات المشبوهة لم تستثنِ في زمنٍ مضى غراثييلا، وهي ترتدي، هناك في منتجع سوليس، لباس السّباحة الأزرق المكوّن من قطعتَيْن خفيفتَيْن. إلاّ أنّ الأمر لم يكن يتعلّق بلباس بيكيني، فلبيرالية سانتياغو تابع المسيح لم تكن لتسمح بذلك بعْدُ. كانت تعرضُ صورةً أو قُل حضورًا أو جسدًا جديرًا بالتّقدير والانبهار. آه، لكنّه لم يتجاوز أبدًا حاجز التنهُّدِ العفيف ولم يزدْ على ترجمة إعجابه بملاحقتها بنظراتٍ جريئةٍ من وراء نظّاراته السّوداء، نظراتٍ كانت، بالمناسبة، تحفّزها أحيانًا بعض تعليقات سانتياغو نفسه، فهو إذا رآها تجري صَوْبَ الماء، كما يحدث في إعلانات التّلفزيون، ذات مساءٍ يكون فيه البحر هائج الأمواج مثلاً، همس كما لو أنّه يتكلّم مع نفسه، لكنّه في الحقيقة يوجّه كلامه إلى الثّلاثة الآخرين: «جميلةٌ هي تلك الشابّة، أليس كذلك؟» فاسحًا المجال لدعابات غامضة وقهقهات ذكورية من المتزوجين الاثنين ومن العازب الوحيد الصامد الذي قدّم نفسه ذات مرة بهذه الطريقة «رولاندو أسويرو في خدمتك وخدمة زوجتك». عبارة شهيرة ولكنّها لم تكن ساذجة بالمرّة، باغت بها منذ زمن أحد المديرين العامّين لإحدى الشّركات، فقرّر أن يُسرّحه على الفور.

لكنّ غراثييلا صارت الآن شيئًا آخر. وهو أيضًا تغيّر. وكيف لا يحدث ذلك. في البداية كانت المرحلة السّياسيّة، مع تَيْنك

السَّنتَيْن اللّتين سبقتا الانقلاب العسكريّ وكانتا بكلّ بساطةٍ سنتين بائستَين. مَنْ منّا لا يستهويه الجنس؟ سؤالٌ جميلٌ وجوهريّ يصلح طرحه على أبي الهول، والد جدّ أنور السّادات. آه، لكن كم هو صعبٌ أن تكون ببساطةٍ مثيرًا في فترةٍ لا تعترف سوى بما يخدم الأفكار الكبرى. لم يجد المرء أحيانًا في تينك السَّنتَيْن الحاميتَين حتّى سريرًا متواضعًا لينام عليه بسهولةٍ، فما بالك إذا تعلّق الأمر بتلبيةِ احتياجاتٍ أخرى. وبعد ذلك كان السّجن اللّعين، بفصوله الطّويلة من التّعذيب عبر الوقوف على القدمين لساعاتٍ وأيّامٍ دون أكلٍ أوشربٍ، والتّعذيب بالآلة المسمّاة المنخس، أو بتغطيس الرّأس في براميل الماء المتّسخة وطرقٍ أخرى مبتكرة. نعم هناك، العمل لا يُتعب الذّهن.

تقرّر أن تستسلم. وكيف لا تفعلُ؟ ثمّ تنسَى فلا تكاد تتذكّر. فإذا كان اللّيلُ وغابَ صرّارنا ذاك مثل كلّ يوم وكأنّه شاهدٌ على ما يحدث، فإنّك تضع الرّأس في شبه الوسادة وتجهشُ بالبكاء حتّى تجفّ عيناك من الدّموع (كما تقول كلمات أغنية تانغو: أشعر بحزنٍ مريرٍ ولكنّي لم أكن قطّ ضعيفًا ولا أعمى). نعم، غراثييلا الآن شيء آخر. من ناحية، لأنّها صارت أكثر أنوثة، ومن ناحيةٍ ثانية لأنّها صارت أكثر غموضًا، ومردّ ذلك على الأرجح إلى أنّها صارت أكثر نضجًا. أمّا جسديا فقد نضجت بشكلٍ لافتٍ ورائعٍ، وبالنّسبة إلى الرّوح أيضًا، حتّى لا نكون دُغمائيّين. ورؤيتها مثلاً وهي تقترب ببطءٍ في شارع الزّهور الّذي يؤدّي إلى بيتها، وقد كان

هو، كما في الكثير من المرّات، يقف بانتظارها عند البوّابة، تولّد آمالاً جميلةً ولكنّها لا تتحقّق دَوْمًا. إنّها مضطربةٌ قليلاً، هذا صحيح، وإن كان التّعبير الأسلم ربّما هو القَوْلُ إنّها تائهة. وفي قلب هذه الفوضى يوجد سانتياغو. سانتياغو في السّجن، غير قادر على الدّفاع عن نفسه أو على الهجوم، وحيد مع حزنه ومع ما اكتسبه من ثقافة، يالها من تعابير، بل ياله من وضع. لقد توصّل رولاندو إلى تشخيص أوّليّ، وهو أنّ غراثييلا امرأةٌ لا يُناسبها البعد، وفي هذه المسألة تحديدًا، خسر المسكين سانتياغو نقاطًا دون أن تكون له يدٌ في الأمر. ولكن بين هذا التشخيص وبين تمثّل فكرة أن يكون له هو، رولاندو أسويرو، دورٌ في هذه الحكاية، توجد مسافةٌ شاسعة. هو لا يعرفُ الحلَّ. ليسَ بَعْدُ. رغم أنّه بدأ يتحسّسُهُ شيئًا فشيئًا. غراثييلا تُعجبه. لماذا تخفيف الأمر و/ أو تكذيبه؟ وهو يعترفُ بأنّه قد أحرز تقدّمًا لا بأس به في مناسباتٍ عديدة، حين كانت تكلّمه عن أشياء لا تستطيع الحسم فيها، أو عن معنويّاتها المرتفعة أحيانًا والمنخفضة أحيانًا أخرى، وأومأ لها في عباراتِهِ بما في نفسهِ، وعرض عليها مساعدة، لِنَقْلْ أخويّة، وشيئًا فشيئًا، ودون سابق ترتيبٍ ربّما، كان يقوم بتلميحاتٍ خفيّة ولكنّها محدّدة عن انجذابه العاطفيّ نحوها، أو بصورة أوضح عن الجاذبيّة المكشوفة الّتي كانت تسلّطها عليه. ومراعاة لهذه المرحلة الملتبسة بعواطف ومشاعر في حالة ضغطٍ ومراجعةٍ صريحَيْن، كانت لغراثييلا قابليّةٌ قويّةٌ للامتصاص مثل إسفنجةٍ يونانيّة. ومن المؤكّد أنّها التقطت تلك الحركات الحذرة

والمحاطة. وذات يوم، في منتصف واحدٍ من تلك الأحاديث المبهمة، الشّبيهة بحصّة لاعبي التّوازن في السّيرك، أشارت فجأةً، إلى أنّها لم تعد بحاجةٍ إلى سانتياغو، «لقد تركني»، فردّ عليها متفهّمًا، «لا يا غراثييلا هو لم يتركك بل أخذوه»، فقالت، «الأمر لا يصدّق، أو لعلّ المنفى قد حوّلني إلى امرأةٍ أخرى»، فقال هو، «لعلّك ما عُدْتِ تشاركين سانتياغو المواقف السّياسيّة ذاتها»، فردّت، «بالتّأكيد لا، هذا لم يحدث لأنّها مواقفي أنا أيضًا»، وطرَحَ هو أخيرًا السّؤال الأهمّ، «ربّما تحلمين برجالٍ آخرين»، فقالت، «هل تقصد الحلم وأنا نائمة أم الحلم وأنا مستيقظة»، فأجابها، «أقصد كلتا الحالَتَيْن»، فقالت، «عندما أنام لا أحلم بأيّ رجل»، وردّ هو عليها، «وحين تكونين مستيقظة»، فأجابت هي، «حسنًا حين أكون مستيقظةً نعم أحلم، ستضحك»، وهناك وقفت. لم تكن وقفةً مسرحيّةً بل صمتًا موجزًا لتأخذ نفسًا وتقدّر وزن ما هي على وشك أن تضيفه: «أحلم بك يا رولاندو». بقي مذهولاً، أحسّ بسخونةٍ مفاجئة في أذنَيْه، وهو الّذي عُرِفَ بأنّه زير نساءٍ رفيعٍ، عضّ على شفته حتّى سال منها الدّم لكنّه لم ينتبه للأمر إلاّ بعد مرور ساعاتٍ على ذلك.

خمّنت، وهي متشنّجةٌ قبالته بانتظار شيءٍ لم تكن تعرف بدقّةٍ ما هو، وفاقدة الثّقة في نفسها بقدرٍ كبيرٍ. ومما خمّنت فيهِ أنّه كان في تلك اللّحظة يقلّبُ كلمة الوفاء، الوفاء للصّديق المعزول بمفرده في زنزانةٍ. وحتّى إن كانت تلك الكلمة نظيفةً فإنّها تبقى نَتِنَةً دَوْمًا، الوفاء لماضٍ ثقيلٍ ومضغوطٍ ولأخلاقٍ غير مفصّلةٍ ولكن صالحة،

والوفاء لنقاشاتٍ طويلةٍ كانت تدومُ حتّى الفجر، نقاشاتٍ لطالما حضرَها سيلفيو الّذي لم يَعُدْ موجودًا، وحضرها مانولو الّذي يعمل الآن تقنيّ إلكترونيّات في غوتنبرغ، وحضرتها الزّوجات اللّواتي كنّ يُتركنَ شبهَ مهمّشاتٍ بدافع الذّكوريّة-اللّيبيرنيّة المتبنّاة من قِبل رجالٍ محترمين، ولكنّهن كنّ يشاركن أحيانًا باعتراضاتٍ واضحة، وكنّ يحضّرن خصوصًا السّلطات واللّحم والفطائر العاديّة والفطائر المحشوّة ومربّى الحليب وبعد ذلك ينظّفن الأطباق بينما يستمتعُ الرّجال بقيلولة. بقي مذهولاً، وهو الّذي عُرف بكونه زير نساءٍ وشخصًا فاجرًا لا يخجلُ منهنّ، وتعرّق جبينهُ كما لو أنّه تلميذٌ تغويه نجمةٌ فاتنة على مسرح «مايبو»، مع حكّةٍ في الكعب الأيسر، من المرجّح أنّها حساسيّة هي بمثابة ردّة فعلٍ أمام المستقبل الصّعب المقترب. وعلى الرّغم من ذهوله وغير ذلك ممّا اعتراه، فقد تمكّن من أن ينطق بتلعثمٍ «غراثييلا لا تلعبي بالنّار» حتّى إنّه حاول أن يوجّه الحوار إلى منطقةٍ عابثة، شيء من قبيل أنّنا من لحمٍ ويجبُ عدم الطّمع في امرأة الآخر، كلّ هذا ليتمكّن من أخذ نَفَسٍ قصير. ولكنّها حافظت على تعبير وجهها الصّارم والرّهيب، «انظر أنا لا أمزح، هذا أمرٌ في غاية الصّعوبة بالنّسبة إلي». فردّ عليها، «أنا آسف يا غراثييلا. أنتِ تعرفين، إنّه وقع المفاجأة». ومنذ تلك الجملة في الفصل الثّاني من مسرحيّةٍ مرتبطةٍ ببوينس آيرس، لم يعد يتلعثم وأفاق من ذهوله ليصير مفحمًا بشكلٍ قويٍّ وقادرًا مع ذلك على أن يهمس«إنّها لخسارة ألاّ أستطيع جوابك: لا تقولي إنّها حماقات،

فأنا أرى الجدّية في عينيكِ، وإنّها لخسارة أيضًا ألاّ أستطيع القول لك: هذا الوضع لا يناسبني، لأنّه في الحقيقة يُناسبني». وما إن نطق عبارة «إنّه يُناسبني» حتّى فكّر في أنّه كان صريحًا وقدريًّا، صريحًا لأنّ ذلك حقًّا هو الشّعور العابر الّذي بدأ يشقّ لنفسه طريقًا داخل غابة اندهاشه، وقدريًّا لأنّه لم ينسَ أنّ عبارة «إنّه يناسبني» المتهوّرة نسبيًّا هي شيء من قبيل المقطع الأوّل لقيامته الشّخصيّة. لكنّه نطق تلك العبارة وخطّها. أمّا غراثييلا الّتي كانت في منتهى الشّحوب، كما يُفترض، فقد استعادَ وجهُها لونَه فجأةً، وتنهّدت مثل شخصٍ يدخل إلى محلٍّ فاخرٍ لبيع الزّهور، ورأى هو أنّ تلك اللّحظة مناسبة ليمدّ لها يدًا، فمدّ يده فوق الطّاولة الصّغيرة، مُتجنّبًا ببراعةٍ المزهريّةَ الفارغةَ من أزهار القرنفل والمنفضة الممتلئة بأعقاب السّجائر، وظلّت هي متردّدةً للحظةٍ أو ما يعادل أربع ثوانٍ، وبعدها مدّت هي أيضًا يدها الرّقيقة، وكانت تبدو مثل يد عازف بيانو، وهي في الحقيقة يدُ راقنةٍ على الآلة الكاتبة، وصار ذلك دليلاً قاطعًا على أنّ التّعلّق، بعد كلّ هذا، مكشوفٌ بما يكفي، وتبادلا نظراتٍ وكأنّ أحدهما يكتشف الآخر. وبعد ذلك مباشرةً حان وقتُ التّحليل الطّويل جدًّا، ومرّةً أخرى طَفَت كلمة الوفاء من فوق المزهريّة الفارغة من الزّهور والمنفضة الممتلئة بأعقاب السّجائر، متوقّفةً أحيانًا عند مفاصل أصابعه الخشنة وأحيانًا أخرى في أعلى صدرها العبق. وكانت غراثييلا تشعرُ بالعذاب أكثر من شعورها بالسّعادة، «أنا أفهم أنّه موقفٌ غير منصفٍ، ولكن عند هذا الحدّ من المباراة لا

يمكنني أن أكذب على نفسي وأنا واعيةٌ كلّ الوعي بما أنا مدينةٌ به لسانتياغو، ومن البديهيّ أنّ هذه القناعة ليست تأمينًا مدى الحياة ضدّ الانفصال بين زوجين». أمّا رولاندو، فكان يشعرُ بأنّه مرتبكٌ أكثر من شعوره بالسّعادة، «لنتعامل مع الأمر بهدوءٍ، لنتعامل مع الأمر كما لو أنّ سانتياغو حَاضِرٌ في حوارنا لأنّه جزءٌ لا يمكن استبعاده من هذا الوضع، لنتعامل معه كما لو أنّ بإمكان سانتياغو أن يتفهّم الموقف حقًّا، وأن نتفهّم نحن الموقف في المقام الأوّل». وهكذا تكلّما ودخّنا خلال ساعتَيْن، تقريبًا دون أن يلمَس أحدهما الآخر، وهما يقترحان حلولاً وقراراتٍ ممكنة، متطرّقَيْن، ولكن بحذرٍ شديدٍ، إلى موضوع بياتريث، دون أن يتجرّآ بعدُ على تدقيق النّظر أو التّخطيط للمستقبل، وتواعدا على أن يُمْهل كلّ واحدٍ منهما الآخر وقتًا ليعتاد الفكرةَ، وتواعدا أيضًا على ألاّ يرتكبا حماقاتٍ كثيرةً أو يكونا أكثر تعقّلاً من اللاّزم. وكان رولاندو يشعرُ كلّما مرّ الوقت بخدرٍ متزايدٍ بسبب عينَيْ غراثييلا الخضراوَيْن وساقَيْها وخصرها، وهي بادية الاضطراب من ردّة الفعل تلك وإن كانت تريدها وتنتظرها. وبدأ رولاندو يشعر بنشوة ذلك الاضطراب، وشرعت غراثييلا تنزلق فجأةً، وهي عزلاء، نحو بكاءٍ غير متصنّع بالمرّة، بل كان مقنعًا إلى درجةٍ يندُر أن تبلغها حالات البكاء. وعندئذ أمسك وجهها بكلتا يديه. وفي تلك اللّحظة فقط انتبه وهو في اتّصاله اللّذيذ بشفتَيْها إلى أنّه من فَرْطِ الاضطراب، كان قد عضّ على شفتَيْه حين أخبرَتْه غراثييلا ساعةً قبل ذلك بأنّها تحلم به.

بياتريث
(التلوث)

قال العمّ رولاندو إنّ هذه المدينة تصير أكثر فأكثر لا تطاق، من فَرْطِ ما فيها من تلوّث. أنا لم أقل شيئًا حتّى لا أبدو مثل حمارةٍ، ولكنّني في الواقع لم أفهم من الجمل كلّها إلاّ كلمة «مدينة». وبعد ذلك لجأت إلى القاموس وبحثت عن كلمة «لا تطاق» ولم أجدها. ويوم الأحد حين ذهبتُ لزيارة جدّي سألته ماذا تعني كلمة «لا تطاق»، فضحك وشرح لي بطريقةٍ سهلةٍ أنّها تعني «لا تُحتمل». عندئذٍ فهمت المعنى، لأنّ غراثييلا، أيْ أمّي، تقولِ لي في بعض الأحيان، أو من الأفضل القَوْل في كلّ يومٍ تقريبًا، «رجاءً يا بياتريث، رجاءً، أحيانًا تصيرين حقًّا لا تُحتملين». في مساء ذلك الأحد تحديدًا قالتها لي، رغم أنّها في تلك المرّة كرّرت ثلاث مرّات «رجاءً رجاءً يا بياتريث أحيانا تصيرين حقًّا لا تُحتملين»، وبهدوءٍ تامّ أجبتُها، «أتريدين القول إنّني لا أطاق»، فأضحكَها جوابي، ليس كثيرًا ولكنّها غفَرَت لي العقوبة وكان هذا مهمًّا جدًّا. الكلمة الثّانية هي كلمة تلوّث، وهذه أصعب بكثير. هي كلمةٌ

موجودة في القاموس، ويشرَح معناها على هذا النّحو، تلوّثٌ: تدفّق المنيّ. ما معنى كلمة تدفّق؟ وما معنى كلمة المنيّ؟ بحثتُ عن كلمة تدفّق فوجدت: انسكابَ سائل. وبحثتُ أيضًا عن معنى كلمة المنيّ فوجدت: بذرةٌ أو سائلٌ يصلحُ للإنجاب. أي أنّ ما قاله العمّ رولاندو يعني أنّ هذه المدينة تصير أكثر فأكثر لا تحتمل من فرط انسكابِ المنيّ. ولم أفهم أيضًا. وهكذا في المرّة الأولى الّتي التقيت فيها صديقتي روسيتا، أخبرتها بمُعضلتي وبكلّ الشّروح الّتي وجدتها في القاموس. فقالت لي، لديّ انطباعٌ بأنّ المنيّ كلمة شهوانيّة، ولكنّني لا أعرف معناها بدقّة. وعندئذٍ وعدَتْني بأنّها ستستشيرُ ابنة عمّها ساندرا في الأمر، لأنّها أكبر سنًّا وفي مدرستها يتلقّون دروسًا في الثّقافة الجنسيّة. وجاءت يوم الخميس لرؤيتي وهي شديدة الحيرة، أنا أعرفها جيّدًا، فعندما يكون في رأسها شيء غامض يتجعّد أنفها، وبما أنّ غراثييلا كانت موجودةً في البيت، فقد انتظرتْ بفارغ الصّبر حتّى تذهب إلى المطبخ كي تحضّر الفطائر، لتقول لي، «لقد استقصَيْتُ الأمر، المنيّ هو شيءٌ يملكهُ الرّجال الكبار وليس الأطفال»، فقلتُ لها، «إذن نحن ليس لدينا منيّ بَعْدُ؟» وردَّتْ، «لا تكوني حمقاء، ليس لدينا الآن ولن يكون لَدَيْنَا أبدًا. المنيّ يمتلكهُ الرّجال وحدَهم حين يكونون مسنّين مثل والدي أو والدكِ الّذي يوجد في السّجن، نحن الفتيات لا يكون لدينا منيّ، حتّى ولو أصبحنا جدّات». فأجبت، «هذا غريبٌ جدًّا»، فقالت، «ساندرا تقول إنّ كلّ الأولاد والبنات أتوا من المنيّ، لأنّ في هذا

السّائل حيوانات، تسمّى حيوانات منويّة، وساندرا كانت سعيدةً لأنها تعلّمت في حصّة الأمس كيف تكتب «حيوانات منويّة»».

حين ذهبت روسيتا بقيتُ أفكّر، وبدا لي أنّ العمّ رولاندو ربّما أراد أن يقول إنّ المدينة لا تحتمل من فرط الحيوانات المنويّة الّتي لديها. ولهذا ذهبتُ مرّةً أخرى إلى جَدِّي، لأنّه يفهمني دَوْمًا ويُساعدني، ولكن ليس بشكلٍ كبير، وحين أخبرته بما قاله العمّ رولاندو، وسألته إن كان صحيحًا أنّ المدينة تصير أكثر فأكثر لا تطاق، لأنّ لديها الكثير من الحيوانات المنويّة، انتابته نوبةُ ضحكٍ شديدةٍ حتّى كاد يختنق، وكان عليّ أن أحضر له كأس ماء، وتلوّن وجهه كثيرًا، وخِفتُ أن يغمى عليه وأنا بمفردي في هذا الوضع المروّع. ولحسن الحظّ أنّه أخذ يهدأ شيئًا فشيئًا، وحين استطاع الكلام قال لي، بين سعالٍ وسعال، إنّ ما قاله العمّ رولاندو كان يقصد به تلوّث الجوّ. وحينها شعرت بأنّني مغفّلة أكثر، ولكنّه شرح لي مباشرةً أنّ كلمة الجوّ تعني الهواء، وبما أنّ هناك كثيرًا من المصانع والسّيّارات في هذه المدينة، فكلّ ذلك الدخان يلوّث الهواء أيْ الجوّ، وهذا هو معنى التلوّث اللّعين لا كلمة المنيّ الّتي وجدتها في القاموس. وأخبرني بأنّ علينا ألاّ نستنشق الهواء الملوّث ولكنّنا إن لم نستنشق الهواء فسنموت أيضًا، ليس لدينا حلٌّ آخر سوى استنشاق هذه الزبالة. وحينها قلتُ للجدِّ إنّني استنتجتُ أنّ أبي يسجّل علينا تفوّقًا صغيرًا هناك حيث هو مسجون، ففي ذلك المكان ليس هناك كثيرٌ من المصانع والسّيّارات، لأنّ عائلات المعتقلين السّياسيّين فقيرةٌ وليس

لديها سيّارات. وقد قال الجدّ، نعم إنّني محقّة كثيرًا في كلامي، وإنّ علينا أن نجد دَوْمًا ما في الأشياء من جوانب جيّدة. وحينها قبّلتهُ قُبْلةً كبيرةً جدًّا، إلى أن وخزتني لِحْيَتُه وخزًا أكبر من المرّات السابقة. وذهبتُ راكضةً أبحث عن روسيتا، وبما أنّ أمّها الّتي تُدعى أسونسيون، تمامًا مثل عاصمة البراغواي، كانت في المنزل، فقد انتظرنا نحن الاثنتان بفارغ الصّبر حتّى ذهبت في الأخير لتسقي النّباتات، وعندها قلتُ، وأنا أشعر بأهمّيّة ما أقول، «ستبلّغين ابنةَ عمّك ساندرا أنّني قلتُ عنها إنّها حمارة أكثر منّي ومنك، لأنّني الآن اكتشفتُ بالفعل كلّ شيء، ونحن لم نأتِ من المنيّ وإنّما من الجوّ».

مناف
(رنين صوت مسرح إبيداوروس)

إذا ضربَ أحدهم ضربةً في مسرح إبيداوروس

يُسمع صوت الضّربة في الأعلى، بين الأشجار،

في الهواء.

روبرتو فيرنانديث ريتامار

كنّا في مسرح إبيداوروس خمسة وعشرين عامًا بعد روبرتو

واستمعنا أيضًا من المدرّجات العليا

إلى صوتِ عودِ ثقاب

كانت تُشعله هنالك في الأسفل تلك المرشدة البدينة ذاتها

تلك الّتي كانت، بين معْبدٍ ومحرابٍ،

بين القليل من سقراط والقليل من مدينة ثيرموبيلاي،

قد قصّت كيف كان نيارشوس يفكّر في

الطّريقة الّتي سيسدّد بها على الأكثر تسعة آلاف دراخمات،

لنقل ثلاثمائة دولار من الضّرائب في السّنة،

وبتفخيمها الرّقيق كانت قد أخبرتنا،

أمام ذهول خمسة أرجنتينيّين

خبراء في الجمل الشّهيرة للفكاهيّ تاتو بوريس،

بالنّصر القادم والأكيد للاشتراكيّ جورج باباندريو.

كنّا إذن في مسرح إبيداوروس نستنشق الهواء الشّفّاف والجافّ

نتأمّل الخضرة الوفيرة للأشجار القديمة

الّتي أعطت وتعطي ظهرها للمسرح

ووجهها للوهد الشّاحب،

لم يكن الهواء والعشب على الأرجح غريبَيْن كثيرًا

عمّا يتأمّله الشّابّ ويستنشقه

حين كان يقوم بحساباته المتعلّقة بالأبديّة والألغاز،

وأنا أيضًا نزلت إلى المركز السّحريّ للأركسترا

كي يلتقط لي النّورُ الصّورةَ المطلوبةَ

في الموضع المحبّب والمتين للذّاكرة

ومن هناك أحببت أن أجرّب رنين الصّوت الخارق للعادة

وفكّرت «مرحبًا ليبر، مرحبًا هكتور، مرحبًا راؤول، مرحبًا خايمي»

ببطءٍ شديدٍ كَمَنْ يُشعل عود ثقاب أو يجعّد ورقة يانصيب،

وهكذا استطعت تأكيد أنّ الصّوت كان مناسبًا

بما أنّ طلقاتي الصّامتة في الهواء لم تُسمع في المدرّجات وحدها

وإنّما أعلى من ذلك بكثيرٍ في الهواء، مع طائرٍ وحيد

واجتازت شبه جزيرة بيلوبونيز والبحر الأيّونيّ والبحر التّيرانيّ

والبحر الأبيض المتوسّط والمحيط الأطلسيّ والحنين

وتسلّلت أخيرًا من بين القضبان

مثل نسمةِ هواءٍ شفّافةٍ وجافّة.

خلف الجدران
(محض احتمال)

حضر المحامي بالأمس، وأفهمني أنّ الأمور تتحسّن وأنّ الأمر ليس مستبعدًا. وقد يكون مجرّد احتمال. فاته أنني على علم بذلك. ولكن عليّ الاعتراف بأنه جعلني أشعر بتأثّرٍ كبيرٍ، إلى درجةٍ اعتقدت معها أن دقّات قلبي تسارعت. وهذا لا يعني أنّني فقدت الأمل ذات مرّة. إذ كنتُ أعرف دَوْمًا أنّني سألتقي بكم من جديد يوما مّا. ولكنّ التكّهن بأنّه لا بدّ من انقضاء بضع سنواتٍ لحدوث ذلك شيءٌ، وأن تندرج تلك الفكرة فجأةً في فَلَك الممكن شيءٌ آخر مختلف تمامًا. لا أريد أن أعيش في أوهام. ومع ذلك، هذا ما أفعل، لا أستطيع تجنّب الأمر. وهذا مفهوم، أليس كذلك؟ أوّل أمس فقط، كنت أسلّم بأنّ بقائي هنا لعدّة سنواتٍ أمر محتملٌ جدًّا، حتّى إنّني هيّأتُ نفسي ذهنيًّا لدفع تلك الضّريبة، «أن أقْبَل السّوط» كما كان يقول ذلك القسّ من مدينة سالتا، بلهجته الشّيطانيّة، أتتذكّرين؟ والآن في المقابل، يظهر احتمالٌ يُرجّح أنّ الأمر قد يتعلّق بمدّة سنة أو أقل. إنّه لمن المثير أن يعسر عليّ تحمّل هذه المدّة

أكثر من المدّة الأخرى، تلك الطّويلة والأبديّة تقريبًا، الّتي كنتُ قد استسلمت لها بشكل مّا. إنّنا معقّدون، أليس كذلك؟ وأنتِ وأبي، ما رأيكما في هذا؟ في الوقت الحاضر لا تقولا شيئًا للطّفلة، حتّى لا تبدأ بعقد الآمال وينتهي كلّ شيء في الأخير بإحباط، وهو ما قد يكون صادمًا لها في عمرها. مجرّد تخيّل أنّني قد أراها قريبًا، لنقل في فترةٍ يمكن إدراكها، يجعلني أشعر بقشعريرة. أمّا أن أراكِ أنتِ وأرى أبي، فشيءٌ مختلف. تصوّري أنّني سأتمعّن فيكما وسأعانقكما وأتحدّث معكما مطوّلاً. يالها من حفلةٍ يا إلهي. ولكن ما يتعلّق ببياتريث يجعلني أقشعرّ. فخمس سنواتٍ دون رؤية ابن، لا سيّما إذا كان طفلاً، تُضاهي الأبديّة. خمس سنواتٍ دون رؤية شخصٍ بالغ، مهما كان عزيزًا، هي ببساطةٍ خمس سنوات وهي شيء فظيعٌ أيضًا. ستجدونني مثلاً دون أيّ زيادةٍ في البطن وستجدونني بشعرٍ أقلّ، لا بسبب حلاقة الشعر المحلّية وإنّما بسبب نقصان واضح في الشّعر لا علاقة له بوضعي الخاصّ. وستجدون أيضًا شواغر في مواضع القواطع والأضراس. ماذا أيضًا؟ حسنًا، بعض النَّمَش الجديد وبعض الشّامات الجديدة وندبة مّا جديدة. كما ترين، أعرف نفسي عن ظهر قلب. ما يحدث هو أنّ الجسم نفسه يتحوّل لا محالة في ظرفٍ كالّذي أعيشه، تقريبًا مثل راهبٍ، إلى مفتاح رموز. وليس مردّ ذلك إلى نرجسية مّا، وإنّما لأنّه ليس في متناول اليد خلال ساعاتٍ وساعاتٍ أيّ علامة على الحياة. أمّا أنا فأعرف أنّه صار لأبي مزيد من شعرات الشّيب. ولكن ليس المزيد من التّجاعيد،

لأنّ ذلك العجوز المحتال ولد مجعّدًا. أتذكّر أنّني حين كنتُ طفلاً، لطالما أثارني ما كان لديه من ثنياتٍ وخطوطٍ بجانب عينيه وفي الجبين، وغيرها. ويبدو أنّ ذلك لم يمنعه من أن يكون جذّابا لدى النّساء. أظنّ أنّه كان يستثمر أوراقه الرّابحة حتّى عندما كانت أمّي على قيد الحياة. وأنتِ؟ كيف سأجدك؟ ستكونين أنضجَ، طبعًا، ولهذا ستكونين أجملَ. أحيانًا تترك الكروب السّابقة تكشيرة غمّ، على الأقلّ هكذا كان يكتب روائيّو بدايات القرن. أمّا روائيّو اليوم فما عادوا يستعملون عبارات متكلّفة إلى هذه الدّرجة، ولكنّ التّكشيرات في المقابل لم تختفِ، ربّما لأنّ الغمّ مازال موجودًا بكثرة. وعلى أيّ حالٍ فأنا أعرف أن ليست لديكِ تلك التّكشيرات، وإن كانت لديكِ فلا مشكلة، أنا سأعالجك منها. ولكن نعم، من المرجّح أنّك أصبحت أكثر جدّيّة، وما عُدتِ تضحكين بصخبٍ، ما عُدتِ في غاية الرومانسيّة تعشقين الربيع كما كنتِ من قبل. ومن المؤكّد أيضًا أنّك احتفظت بقدرتك على الفرح وميلك إلى الإيجابيّة وأنّك أثْرَيْتِ ذلك. إذا حدث بالفعل ما أوْمَأ إليّ به المحامي، فليس لديّ أدنى فكرةٍ عن كيفيّة الانضمام إليكم وعمّا إذا كان ذلك ممكنًا. أريد أن أقول: إنّني في هذه الحالة أجهل ما إذا كان بإمكاني الخروج من البلد. ولكنّني أعرف تمام المعرفة أنّ كلّ شيء سيكون معقّدًا في هذا الجانب، غير أنّه سيكون دَوْمًا أفضل من هذا الفراق، الّذي لا أعرف في هذه اللّحظة إن كان جائرًا أمْ سخيفًا أمْ مستحقًّا. سأفضّل السّفر بطبيعة الحال، فأيّ عائلةٍ بقيَتْ لي هنا؟ بعد موت إميليو، لم

تبقَ إلاّ العمّة آنا، ولكنّني لا أعتقد أنّه ستكون لديّ رغبةٌ شديدةٌ في رؤيتها، فهي، على كلّ حالٍ، لم تحاول زيارتي مطلقًا. يقال إنّها أكثر سقمًا ممّا عهدناها، ربّما بسبب هذا لم تزرني. أمّا بالنّسبة إلى أبناء العمّة الآخرين، فلا يمكنهم رؤيتي لأسبابٍ واضحةٍ، وحتّى إن خرجت فلا أعتقد أنّه سيكون بإمكاني رؤيتهم. والحصول على عملٍ هنا سيكون أمرًا صعبًا جدًّا، لعدّة أسباب، ولذلك فأنا أصرّ على أنّ أفضل حلٍّ لي هو السّفر، ولكن من السّابق لأوانه أن أتكهّن بأيّ شيءٍ حول الموضوع، بناءً على التّلميحات المقتضبة الّتي أشار بها المحامي في كلامه وحسبُ. وفي انتظار ذلك، أنا أفكّر. أفكّر في أشياء محدّدة. وأمام هذه الإمكانيّة الجديدة، توقّفتُ فجأةً عن اللّجوء إلى الاستيهامات، وعن التّشبّث بالذّكريات، وعن إعادة عيش لحظاتٍ عشناها في المنتجع أو في البيت، وعن التعرّف على أشكال ووجوه في بقع رطوبة الجدران. الآن أركّز انتباهي في أمورٍ محدّدة: العمل والدراسة والحياة العائليّة ومشاريع متنوّعة. لن يكون سيّئًا أن أتمكّن من إكمال الدّراسة. لماذا لا تذهبين لطلب معلومات هناك في الجامعة عن المواد الّتي سيكون بإمكاني تثبيت النّجاح فيها، والمواد الّتي سيكون عليّ اجتياز الامتحان فيها من جديد؟ هذا على سبيل الاحتياط. أتفهمينني؟ وماذا عن العمل؟ أعرف أنّ لديكِ وظيفة جيّدة، ولكنّني أريدُ أن أعمل في أقرب وقتٍ ممكن. ولا تفكّري في أنّ للأمر علاقة بالذّكوريّة. ببساطةٍ عليك أن تفهمي أنّني عملتُ ودرستُ في الوقت ذاته طيلة حياتي،

ما يعني أنّني متعوّد على ذلك، بالإضافة إلى أنّني أحبّه. لماذا لا تبدآن أنتِ وأبي في البحث عن إمكانية مّا من هذا النّوع؟ فأنتما تعرفان تمام المعرفة ما أُحسن القيام به، ولكن في هذه المرحلة لن أطمح إلى أن يستجيب العمل لمعارفي أو لميولي تمامًا. يمكنني القيام بأيّ عملٍ، أتفهمين؟ أيّ عمل. أنا معافى جسديًّا، ومن المؤكّد أنّني سأستعيد هناك كلّ قواي مع الحذر دَوْمًا من عودة البطن الزّائد من جديد. يسيلُ لُعابي لمجرّد تخيّل أنّني يمكن أن أسترجع حياة طبيعيّة، حياة معكِ ومع بياتريث ومع أبي. لديّ شخص يشاركني المكان مجدّدا، منذ خمسة عشر يومًا، لنقل إنّه زميل غرفة، إنّه شخصٌ طيّبٌ، وعلاقتنا رائعة. ومع ذلك، فأنا لا أجرؤ على الحديث معه حول الآفاق الجديدة الّتي أحلم بها، ببساطةٍ لأنّه لا يملكها، الآن على الأقلّ، وإذا أطلقت العنان لغبطتي، مع أنّني دائم الشكّ في معاناتي من مرض التّفاؤل الحادّ، فأخاف أن أسبّب له، بشكلٍ غير مباشرٍ، نوعًا من اليأس ومن التّعاسة. جميعنا كرماء، على الأقلّ تعلّمنا هنا أن نكون كذلك، خصوصًا حين تظلّ وراء ظهورنا المرحلة الأولى الّتي عادة ما تكون أنانيّةً وانطوائيّةً ومنعزلةً وحتّى وسواسيّةً، ولكن للكرم أيضًا حدود ونقاط لا ينبغي تجاوزها. أتذكّر جيّدًا أنّه قبل أكثر من عامٍ بقليل، حين خرج زميلي السّابق (خـ...) شعرتُ أنا أيضًا بأحاسيس متضاربة. كيف لا أشعرُ بالسّعادة أمام حقيقة أنّه هو بالتّحديد، وهو الشّخص الاستثنائيّ، سيكون بإمكانه الانضمام إلى زوجته وأمّه والعمل من جديد والشّعور مرّةً أخرى

بأنّه كائنٌ حيّ بشكلٍ كامل. ومع ذلك فإنّ غيابه أفقدني الحماس، أوّلاً لأنّ (خـ...) شخصٌ طيّبٌ ويمكن أن تشاركه الأربع والعشرين ساعة، وثانيًا لأنّ ذهابه كشف لي ما في بقائي سجينًا من قسوةٍ وحزن. إنّه أمرٌ مثيرٌ للفضول، ولكنّ الزمالة الجيّدة لا تتمثّل دَوْمًا في التّحدّث والاستماع، أو في تبادل الحديث عن الحياة والموت والحبّ والكره، أو أن يقصّ أحدنا على الآخر روايات كنّا قد قرأناها منذ زمنٍ بعيدٍ ولا توجد بين أيدينا الآن، وأن نتناقش حول الفلسفة وهوامشها، ونصل إلى استنتاجاتٍ من تجاربَ سابقةٍ، ونقدّم تحليلات ونحلّل أنفسنا أيديولوجيًّا، ونتبادل الحديث عن طفولة كلّ واحدٍ منّا، أو أن نلعب الشّطرنج حين يكون ذلك ممكنًا. الزمالة الجيّدة تتمثّل، أغلب الأحيان، في الصّمت، في احترام نزوع الآخر نحو الاقتضاب، في فهم أنّ ذلك هو ما يحتاجه الآخر في ذلك اليوم المحدّد والمظلم، وأن نحيطه إذّاك بصمتنا، أو أن نتركه يحيطنا هو بصمته، ولكن، وكلمة لكن هذه أساسيّة، دون أن يكون ذلك موضوع طلبٍ مسبقٍ أو إلزامٍ، وإنّما أن يفهمه الآخر من تلقاء نفسه، في تضامن عفويّ. أحيانًا يمكن لعلاقةِ حبسٍ أو عزلةٍ جيّدةٍ أن تتحوّل إلى صداقةٍ دائمة، تُبنى على لحظات الصّمت المناسبة، وهي صداقة أفضل من تلك الّتي تبنى على الاعترافات المفتعلة. هناك أشخاصٌ يعتبرون أنفسهم مُجبرين على الحديث عن ظروفٍ استثنائيّة مرّوا بها في حياتهم إلى درجة أنّهم يعمدون أحيانًا إلى اختلاقها. ولا يتعلّق الأمر دَوْمًا بالمصابين بهوسِ الكَذِب أو بمَنْ

يكذبون طواعيةً، وهؤلاء موجدون أيضًا، فأحيانًا يختلق أحدهم فصلاً إكرامًا أو مجاملةً لزميلٍ، معتقدًا أنّه يسلّيه بذلك، أو يُنسيه أنّه موضوع إهمال، أو يخرجه من بئرٍ من الغمّ، أو يهيّج فيه بذلك الحنينَ ويُشعل الذّاكرة، حتّى إنّه يُعْديه بفيروس التّذكر التّخييليّ. الإنسان كائن غريبٌ حين يكون معاقبًا بعزلته الخاصّة أو حين تتمثّل العقوبة في مقارنة تلك العزلة يوميّا بالعزلات الخاصّة بشخصٍ أو شخصَين أو ثلاثة آخرين، لم يختر أيٌّ منهم مجاورةَ الآخر. أنا لا أؤمن، حتّى بعد هذه السّنوات الأخيرة والقاسية جدًّا بما كان يقوله ذلك الوجوديّ الصّامت: «الآخرون هم الجحيم»، ولكن في المقابل يمكنني الإقرار بأنّ الآخرين، في مناسباتٍ كثيرةٍ، لا يمثّلون الجنّة.

جرحى ومكدومون
(النائم)

في السّاعات الأولى من المساء، كان الصّمت يعمُّ الخارج والدّاخل. كانت غراثييلا تعرفُ ما ستجد إذا قرّرت النّظر من شمسيّة النافذة. لن يكون طريق الزّهور وحده قاحلاً، وإنّما كلّ الجوار أيضًا: القطع الأرضيّة وشوارع التّجمّع السّكني الدّاخليّة والنّوافذ والشّرفات الصّغيرة للبناية «ب».

السّكّان المتجوّلون الوحيدون في هذه السّاعة هم نوعٌ من نحلٍ غريبٍ يقترب من شمسيّات النّوافذ وهو يصدر طَنينه، لكن دون أن يتمكّن من الدّخول. من بعيدٍ، من بعيدٍ جدًّا، تُسمع من حينٍ إلى آخر، كما في موجاتٍ غير مدركَةٍ تقريبًا، الصّيْحات والضّحكات القادمةُ من مدرسةٍ مختلطةٍ توجد على بعد اثنَي عشر أو خمسة عشر شارعًا.

لماذا ستنهضُ إذن لتنظر من خلال شمسيّة النّافذة إذا كنت تعرف مسبقًا ما ستجده؟ في ذلك الخارج رتابةٌ، أمّا في الدّاخل، فوق السّرير مثلاً، فهناك جديد.

تطفئ غراثييلا السّيجارة بضغطها في منفضة سجائر موضوعةٍ فوق منضدة السّرير. تستوي في جلستها نصف استواءٍ، وتستند إلى مرفقها. تمعن النّظر في عُريها الخاصّ وتشعر بقشعريرةٍ تسري في جسدها، لكنّها لا تقوم بأيّ حركةٍ لترفع الملاءة المتكوّمة عند أسفل السّرير.

مازالت تنظر صَوْبَ شمسيّة النافذة، لكن دون أن يثير انتباهَها أيّ شيء. من المرجّح أنّ ذلك مجرّد طريقة لتدير ظهرها لباقي السّرير، ولكنّه ليس رفضًا، بل لمتعةٍ. وعندها، قبل أن تستدير وقبل أن تنظر، تشرع في تحريك يدٍ إلى أن تضعها فوق جلد النّائم.

يرتجف جلد النّائم، تقريبًا على طريقة الخيول حين تحاول إبعاد الذّباب. لا ترى اليد أنّها معنيّة فتبقى هناك، عنيدةً، حتّى يعود ذلك الجلد إلى هدوئه.

بعد ذلك تحرّك غراثييلا جسدها المستوي في جلسته تقريبًا لتجعله في مواجهة النّائم تمامًا، ودون أن تترك أرخبيل النَّمش الّذي يغطّي يدها، تنظر إليه من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى، متوقّفةً عند كلّ النّقاط والزّوايا والأراضي المختصرة الّتي أخذت خلال السّاعات الأخيرة تثير اهتمامها وتُفقدها بوصَلَتها.

تطيلُ المقام مثلاً عند الكتف المتينة الّتي كانت قبل ساعاتٍ تداعبها بأذنها وخدّها، وعند الصّدر بشعره القليل، وعند السرّة الغريبة، تبدو مثل سرّة طفلٍ فتنظر إليها بعينٍ مندهشة، تتحرّك بشكلٍ غير مباشرٍ مستجيبةً لإيقاع التّنفّس. وعند النُّدبة العميقة في

الورك، تلك النّدبة الّتي تسبّبوا له فيها بأحد المخابئ، ولا يأتي على ذكرها مطلقًا، وعند الشّعر الفوضويّ المحمرّ في المثلّث السّفليّ، وعند عضوه السّحريّ الّذي يستريح الآن بعد الجهد الّذي بذلَه قبل قليل، وعند الخصيتَيْن غير المتوازِنتَيْن، لأنّ اليسرى لم تتعافَ بعدُ وتبدو كأنّها مكدومةٌ ومصابةٌ بَعْدَ كلّ ما حصل له في ذلك المخبإ الّذي لا وَسْمَ له، وعند السّاقَيْن المشدودتَيْن بشكلٍ جيّدٍ مثل ساقَيْ عدّاءِ الثّمانمائة متر حواجز، ذاك العدّاء الّذي كان يمثّله منذ زمنٍ، وعند القدمَين الخشنتَين الكبيرتَين بأصابع طويلةٍ وملتويةٍ قليلاً وظفر على وشك الدّخول في اللّحم.

تسحبُ غراثييلا راحة يدها من تقاسيم تلك الخريطة وتقرّب فمها من الفم الآخر. في تلك اللّحظة تحديدًا، ترتسم ابتسامةٌ على فم ذاك الحالم تقريبا، فتقرّر هي حينها الابتعاد لتراها بشكلٍ أفضل ولتتخيّلها بشكل أمثل، حتّى تتحوّل الابتسامة إلى تنهيدة أو نفخةٍ قويّةٍ أو لهاثٍ وتأخذ في التّلاشي إلى أن تصبح مرّةً أخرى مجرّد فمٍ شبه مفتوح. فتُبعد فمها، بشفتَيْها المشدودتَيْن.

تستلقي الآن على ظهرها، وتضع يديها تحت رقبتها وتنظر في اتّجاه السّماء الصّقيلة. من الخارج لا يزال الصّمت يخترق الحواجز ويتواصل عناد النّحل ولكن لم تعد تصلها أصوات الضّحكات والصّيحات القادمة من المدرسة المختلطة.

ليست تلك مدرسة بياتريث وهي لا تتّبع توقيتًا مشابهًا لمدرسة بياتريث، ولكنّ غراثييلا ترفع ذراعًا لتتمكّن من رؤية

ما بَلغهُ الوقت في السّاعة الرّقميّة الّتي أهداها إيّاها حماها. وتعود بعدها إلى وضع يدها تحت رقبتها، وبصوتٍ ناعمٍ، كما لو أنّها تريد ألاّ يستيقظ النّائم مفزوعًا، قالت:

- رولاندو.

لا يكاد النّائم يتحرّك ، يمدّ رجلاً ببطءٍ ودون أن يفتح عينيَه يضع يدًا فوق بطن المرأة المستيقظة الأملس.

- رولاندو. هيّا انهض. خلال ساعةٍ ستعود بياتريث.

الآخر
(ظلال وقليل من الضوء)

كانَ أسوأ ما في الأمر هو ترك الوقت يمرّ دون الوصول إلى اتّفاق حول المستقبل. إذ لم يكن مهمًّا عدد السّاعات الّتي قضّياها يتكلّمان حول الموضوع ولا عدد المرّات الّتي تشجّعا فيها لمناقشته. كانت كلّ الحجج والحجج المضادّة تنتهي بالسّقوط حين يعيد هو، رولاندو أسويرو، تكرار الحركة الّتي أصبحت كلاسيكيّة، حركة أوّل أيّام الخلق، أيْ حركة إمساك وجهها بكلتا يديه وتقبيلها باقتناعٍ يصبح مع كلّ تجربةٍ جديدةٍ أنسب وأنضج، تاركًا في كلّ مرّة رواسب أكثر ودّا. وحين كان يعرّيها بالحماسة نفسها والمتعة ذاتها كما في المرّة الأولى، وكانت هي تتركه يداعبها وتداعبه بسعادةٍ جسديّةٍ تُحوّلها بسرعةٍ عند إضاءتها من امرأةٍ مثارةٍ إلى امرأةٍ مثيرةٍ، تنتهي إذّاك كل الإهانات وحالات تأنيب الضّمير والتّموضع باعتباطيّةٍ في مكان الغائب. لم يناما قطُّ معًا ليلاً، لأنّ غراثييلا لم تكن ترغب في أن تعلم بياتريث بالأمر قبل أن يعلم سانتياغو به. لم تكن غراثييلا ترغب أيضًا في أن تحوّل الابنة، بمجرّد نظرةِ ذهولٍ

على وجهها أو بسمعها اليقظ عن غير قصدٍ، ذلك الفعلَ الشفّافَ إلى شيء منفرٍ، أو تحوّل تلك الحاجة المشتركة إلى شيءٍ غامضٍ يجبُ فكّ شفراته. لذلك كانا يمارسان الحبّ عصرًا، وكان هو موافقًا، فيما تغطّ المدينة في قيلولتها، ولا يُسمع غيرُ طنين النَّحل الّذي يطوفُ في شارع الزّهور أو بجانب شمسيّة النّافذة.

قالت له غراثييلا إنّ تلك السّاعة الإجبارية أنهت بداخلها حكمًا مسبقًا قديمًا، راسخًا في عاداتها بشكلٍ أكبر ممّا كانت تفكّر فيه وتعترف به. فمع سانتياغو لم تمارس الحبّ عصرًا قطُّ، لأنّها كانت تحبّ الظّلام الدّامس لمراسم تبادل الحبّ، ولم ترد أن يشغلَها أيّ شيءٍ عن اللّمس، لأنّ اللّمس بالنّسبة إليها شعور أساسيّ في لحظة التّوحّد تلك. أمّا سانتياغو الّذي لم يتّفق مع وضعيّة التّفوّق الممنوحة لِلَّمْس والتّعصّب له، فقد كان مع ذلك يستسلمُ دَوْمًا على مضضٍ لهذا المطلب الّذي ينسبهُ إلى طهرانيّةٍ مفهومةٍ بشكلٍ سيّئ، وينسبه خصوصًا إلى دراستها في مدرسةٍ للرّاهبات. «لا أحد يربح في مواجهة السّماء»، يقول سانتياغو لتبرير تنازلٍ مفروضٍ عليه. ولكن غراثييلا كانت دَوْمًا متأكّدةً تمام التّأكّد من أنّه لا ذَنْبَ للرّاهبات في ذلك وأنّ السّبب الأخير على كلّ حالٍ يكمنُ فيها، في حياءٍ غامضٍ لم تكن تفتخر به. من جانبه، كان رولاندو يمارسُ دَوْرَ صاحب الفكر الرّحب والمتفهّم ولكنّه في الحقيقة لم يحبَّ ذلك الجَرْدَ المفصّل المملّ للياليه العارية. ولينتقم قليلاً من ذلك الشّعور بالانزعاج، كان يسألها عن أحوالها قبل سانتياغو، ولم تكن

تشعرُ بالغضب، وإنّما تخجل من الاعتراف له بأنّه لم يكن هناك أيّ شيءٍ قَبْلَ سانتياغو. ومرّةً أخرى تُبحر في متاهات الظّلال وقليلٍ من الضّوء، «وها هو الدّليل أمام عينيك الآن، فممارسة الحبّ كما نمارسه نحن في ساعة القيلولة، ورغم أنّ شمسيّات النّوافذ مغلقة، تجعل العتمة مضيئةً إلى درجة أنّ الرّؤية تكون واضحة». وكانت رغبتها في الجسد الآخر قويّةً جدًّا، والمتعة في الانصهار معه أوّليّةً ملحّةً وفي غاية الرقّة، حتّى إنّها لم تلحّ في أيّ لحظةٍ على حبّها للعتمة وقد أصبح نشازًا. ولم يقف الأمر عند انشغالها عن اللّمس، بل اكتشفت أيضًا، بالرّغم منها تقريبًا، كمْ كان قرار النّظر إلى الجسد الآخر بكلّ مناوراته وحركاته الرّتيبة واقتراحاتهِ الجديدة يُثري اللّمس، وكم كان يضيفُ إلى اللّمس إحساسًا بأنّها موضوع تأمُّلٍ بكلّ وديَانها وطَحالبها وتلالها. وبعد المتعة والاسترخاء، حين يشعلُ رولاندو أسويرو سيجارةً، وبعدها يشعلُ واحدةً أخرى ويمدّها إليها، عندها فقط أو بالتّحديد بعد ذلك بقليلٍ حين تعود هي من الحمّام وتتكوّر بجسدها قبالته، يعود موضوع الغائب لينتصبَ بينهما، بين الجسدَيْن المكتفِيَيْن المرتخيَيْن.

كانت تتكلّم وتتكلّم، وتفكّر وتعيدُ التّفكير في الوضع، ووصل بها الأمر إلى أن تقول إنّها لم تشعر أبدًا بجسدها كما تشعر به الآن، ولم تستمتع كما تفعل الآن، بعمليّةٍ لا تتيح اختيارات كثيرة على كلّ حال، وليس من النّاحية الجسديّة وحسب، وإنّما من الجانب الرّوحيّ أيضًا. وهنا لم يكن رولاندو متّفقًا تمامًا، ولكنّه

يكتفي بالابتسام. ومع هذا، فإنّ ذلك الامتلاء لم يدفعها إلى إجراء مقارناتٍ، لأنّها لم ترغب في الإساءة إلى ذكرى سانتياغو، ولا حتّى إلى ذكرى جسده، وهنا يتوقّف رولاندو عن الابتسام. هي لم تُرِدْ بأيِّ حالٍ من الأحوال أن تعتم صورته، فبالإضافة إلى أنّه ليس من حقّها فعل ذلك، فهي لم تَنْسَ أنّها ربّما كانت هي وسانتياغو وهما يمارسان الحبّ أصغر سنًّا وأكثر لهفةً وحيويّةً، وهنا يقطّب رولاندو جبينَه، ولكنّهما كانا أيضًا أقلّ خبرة. وبرغم كلّ شيءٍ، فإنّ ما عانياه بشكلٍ شخصيٍّ وما عاناه أقاربهم في كلّ تلك السّنوات حوّلهم إلى كائناتٍ أكثر قسوةً وأكثر حنانًا في آنٍ معا، حوّلهم إلى رجال ونساء أشدّ واقعيّة وأكبر أوهاما في ذات الآن، ومحدّدين أكثر، ومع ذلك أكثر تكيّفًا مع الخيال، وكلّ هذا، كلّ هذا الانهيار الّذي عرفته الطّقوس والقواعد، كلّ هذا التّناقض بين الماضي والحاضر، وبين الحاضر والمستقبل، كلّ هذه الموضوعيّة المشعّة، المستغنية عن الأبراج، وهنا يبتسم رولاندو ويتنهّد، وكل هذا الحنين، سيُصبح الميزة الوحيدة لقصّةٍ حزينةٍ: أن نصير أقلّ كذبًا في تعاملاتنا، وأن نصير أقلّ ظلمًا في علاقتنا المشتركة، وأن نصبح أشخاصًا أكثر إنسانيّةً ومن طبقةٍ ثالثة، لأنّ أصحاب الطّبقة الأولى والثّانية قد اندثروا، أو أنّهم لم يوجدوا أصلاً أو ربّما كانوا ينتمون إلى طبقاتٍ من الخيال والتّصنّع.

ولّما مارسا الحبّ من جديدٍ، عادت إلى خطبتها الّتي تعقُبُ اتّقادَ الحواس، فأطفأ رولاندو السّيجارة وأخذ من يدها سيجارتها

وأطفأها، وأمسك بخصلة شعرٍ فوق وجهها دون عنفٍ وأضجعها بنعومةٍ وقفز دون عجلةٍ فوق ذلك الجسد المندهش والمرتعش، وبعد أن قبّلها قرب الأذن، قال ببساطةٍ، «غرائييلا لا تبدئي من جديدٍ، أنا وأنت نعرف القصّة كاملة، لمن تحكينها إذن؟ هو زوجك وأنا صديقه، ثمّ إنّه شخصٌ طيّبٌ، ولكن ليس بإمكاننا أن نجعل من ضميرينا كرة «بينغ بونغ»، هل تفهمين، علينا أن نقرّر، وفي الظّاهر يبدو أنّنا حَسمْنا الأمر. لقد وجدنا شيئًا يهمّنا كثيرًا، ولهذا سنستمرُّ معًا، مع كلّ المشاكل وحالات الارتباك الّتي يعنيها ذلك. ستكون الفصول القادمة قاسيةً، ولكنّنا سنستمرّ معًا. أنتِ تعرفين ذلك وأنا أيضًا. ولذا فلنترك موضوع سانتياغو إلى اليوم الذي يكون فيه في ظروفٍ تسمح له بأن يعرف، وأن يتأقلم مع الوضع الجديد. أنتِ والسيّد رفائيل قرّرتما ألاّ تقولا له شيئًا إلى أن يخرج من السّجن. وأنا لست متأكدًا تمامًا من أنّ هذا هو الخيار الأفضل، ولا تنسي أنّني كنتُ في السّجن، وأعتقد أنّني أعرف كيف تُقيّم هذه الأشياء عند الإقامة هناك، ولكنّني مع ذلك أقبل قراركما وأقبل أيضًا بمسؤوليّتي في التّستّر على الموضوع. إذا كنتِ رغم كلّ شيء، ما تزالين تحترمين سانتياغو، وإذا كنتُ أنا أيضًا ما أزال أحترمه، فإنّه لا يمكننا مواصلة الحديث عنه بهوسٍ كلّما مارسنا الحبّ. ستظلّين تفكّرين فيه بطبيعة الحال، وسأواصل أنا التّفكير أيضا، كلّ واحدٍ لحسابه الخاصّ ومجازفًا على طريقته». توقّف قليلاً وعاد إلى تقبيلها، وحين أوشك على بلوغ نشوة الجماع، أضاف ما أمكنه

قوله: «مجرّد ألاّ نتحدّث في الموضوع بكلماتٍ تتكرّر وتَبْلَى وتبلينا معها، وهذا الصّمت البسيط، سيساعدنا مع الوقت، على أن يحبّ أحدنا الآخر كما نحن في الحقيقة، لا كما يفرض علينا الالتزام الهشّ أن نكون».

مناف
(وداع وترحيب)

هولويد حيٌّ من أحياء مدينة كولونيا، في الجمهوريّة الفدراليّة الألمانيّة. من الأفضل أن نسميها كولن، حتّى لا نخلط بينها وبين مدينة كولونيا ديل ساكرامينتو في الأوروغواي. استقرّت في حيّ هولويد، بشكلٍ مؤقّت بلغ حاليًّا سبع سنوات، أسرة أوروغوايانيّة، السيّدة أولغا وأبناؤها الثّلاثة الّذين كانوا سنة 1974 مجرّد أطفالٍ والآن صاروا مراهقين. أسرةٌ غير مكتملةٍ، فالأب، دافيد كامبورا، سجين في الأوروغواي منذ سنة 1971. وقد كان دور المدرسة الّتي دَرَسَ فيها الأبناء الثلاثة: أرييل وسيلفيا وبابلو حاسمًا في استعادة حرّيّته سنة 1980.

حسب أسرة كامبورا فإنّ «حيّ هولويد حيّ عمّاليّ، هو قطعةٌ من الشّعب الألمانيّ، إذ يوجد فيه كلّ شيء: أناسٌ يعملون بكدٍّ وآخرون مهمّشون اجتماعيًّا، ساحاتٌ رياضيّةٌ، مشاريعُ صغيرةٌ، نساءٌ مسنّاتٌ لطيفاتٌ وأخرياتٌ فضوليّات، كنائسُ عديدة، بَنْكَان، مدرسةٌ نموذجيّة تقدّميّة جدًّا، أيْ أنّه في النّهاية ملتقى أناسٍ بسطاء».

حَكتْ لي أولغا، «لقد افتُتحت المدرسة، تحديدا حين بلغ الأطفالُ سنّ التَّمدرس. والآن صار يدرسُ فيها قرابة ألف ومائتَيْ تلميذ. شارك في النّشاط الّذي نظّم من أجل حرّيّة دافيد آباءٌ ومعلّمون وتلاميذ ومديرة المدرسة وحتّى وزير التّعليم نفسه إذ صرّح بأنّ حقوق الإنسان بالنّسبة إلى تلك المدرسة أكبر من مجرّد حصّةٍ نظريّة. شُكّلت «لجنة كامبورا» وكنّا نجتمع كلّ أسبوعَيْن لنفكّر في أشياء جديدة علينا القيام بها. أحيانًا كنّا نفكّر في أنّه لم يعد هناك أيّ شيء يمكن القيام به، لكن كانت تظهر دَوْمًا فكرةٌ جديدة».

أقيمت فعاليّاتٌ عديدة من أجل الأوروغواي. وفي الفعاليّة الأولى دعت المدرسة الآباء إلى اجتماعٍ لإخبارهم بوضع دافيد والتّشاور معهم حول ما يمكن فعله. «انتظرنا حضور ثلاثين شخصًا تقريبًا» تقول أولغا، «ولكنّنا تفاجأنا بحضور 500 شخص، وعندئذٍ خطرت لنا فكرة القيام بوقفةٍ أمام السّفارة الأوروغوايانيّة. تعاقدنا مع حافلاتٍ، وقمنا بحملات لجمع التبرّعات، حتّى إنّه كان من الضّروري دفع مبلغٍ ماليٍّ مقابل تأمين الأطفال، فالمظاهرة اقتضت إخراجهم من كولن ونقلهم إلى مدينة بون. وشارك أطفالٌ في التّمويل بجزءٍ من مصروفهم الشّهري. وكان المبلغ الإجمالي هو 4.000 مارك وعدد المشاركين أكثر من 800 شخص. وهذا يعني الكثير هنا، لا سيّما إذا ما أُخذ في الحسبان أنّ الأطفال الأصغر سنًّا كان يجبُ أن يرافقهم

آباؤهم أو أن يحضروا موافقةً خطيّة. وهكذا بدأت سلسلةٌ كبيرةٌ من الفعاليّات. فأُرسلت إلى الحكومة الأوروغوايانيّة 20.000 رسالة، مع آلاف التّوقيعات الأخرى، وتحقّقت مشاركة ثلاث عشرة مدرسة من المدينة. ونُشرت مقالاتٌ في الصّحف، وأخذت قضيّة كامبورا تصير تدريجيًا قضيّةً مُتداولة، وفي الآن نفسه أخذت تتجسّد كشيءٍ حميم. أمّهات طيّبات، لم يسبق لهنّ توزيع منشوراتٍ باليد، أصبحن الآن يجمعن توقيعات في الشّارع ويشرحن للنّاس ما يحدث في الأوروغواي. وقليلاتٌ منهنّ كنّ يقلن «مادام سجينًا، فالأكيد أنّ وراء ذلك أمرا مّا»، ولكنّهنّ يشكّلن في الواقع استثناءً».

تلك المجموعة التّضامنيّة عاشت مع الأسرة كلّ الاحتمالات، سواء آمال الخروج أو الرّفض القاطع للدّكتاتوريّة. «أخيرًا، وقبل أن يعرف دافيد نفسه، علمنا بأنّ إطلاق سراحه كان وشيكًا، وتشاورت معنا مديرة المدرسة لترى ماذا بإمكاننا أن نفعل عندما يصل، إذ أنّ كثيرًا من الآباء أرادوا الذّهاب لاستقباله في المطار. كان هذا واضحًا: أولئك الّذين فعلوا أشياء كثيرة من أجل حرّيّته حُقَّ لهم أن يشاركونا سعادتنا. خرجتُ من المجموعة لأسبقهم حتّى فرانكفرت كي أهيّئ دافيد، لأنّه لأسبابٍ معروفةٍ، كان يجهل ضخامة ما قمنا به. وبعد ذلك، كان بانتظاره في مطار كولن 300 شخصٍ: أطفالٌ يحملون رسومات وورودًا وتفّاحات هدايا، وكذلك الكثير من الدّموع».

تَقرّر عندئذٍ إقامة حفلٍ كبيرٍ في المدرسة، هكذا «سيكون

بإمكان الجميع رؤية دافيد ولمسه، هو الّذي كان إنجازهم ومكسبهم ونتيجة عملهم التّضامنيّ. وبكلّ تأكيدٍ يجب قبل ذلك كلّه توفير لباسٍ لائقٍ له».

كان للحفل جانبه الخطابيّ. تكلّمت الدّكتورة فوكي، 65 سنة، من الجيل القديم للاشتراكيّة الديمقراطيّة وهي تمثّل، بشكل مّا، الضّمانة الأخلاقيّة لدافيد في ألمانيا. «في الحقيقة» تقول أولغا، «إنّها عرّابتنا الأمينة». وتكلّمت كذلك مديرة المدرسة وممثّلٌ عن الآباء وهو «عاملُ بناءٍ وواحدٌ من بين أفضل الأصدقاء الموجودين هنا»، وأحد التّلاميذ، «وقد أصبح فيما بعد سياسيًّا لامعًا»، وممثّلةٌ عن المدرّسين. وبعد ذلك، كان على دافيد أن يقدّم شكره في خمس دقائق فقط، ولكنّ كلمته كانت مصحوبةً بالتّرجمة، وقد قامت بها سيلفيا، ابنته، فامتدّت إلى ثماني دقائق. وفي الأخير تكلّم أحد نوّاب البرلمان، وهو رئيس بلديّة المدينة. وبما أنّ المجموعات المختلفة الّتي تعمل من أجل أمريكا اللاّتينيّة كانت قد دُعيت إلى الحفل فإنّ ممثّلةً عن الجبهة الدّيمقراطيّة للتّغيير في السّلفادور أخذت الكلمة أيضًا. «وبعد ذلك مباشرةً أفسح المجال لأوركسترا مكوّنة من عمّالٍ إيطاليّين. خلاصة القول، لقد كان حفلاً صاخبًا استمرّ حتّى الفجر، وحضر فيه الطّعام والشّراب والدّموع...».

وهذه هي الكلمة الّتي ألقاها دافيد كامبورا في ذلك اليوم، يوم 20 مارس من سنة 1981: «لهذه اللّيلة معنى خاصّ. بطريقةٍ رائعةٍ وغريبةٍ جئنا لِيُودّع بعضنا بعضًا ويُرحّب بعضنا ببعض أيضًا.

نحن نودّع دون حزنٍ، رجلاً كان سجينًا لمدّة تسع سنوات. سجن لأنّه رفض أن يبقى مكتوف اليدين وشعبه يعاني من الجوع والألم والظّلم. نحن نودّع دون نسيانٍ، تجربةً في غاية القسوة، طويلة نسبيًّا ولكنّها قيّمةٌ بشكلٍ كبير. على كلّ سجينٍ سياسيٍّ أن يشكر سجّانيه الّذين يؤكّدون له بأفعالهم وبما يخصّونه به شخصيًّا من تجارب، صحّة معتقداته وقيمة ما قام به من خطوات. لا يوجد وضع يكون فيه المرء أكثر ثقة في ما يفعل كذلك الوضع الّذي لا يستطيع فيه الألم المتواصل أن ينزع منه نَفَسَه وأن يهزمه. نحن نودّع وضعًا، ولكنّنا سنحتفظ منه بذاكرةٍ رحبة. اليوم أيضًا نرحّب بأبٍ في هذه المدرسة. ثلاثة أبناءٍ وزوجة أخذوا بيدي، ورغبوا في أن يُبرهنوا لي على النّبل الكامن في الكائن الحيّ. رجالُ الشّعب ونساؤه قادرون على العطاء والتّضحية. إنّه أبٌ متأثّر، ذلك الّذي يحسّ بأنّه في بيته، ذلك الّذي بإمكانه اليوم أن يقول لكم «مرحبًا» وأن يسألكم إلى أين نذهب معًا. أشعر في داخلي بأنّ هذا الحفل شيءٌ مميّزٌ، مختلفٌ كثيرًا عن غيره، شيءٌ جديدٌ ومهمّ. هو في غاية الأهمّيّة إلى درجة أنّني لست قادرًا على قول الكلمات المنتظرة الّتي عليّ أن أقولها. هو أمر بالغ الجدة، مثلما يكون دومًا دفء الناس الذين يندفعون نحو الخارج، الناس الذين شرعوا في محبة الآخرين. في هذه اللّيلة يوجد أمرٌ جلل هنا. ثمّة حاجةٌ ملحّةٌ إلى مواصلة الفعل ومواصلة القدرة على الفعل. إنّها حاجةٌ تنبتُ ممّا تمّ نَيْلُه. لأنّكم استطعتم، استطعتم أكثر ممّا استطاعه نظام ديكتاتوريّ همجيّ، وأكثر من

تحجّر السّجانين وكرههم لنا، وأكثر من التّراخي واختيار الحياة الرّغدة. أنتم استطعتم وأنا هنا دليلٌ على قدرتكم. دليلٌ، ولكن ليس قياسًا. إذ ليس هناك قياسٌ بإمكانه أن يحيط كلّ ما يصبح ممكنًا بالنّسبة إلى الأشخاص الّذين قرّروا أنّهم سيستطيعون. أجرؤ اليوم على النّطق بأصوات إخوتي السّجناء الكثيرين، وتمثيلهم على أكمل وجهٍ، لأقول: شكرًا جزيلاً لكم لأنّكم لم تتركونا وحدَنا، شكرًا جزيلاً لأنّكم أحببتمونا كثيرًا. وأجرؤ على أن أطلبَ منكم التّشبّث بتضامنكم من أجل أمريكا اللاّتينيّة، القارّة الّتي تشتري بالدّم حقّها في أن تكون حرّة. بإمكاننا أن نتكلّم اللّيلة عن السّجن وعن الموت دون أن نفقد السّعادة. لأنّ سعادتنا هي سعادة انتصار نضالي، لأنّ حفلنا هو حفل الجهد الكفاحيّ. نحن سعداء لأنّنا نتبنّى ألم الآخرين. ما منحتموني إيّاه، ليست هناك طريقةٌ مناسبةٌ لأشكركم عليه. أنا مدينٌ لكم بالهواء الحرّ الّذي أستنشقه والضّوء والشّوارع والأصوات والحلم والكتب. لقد أرجعتم إليّ أبنائي وزوجتي: مكان المودّة الخاصّ بي وحناني الدّائم. يُخجلني أن أستمرّ في الحديث إليكم، في أن أقول لكم كلمات. الأمر الوحيد الّذي يُمكنني أن أنقله لكم هو إيماني بالإنسان ومعرفتي المعتمة كسجين، لكم أنتم بالذّات أيّها النّاس الطيّبون الّذين قمتم للتّو بتحقيق المستحيل، أنتم الّذين تعرفون وتستطيعون. الحفل لكم أنتم، اللّهو لكم أنتم. وأنا من يصفّق لكم ويحضنكم».

بكى الألمان، وبكى الأمريكيّون اللاّتينيّون أكثر منهم. كان

الجميع متأثّرين. ولأنّ دافيد كان كتومًا جدًّا، حكت أولغا أنّ «إحدى الفتيات حضنته وربّتت على ظهره وقتًا طويلاً، شاكرةً إيّاه على كلّ ما قدّمه إليها». على كلّ حالٍ، كانت الفتاة محقّة. ودون أن يعلم بالأمر ولا حتّى أن يقصده، كان دافيد قد منح تلك المجموعة فرصةً استثنائيّةً لتُقدّم أفضل ما في دواخلها من ممكنات.

السيّد رفائيل
(بلد يسمّى ليديا)

هل أنا أجنبيّ؟ هناك أيّامٌ أكون فيها متأكّدًا من أنّني كذلك، وأخرى لا أُولي فيها الأمرَ أيّ اهتمام، وأخيرًا تكون هناك أيّامٌ أخرى، أو من الأفضل أن أقول إنّها ليالٍ، لا أقبل فيها بأيّ شكلٍ من الأشكال فكرة أنّني أجنبيّ. أيكون ذلك لأنّ صفة الأجنبيّ حالةٌ ذهنيّة؟ ربّما لو كنتُ في فنلندا أو في جزر الرّأس الأخضر أو في الفاتيكان أو في دالاس، لَشعرتُ لا محالة بكوني أجنبيًّا، ومع ذلك، من يدري؟ أفتح قوسًا هنا، لماذا نبدأ دَوْمًا بفنلندا في أيّ تعدادٍ لأماكن بعيدة أو لفضاءات قَصِيَّة أو لحالاتٍ يكون الحيّز المكانيّ فيها خاضعًا لقوانين خاصّة؟ من وضع هذا الحكم المسبق في أذهاننا يا ترى؟ الحديث عن شخصٍ يعيشُ في فنلندا بالنّسبة إلينا دَوْمًا، مشابه للقول إنّه يوجد في جحيمٍ بعيدٍ جدًّا، وإذا كنّا لم نستوعب هذين المعنيين فلأنّنا لم نَرَ طيلة حياتنا جحيمًا بعيدًا جدًّا فيه كل هذا الجليد والثّلج. على كلّ حالٍ، ماذا نعرف عن الفنلنديّين، ما عدا ملحمة «كاليفالا» وفوز الرّوائيّ سلايمبا، بالطّريقة الغريبة ذاتها

الّتي يكتب بها اسمه، بجائزة نوبل؟ وإلى حدود الألعاب الأولمبيّة عام 1952 كانت صحف المخروط الجنوبيّ تكتب هلسنسكي، بحرف السّين قبل الكاف، لكن بعد فترةٍ، بدأت تكتبها هكذا: هلسنكي. ماذا حصل في الألعاب الأولمبيّة حتّى تفقد هلسنسكي حرف السّين الثّاني يا ترى؟

ولكنّني لست في فنلندا وإنّما هنا. وهنا، هل أنا أجنبيّ؟ منذ وقتٍ قصير، قرأتُ في روايةٍ جيّدة لكاتبٍ ألمانيّ عن هذه الأيّام المتناقضة: «إنّه أمرٌ مثيرٌ للغرابة أن يتعلّم الأجانب أوّلاً الشّتائم والتّعابير المبتذلة واللّغة الرّائجة في البلد الّذي يعيشون فيه. (الفتاة الّتي انتقلت منذ أشهرٍ قليلة إلى العيش في باريس بدأت تطلق صرخات الألم بالفرنسيّة وتقول: أي! بدلاً من أو!)». وحسب هذا التّعريف فأنا لستُ أجنبيًّا إذ ما أزال أشتُم مثلما كنتُ أفعل في مسقط رأسي، وحين يؤلمني شيءٌ بشدّةٍ لا أنطقُ أيّ كلمة تأوّه، لا مستوردة ولا محلّية، ببساطةٍ لأنّني أصدر صوتًا غريبًا يمكن أن يُعرّف بأنّه قريبٌ من أصوات الحيوانات والطبيعة، ورغم أنّ القاموس يقدّم ثلاثة أمثلةٍ عن أصوات الحيوانات والطبيعة، وهي المواء والخرير وصوتُ ارتطام جسمٍ صلبٍ بالأرض، فإنّه لا علاقة لها، لحسن الحظّ، بأصوات القُباع أو الخوار أو الزّفير الّتي أُصدرها عادةً في مناسباتٍ أشعرُ خلالها بألمٍ وكأنّي أُطعن.

كيف كنتُ سأفكّر أنا شخصيًّا في نفسي؟ مثلاً، حينما أقفل الأستاذ أوردونييث باب سيّارته الفولكسفاكن المتين على إصبعي

في الشّهر الماضي وتحديدًا في اليوم التاسع منه، يوم الأربعاء، حينها صرختُ مصدرًا صوت خرير الماء أو صوت ارتطام جسمٍ صلبٍ بالأرض، مُرْفِقًا إيّاه بنظرةٍ قاطعة، لا أقصد أنّها صارمة بل أقصد أنّها تقطع. لم أكن عندئذٍ قد تركت للمسكين أوردونييث أيّ شكٍّ في أنّني كرهته على الفَوْر، كرهًا شديدا إلى جانب أنّه فوريّ، إذ كان على وشك تهشيم سبّابتي لمجرّد شرودٍ فكريٍّ لا يُغتفر، لا بسبب نزوعه النِّضاليّ إلى كره الأجانب. وأعترف مع ذلك أنّ تيقّني التّامّ من قدرة ذلك المعتوه على أن يهشّم بكلِّ اتّزانٍ وحماقةٍ إصبع أيِّ واحدٍ من أبناء وطنه الأعزّاء يمثّل لي في تلك اللّحظة مصدر عزاءٍ لا ظَرْفَ تخفيف. قد يبدو الأمر كذبةً إلاّ أنّ تلك المصيبة سبّبت لي نعمة، فمن المؤكّد أنّنا صرنا خلال بضع دقائق «وجهين شاحبَيْن» (لحسن الحظّ لم يظهر أيّ واحدٍ من الهنود الحمر في الأفق): أنا، لأنّني كنتُ على وشك أن يغمى عليّ وأنا أُصدِر أصواتًا مبحوحةً، والأمر نفسه حدث لأوردونييث، مع فارق وحيد هو أنّ الإصبع كان إصبعي. المهمّ، ذلك الكره الفوريّ الّذي شعرتُ به تجاه رفيقي، وأعترف أنّه غير عادل، حتّى حين كنتُ على وشك أن أنهار، هل كنتُ سأحسّ به بالدّرجة نفسها لو كان صاحب الفولكسفاكن شخصًا شرقيًّا من حيّ باسو ديل مولينو أو من مدينة تامبوريس أو من مدينة بالميتاس؟ لديّ شكوكٌ حول هذا الأمر، ولكن بما أنّ الحلّ الوحيد لإنهاء هذه الشّكوك هو أن يقوم واحدٌ من أبناء وطني من حيّ باسو ديل مولينو أو من مدينة تامبوريس أو من مدينة

بالميتاس بكسر أحد أصابعي بباب سيّارته الفولكسفاغن، ويمكن أن تكون السّيّارة من نوعٍ آخر، فلا مانع عندي من الاستمرار في منطقة الشكّ الفلسفيّ الهشّة والمريحة. على أيّ حالٍ، إذا كانت لكرهي الفوريّ تجاه أوردونييث الثّقيل الدّم دلالاتٌ دوليّةٌ أو على الأقلّ دلالاتٌ تخصُّ الأمريكيَّتَيْن، فإنّ حالتي لن تكون مسألة كرهٍ للأجانب وإنّما ستكون عكس ذلك تمامًا.

إن عمليّة زرع الأعضاء بشكلٍ قسريٍّ مسألةٌ صعبةٌ مهما تكن المرحلة العمريّة. وقد عانيتُ من هذا شخصيًّا. ولكن لعلّ الشّباب هم الّذين يشعرون بأنّهم أكثر ضررا. ولا أقول ذلك بسبب غراثييلا أو بسبب رولاندو، أو حتّى بسبب سانتياغو نفسه حين يصبح حرًّا ذات يوم. وإنّما أفكّر في الشّباب الّذين كانوا أطفالاً حين اندلعت الفوضى. ربّما من المستحيل عليهم استيعاب أنّ تلك الفترة من حياتهم شيءٌ غير عابر، مثل إحباطٍ على المدى البعيد. والخطر هو أن يتمكّن ذلك الشّعور من تحويلهم إلى ضحايا تآكلٍ لا يُردّ.

كم واحدًا من هؤلاء الّذين رأيناهم يناضلون بشكلٍ فعّالٍ في حيّ لاتيخا أو حيّ مالفين، أو في حيّ إندوستريَاس في مونتيفيديو نراهم اليوم في باريس بجانب الساكري كور Sacré cœur أو في جسر بونتي فيتشو في فلورنسا، أو في سوق الراسترو في مدريد، مستلقين إلى جانب منتجاتِ صناعةٍ تقليديّةٍ صنعوها هم أنفسهم أو حَاكُوهَا. كم من هؤلاء الفتيان والفتيات، بابتسامةٍ شاردةٍ أونظرةٍ

بعيدة، رأوا قبل شهورٍ أو سنواتٍ خَلَت، كيف سقط إلى جانبهم رفاق يحبّونهم، أو كم واحدًا منهم سمع صرخات مفجعةً من الزّنزانة المجاورة المقرفة؟ كيف يمكن الحُكم بإنصافٍ على هؤلاء المتشائمين الجدد، وعلى هؤلاء المرتابين قبل الأوان، إذا لم نفهم بدْءا أنّ آمالهم قد بُترتْ بشكلٍ فُجئيّ؟ وكيف التّغافل عن كون هؤلاء الشّباب المفصولين عن وسطهم وعائلاتهم وأصدقائهم وأقسام دراستهم، عُلّقَ حقّهم الإنسانيّ في التّمرّد كشبابٍ، وفي الكفاح كشبابٍ؟ ولم يُترَكْ لهم غير الحقّ في أن يموتوا شبابًا.

أحيانًا يمتلكُ الفتيان شجاعةً قادرةً على تحمّل الرّصاص، ولكنّهم مع ذلك لا يمتلكون معنويات قادرة على تحمّل خيبات الأمل. على الأقلّ كان من المفروض أن تُتاح لنا أنا وبعض المناضلين القدامى إمكانيّة أن نقنعهم بأنّ واجبهم هو أن يظلّوا شبابًا، وألاّ يشيخوا بسبب الحنين أو الضّجر أو بسبب الحقد، بل أن يظلّوا شبابا، ليعودوا ساعة الرّجوع وهم شبابٌ لا بقايا تمرّداتٍ سابقة، شبابا أي مترعين حياة.

أعتقد بعد هذا الاستعراض الطّويل أنّ لديّ الحقّ في أن أتنفّس بعمق. من المؤكّد أنّني يمكن أن أصبح شخصًا لا يطاق حين أكون جادًّا. ولكن هنالك أيضًا إمكانيّة أن يكون رفائيل أغيرري الحقيقي هو هذا الشّخص الّذي لا يطاق، ثقيلَ الدّم والثّرثار، وأنّ رفائيل أغيرري الآخر الّذي يستمتع باللعب بالكلمات ويسخر قليلاً من الآخرين وكثيرًا من نفسه، هو في حقيقة الأمر قناعٌ للآخر.

ربّما يكون هذا شكلاً غير منتظمٍ وغير مألوفٍ أجيبُ به عن سؤالي: هل أنا أجنبيّ؟ وأجيب نفسي هكذا، بيدي اليمنى موضوعة على الكفن، وبيدي اليسرى وهي ترسم شمسًا، ليتها تكون شمسًا عفويّةً ومضيئةً مثل تلك الّتي ترسمها حفيدتي بألوانها الغريبة والوقحة. ولكنّني لا أستطيع رسم شمسٍ خضراء اللّون وغيومٍ ورديّة كما تفعل هي، دون أن تعير أيّ اهتمام للسّماء. في نهاية الأمر أعتقد أنّ للشّمس بداخلي تأثيرًا أقوى من تأثير الكفن، وإن كانت شمسًا صفراء وبرتقاليّة، كما هو معلوم.

الشّيء الوحيد الّذي يُمكن أن يجعل شخصًا مسنًّا يشعر بالخلاص هو أن يحسّ، ولو بعناءٍ، أنّه شابّ. قلت شابًّا ولم أقل متصابيًا، حذار. وليس أن يتظاهر بأنّه في مقتبل العمر فيلبس ملابس بألوانٍ مثيرةٍ أو يستمع إلى تلك الزبالة الّتي تجعل النّاس يصابون بالدّوار في المراقص، (آه على مجموعة «البيتلز» الّتي لا مثيل لها وقد كنتُ أستمع إلى أغانيها في فترة ما قبل شيخوختي، آه على أغاني Michelle وYesterday وEleanor Rigby)، وإنّما أن يحسّ، مع بذل مجهودٍ، بأنّه مسنٌّ شابّ.

ربّما كان هذا أوّل ما فَهِمَته ليديا. وربّما كان فهمها هذا، هو أوّل ما أعجبني فيها، دون التعلّق بكثيرٍ من الآمال. ربّما حدث الأمر بهذا الشّكل لأنّها من هنا، لنقل لأنّها ليست ابنة وطني. لا أحد يستطيع، ولا أحد يريد أن ينزع حنينه، لكنّ المنفى يجب ألاّ يتحوّل إلى إحباط. الارتباط والعمل مع أبناء البلد المضيف، كما

لو أنّهم أبناء بلدنا، هو أفضل طريقةٍ لنشعر بأنّنا نافعون، ولا يوجد ترياقٌ مضادّ للإحباط أفضل من هذا الإحساس بأنّنا نافعون.

الارتباط بأبناء البلد. حسنًا، أنا ارتبطتُ بليديا. وأقول لها أحيانًا: «على كلّ حالٍ، ها أنتِ ترين، لقد أصبحت نمط عيشي». وأشعر بأنّي في وضعٍ أفضل. لقد أصبح استعمال العصا بتصنّعٍ من حكايات الماضي البعيد. ولهذا السّبب أيضًا لا أشعر بأنّني أجنبيّ، فهي ليست أجنبيّة بالنسبة إلي وإنّما هي أقرب ما تكون إلى امرأتي. هي تملك قليلاً من الدّم الهنديّ، هنيئًا لها، أو ربّما تملك دمًا أسود، هنيئًا لها أيضًا. لنقل إنّ بشرتها الجميلة أغمق من بشرة غراثييلا أو من بشرة بياتريث. وهي أغمق وأقلّ تجعّدًا من بشرتي بكثيرٍ.

ربّما ارتبطت ببلدٍ يسمّى ليديا. وهو ارتباطٌ مختلفٌ عن كلّ الارتباطات السّابقة. ينقصه العديد من التّوابل: الحاجة الملحّة والشّغف وإحساسٌ بالضّغط في الصّدر، إلى حدٍّ لا أجرؤ معه على القول إنّني مغرم، ولكنّي ربّما أجرؤ على التّفكير في الأمر. من الواضح أنّني حينما أقترف خطأ النّظر إلى نفسي في المرآة، أصبح بشكلٍ آليٍّ رصينًا. لا توجد علاقة زواجٍ، وربّما لن توجد، ولكن ما لا أستطيع إنكاره هو أنّ ليديا ليست من قَرْيَتي، إلاّ أنّها في المقابل من سُلالتي، من قبيلتي. وما قلتهُ عن ارتباطي بالبلد ليديا ليس مجرّد مجَازٍ، لأنّها هي من عرّفتني على الأشياء وعلى أطباق الطّعام وعلى أناس هذا البلد. ولقد بدأت أحتفي، ولا أقصد النطق فانتبه، بالعبارات الاصطلاحيّة المحلّية، لا النّهائيّة وحدَها وإنّما المؤقّتة

أيضًا، وعلى على سبيل المثال فحينما يعترف صهر أخ ليديا بأنّ لديه رغبة في تحريك شاربه فهذا يعني أنّه يرغب في تناول وجبة غداء.

ومع ذلك، مازلت ألتقي بأبناء بلدي. فهناك مجموعةٌ كبيرةٌ من القضايا الّتي لا أستطيع أن أتحدّث فيها إلاّ معهم، أقصد الحديث معهم بإسهابٍ وبمعرفة بالأسباب، بالرّغم من أنّنا لا نكون دَوْمًا عارفين بالنّتائج، والقيام بالتّقييم المعقّد للماضي الّذي يزداد صعوبةً كلّما كان أقرب، أو كما يقول الرّائع فالديس، المتخصّص في الطبّ العامّ وممرّات التّنفّس، وهو يُسقط اصطلاحات عمله على الوضع: «يجب أن نفحص صدر البلد يا سادة، وأن نضع الأذن على الظّهر لنشعر كيف يتنفّس، وعندها نأمره، قل «ثلاثة وثلاثون»، قل من فضلك «ثلاثة وثلاثون»».

ولكن كلّ هذا لم يعد يكفيني. لا أستطيع العيش هنا، وهكذا، مع هاجس أنّه سيكون عليّ غدًا أو في أكتوبر القادم أو خلال عامَيْن، فكّ الارتباط وبدء رحلة العودة، العودة الأسطوريّة، لأنّ الأسلوب المؤقّت لا يمنح أبدًا شعورًا بالامتلاء، وعندها أتعمّق في البلد ليديا، وهذا أكثر بكثيرٍ من مجرّد رمزٍ جنسيّ، مع الاستعداد للتعمّق هناك فالرّحلة ممتعة، إنّه أيضًا معرفة ما يعرفه أبناء البلد ليديا. إنّه الاستماع إلى نشرات أخبار الرّاديو والتّلفزيون من الألف إلى الياء، لا فقط حينما يصل وقت الأخبار الدولية، وهم في انتظارهم اليومي لوصول شيءٍ جيّدٍ من هناك، من الأسفل. ولكن ما يصل هو خبر اختفاء أربعة أشخاص آخرين، أو خبر مقتل ثلاثة أشخاص في

السّجن، وليس دَوْمًا بسبب ما كان أحد الرّؤساء المعزولين يسميه «الصّرامة والدّقة في جلسات الاستنطاق»، وإنّما حصريًّا بسبب التّعب والاختناق في السّجون ليس إلاّ. ما يصل من أخبارٍ هو أنّهم قاموا بجملة مداهماتٍ جديدةٍ قُبِضَ إثرَها على خمسمائة شخص، وبعد ذلك تمّ إطلاق سراح أربعمائة وعشرين شخصًا كما كان متوقّعًا، ولكن من هم الثّمانون المتبقّون، وماذا سيفعلون بهم؟

إنّنا نفقد العادة الصحّية المتمثّلة في الأمل، وتقريبًا لم نعد نفهم كيف أنّ مجتمعاتٍ أخرى لا تزال تولّده. أتذكّر فجر يوم 30 نوفمبر. كنتُ قد طلبتُ من ليديا ألاّ تأتي. كنتُ أريد البقاء وحيدا مع شكوكي. لم أكن أؤمن بالاستفتاء، كان يبدو لي فخًّا سخيفًا. ولكن في السّاعة الثّالثة فجرًا استيقظت وتملّكتني رغبةٌ مفاجئة في أن أشغّل الرّاديو على الموجة القصيرة. وجاء الخبر متقاطعًا مع حلمي، الّذي لم يكن محفّزًا على وجه الخصوص. لقد اكتسحت «لا» مقترح العسكر، وحينما تيقّنت من أنّ الخبر لم يكن ملحقًا بحلمي، وأنّه خبرٌ حقيقيّ، قفزت من السّرير وصرخت كما لو أنّني في ملعبٍ ثمّ انتبهتُ فجأةً إلى أنّني أبكي دون أيّ خجلٍ وأنتَحِب، وانتبهت أيضًا إلى أنّ ذلك البكاء لم يكن متصنّعًا ولا سخيفًا، وتفاجأت أنا شخصيًّا من انفجاري إلى درجةٍ رغبت معها في أن أتذكّر متى بكيتُ هكذا آخر مرّةٍ، وكان عليّ العودة في الزّمن حتّى أكتوبر من سنة 1967 في مونتيفيديو. حدث ذلك في المساء أيضًا وكنتُ بمفردي، حين عَرَضَتْ محطّةٌ إذاعيّةٌ أخرى بشكلٍ مُفصّلٍ

إعلانَ فيديل كاسترو الحزينَ بخصوص موت تشي غيفارا.

ولكن في شهر نوفمبر من عام 1980، تركني أبناء البلد ليديا أبكي وحيدا وشكرت لهم ذلك. جاؤوا في اليوم التّالي لمجرّد معانقتي، بعد أن تيقّنوا تمامًا أنّ عينيّ قد جفَّتا من الدّموع، ولِكَيْ أشرح لهم ما لا يمكن شرحه، وعندئذٍ أخذتُ أقولُ لهم بينما كنتُ أقنع نفسي أيضًا: «لم يقرّر النّظام الديكتاتوري أن يفتح بابًا، وإنّما فتحةً ضيّقة، فتحةً صغيرةً جدًّا حتّى إنّه لا يمكن أن تدخل منها إلاّ كلمةٌ قصيرةٌ واحدة، وحينها رأى النّاس تلك الفتحة ودون تردّدٍ، وضعوا هنالك كلمة «لا». من المحتمل أن يغلقوا غدًا الباب بعنفٍ، أن يوصدوا مرّةً أخرى القلعة الّتي كانوا يعتقدون أنّها حصينة، ولكن سيكون الأوان قد فات، وستكون الكلمة الحاسمة قد وصلت إلى الدّاخل، وسيكون من المستحيل أن يتخلّصوا منها. في عصر القنابل النيوترونيّة والرؤوس النّوويّة هذا، لا يمكن تصوّر ما بإمكان كلمةٍ رافضةٍ واحدة أن تفعل».

وجاءت ليديا، طبعًا ليس البلد ليديا وإنّما ليديا بمفردها ومعها روحها. لم تقل لي شيئًا وشكرتُها على ذلك. وبعد أن تيقّنتْ هي أيضًا من أنّ عينيّ قد جفَّتا، جلست على الأرض بجانبي. أنا كنتُ جالسًا كعادتي على الكرسيّ المتأرجح، وعندها توقّفتُ عن التّأرجح، فوضعتْ رأسها الغامق قليلاً وشعرها الأسود على ركبتيّ.

بياتريث
(العفو)

العفو كلمةٌ صعبة، أو كما يقول الجدّ رفائيل هي كلمةٌ شائكة، لأنّها تحتوي على حرف عين وحرف فاء، وهما حرفان متلازمان دَائمًا. العفو هو أن تُغفر للواحدة منّا عقوبة. مثلاً إن عدتُ من المدرسة وملابسي متّسخة كلّها، وتقول لي غراثييلا، أي أمّي، إنّني معاقبةٌ بالبقاء لمدّة أسبوعٍ دون طبق الحلوى، وإذا ما تصرّفت بشكلٍ جيّدٍ وحصلت بعد ثلاثة أيّامٍ على علاماتٍ متفوّقة في مادّة الحساب، تمنحني إذّاك عفوًا، ويصبح بإمكاني العودة إلى أكل المثلّجات الّتي تُدعى «كانوَا» وهي تتكوّن من ثلاث كراتٍ، واحدة من الفانيليا وأخرى من الشوكولاتة وثالثة من الفراولة، وهي الشّيء نفسه الّذي يسميه الجدّ رفائيل «فروتِياسْ».

وكذلك الشّأن حين تشاجرنا أنا وتيريسيتا، لأنّها وجَّهَتْ إليّ ضربةً قويّةً بيدها المليئة بالطّين وقضّينا قرابة أسبوعَيْن دون أن نقول حتّى أهلاً أو وداعًا أو تُعير إحدانا فرشاة الأسنان للأخرى، رأيت فجأةً أنّ المسكينة قد ندمت أشدّ النّدم وأنّها لم تكن تستطيع

العيش دون حناني، وانتبهتُ إلى أنّها تتنهّد بقوّةٍ كلّما مررتُ من أمامها وبدأت أشعر بالخوف من أن تنتحر كما يحدث في التّلفزيون، ولهذا ناديتها وقلتُ لها «انظري يا تيريسيتا أنا أعفو عنك»، ولكنّها اعتقدت حينها أنّني ناديتها لأشتمها لا أقلّ ولا أكثر فأخذت تبكي بشكلٍ تصاعديّ، فلم أجد حلاًّ آخر غير أن أقول لها «تيريسيتا لا تكوني حمارة أنا أعفو عنك يعني أنّني أسامحك»، وحينها بدأت تبكي من جديد، ولكن بنوعٍ آخر من البكاء، إنّه بكاء التأثّر.

وقد رأيتُ أيضًا منذ بضعة أيّامٍ على شاشة التّلفاز حصّة مصارعة ثيران. كانت تجري في مكانٍ يُشبه ملعبًا، وأحد الرّجال يلعبُ وبيده ثوبٌ أحمر اللّون وثورٌ يؤدّي دور الغاضب لكنّه كان رائعًا، وبعد ساعاتٍ طويلةٍ من اللعب، شعر الرّجل بالملل وقال لا أريدُ أن أستمرّ في اللعب مع هذا الحيوان الّذي يقوم بدور الغاضب، ولكنّ الثّور يريدُ مواصلة اللعب، وحينها غضب الرّجل، وبما أنّه شخص بليد، فقد غرز في قفا الثّور سيفًا طويلاً، ولمّا كان الحيوان على وشك أن يطلب العفو فقد نظر إلى الرّجل بعينَيْن في غاية الحزن، وبعد ذلك أغمي عليه في منتصف أرضيّة الملعب، دون أن يمنحه أحدٌ العفو وهو ما جعلني أشعر بالكثير من الشّفقة على الثّور، فأخرجت تنهيدةً مرهفةً، وحلمتُ تلك اللّيلة بأنّني أداعب الثّور وأقول له «صغيري، صغيري» مثلما أقول لـ«سخرية سوداء»، كلب أنخيليكا، وهو يحرّك ذَيْلَه في سعادةٍ غامرة، ولكن في الحلم، لم يحرّك الثّور ذَيْلَه، لأنّه لم يزل مغمى عليه في منتصف أرضيّة الملعب،

وقد منحته العفو، ولكنّ منحَ العفو في الأحلام أمرٌ لا ينفع في شيء.

يقول القاموس إنّ العفو هو نسيان الجرائم السّياسيّة، وأنا كنتُ أفكّر في أنّه من المرجّح أن يمنحوا العفو لأبي، ولكنّني أيضًا أشعر بالخوف من أن تكون للجنرال الّذي جعل أبي سجينًا سياسيًّا ذاكرةٌ قويّة وألاّ ينسى الجرائم. وبما أنّ أبي بطبيعة الحال طيّبٌ جدًّا ويُجيد حتّى كنس الزّنازين، فهذا الأمر قد يدفع الجنرال الّذي جعله سجينًا سياسيًّا إلى أن يغضّ عنه الطرف كما يفعل معي جدّي، ويتظاهر كما لو أنّه نسي الجرائم، بالرّغم من أنّه في الحقيقة لم ينسها، ولعلّ الجنرال الّذي جعله سجينًا سياسيًّا يمنحه العفو ذات ليلةٍ هكذا فجأةً، ودون أن يقول له شيئًا فيترك له الباب مواربا حتّى يخرج أبي على أطراف أصابعه ويطلّ بصمتٍ على الشّارع ويأخذ سيّارة أجرة، ويقصّ على سائقها بفرحٍ شديدٍ أنّهم منحوه للتوّ العفو ويطلب منه أن يأخذه مباشرةً إلى المطار لأنّه يريدُ السفر لرؤيتنا أنا وغراثييلا وسيقول للسّائق: «لديّ ابنةٌ صغيرة لم أرها منذ سنواتٍ طويلة ولكنّني أعرف أنّها جميلة جدًّا وطيّبة»، وسيقول له السّائق «هذا مثيرٌ للاهتمام يا سيّدي، وأنا أيضًا لديّ طفلة»، وسيستمرّان في الكلام ومزيد الكلام لأنّ المسافة من السّجن كيلومترات عديدة، وحين يصلان سيكون اللّيل قد حلّ وسيقول أبي للسّائق «المشكلة هي أنّني كنتُ سجينًا سياسيًّا ولا أملك الآن مالاً لأدفع لك»، وسيجيبهُ السّائق، «لا تحزن، إنّها مجرّد 38 مليون دولار أوروغوايانيّ، يمكنك أن تدفع لي حين يكون بإمكانك

ذلك، عندما تحصل على عمل»، ويردّ عليه أبي، «يا لك من رجلٍ طيّب، شكرًا جزيلاً»، ويجيبُ السّائق، «لا داعي لشكري، أبلغ زوجتك وابنتك الطيّبة والجميلة جدًّا سلامي، وأرجو لك سفرًا مريحًا وأهنّئك على العفو الّذي حصلت عليه».

أمّا أنخيليكا ففي مقابل ذلك هي حقودةٌ جدًّا، وحين يعضّها كلبها «سخرية سوداء» برفقٍ لا بعنفٍ لأنّ أسنانه صغيرة، ولا يفعل ذلك عن سوء نيّة، فإنّها تضربه ضربا شديدا وبعد ذلك لا تكلّمه ثلاثة أيّام، وأنا أعلم أنّ «سخرية سوداء» يموت من الحزن، ورغم كلّ ذلك فهي لا تعفو عنه أبدًا. الكلب «سخرية سوداء» يثيرُ شفقتي كثيرًا، ولو استطعت لأخذته إلى البيت، ولكنّ غراثييلا تقول دَوْمًا إنّه لا يجبُ أن نملك حيوانات أليفة في المنفى، لأنّ الواحدة منّا تتعلّق بها، وفجأةً سيكون علينا العودة إلى مونتيفيديو ذات يومٍ، ولن نأخذ معنا الكلب أو القطّ لأنّ الحيوانات تتبوّل في الطّائرات.

حين يأتي العفو سنرقص التّانغو. التّانغو موسيقى حزينة تُرقص حين يكون المرء سعيدًا وهكذا يعود إلى الشّعور بالحزن من جديد. حينما يُعلن عن العفو ستشتري لي غراثييلا دميةً جديدة، لأنّ دميتي مونيكا حان سنّ تقاعدها. حين يأتي العفو لن تكون هناك مصارعات ثيرانٍ أخرى ولن يخرج في وجهي حبّ الشّباب من جديد. والجدّ رفائيل سيشتري لي ساعة يد. حين يأتي العفو سينتهي فقدان الذّاكرة. العفو مثل إجازة ستنتشر في البلد كلّه.

ستأتي الطّائرات والبواخر مليئةً كلّها بالسّائحين الأغنياء الّذين سيذهبون لرؤية العفو. ستأتي الطّائرات مليئةً كلّها إلى درجة أنّ النّاس سيأتون واقفين في الممرّات، وستقول السيّدات للسّادة الجالسين، «آه، أنت أيضًا ذاهب لترى العفو»، وعندها لن يجد الواحد من هؤلاء السّادة بُدًّا من أن يترك لها مكانه كي تجلس. حين يأتي العفو ستكون هناك ملاعق وقمصان ومنافض سجائر كُتبت عليها كلمة عفو، وكذلك دمى ستردّد عندما يضغط الواحد منّا على بطونها كلمة ع-ف-و، وبعدها ستصدر موسيقى. حين يأتي العفو ستنتهي جداول الضّرب، خصوصًا جدولا الثّمانية والتّسعة لأنّهما زبالة. أتخيّل أنّه عندما سيأتي أبي ذات يوم سيظلّ عامًا كاملاً تقريبًا وهو يتحدّث عن العفو. تقول تيريسيتا إنّ ساندرا قالت إنّ هناك عفوًا أقلّ في الدّول الشّديدة البرودة، ولكنّني أعتقد أنّ الأمور هناك ليست خطيرة جدًّا، فبما أنّ السّماء تُثلج في الخارج وتهبّ رياحٌ متجمّدة، فإنّ السّجناء السّياسيّين لن يرغبوا في أن يُطلق سراحهم لأنّهم يحسّون بدفءٍ أكبر في الزّنازين. أحيانًا أفكّر في أنّ العفو قد تأخّر كثيرًا إلى درجة أنّه حين يأتي سأكون على الأرجح كبيرةً مثل غراثييلا وسأعمل في إحدى ناطحات السّحاب، وحتّى إنّه سيكون في وسعي عبور الشّوارع وإشارة مرور الرّاجلين حمراء كما يفعل الكبار دَوْمًا. حين يأتي العفو من الممكن أن تقول غراثييلا للعمّ رولاندو، «حسنًا، وداعًا».

الآخر
(اِلبس الجسد)

إذن أنت تجدني غريبًا؟ هذا ممكن يا رولاندو، هذا ممكن. بالإضافة إلى أنّ أحدنا لم يرَ الآخر منذ مدّةٍ طويلة. ومع ذلك، يجب عليّ أن أكون سعيدًا. وربّما أنا سعيد فعلا، وهذا بالتّحديد ما يجعلني غريبًا. هل يبدو لك هذا أمرًا مستحيلاً؟ نحن متعوّدون كثيرًا على الموت، حتّى إنّ الولادة متى حدثت أمسكتنا على حين غرّة، أو كما يقول أحد المشجّعين المحليّين في رياضة البيسبول «تُمسكُنا في وضعيّة تسلّل». ها أنت ترى كيف أندمج في هذا المجتمع شيئًا فشيئًا. ومن المؤكّد أنّك تسأل نفسك ما الّذي حدث. وترفض التّسليم بأنّ ما حصل كان شيئًا محفّزًا. أنت تشكّ، أليس كذلك؟ أنا أيضًا أصبحت أشكّ. ومع ذلك فإنّ الحدث الجديد هو خبرٌ مفرح: لقد أطلقوا سراح كلاوديا وهي الآن في السّويد. لم تكن تتصوّر ذلك، أليس كذا؟ نعم لقد أطلقوا سراحها، وهي الآن في السّويد، وكتبت لي وكتبت لها. ما رأيك؟ ستّ سنواتٍ مدّةٌ طويلة، خصوصًا إذا أخذت بعين الاعتبار أنّني تمكّنت من

الخروج، أو كدتُ، لكنّني تمكّنت من ذلك، أمّا هي فقد عجزت، إذ كان عليها أن تتجرّع تلك الأعوام السّتّة من القاذورات والذلّ والتّعفّن والهذيان. والآن قل لي، كيف كنت سأستمتع بحرّيّتي أو بعملي؟ (وها أنا أقوم أخيرًا بشيءٍ يعجبني ويتناسب مع ميولي)، أو كيف سأستمتع بمجرّد أن أقول ما يحلو لي بصوتٍ عالٍ؟ كيف كنتُ سأستمتع بحياتي إن عرفت أنّ كلاوديا موجودة هناك، وأنّها منهكة؟ هي ذات عزيمة ولكنها جريحة، وهي وفيّة ولكنها في غاية الشّوق. عمري 32 عامًا وأنا شخصٌ قويّ وعلى ما يرام جنسيًّا، ومازلت في تمام نشاطي. أنت تعرف أنّ المرء في هذه السّنّ، إذا كان طبيعيًّا، من المستحيل عليه قضاء ستّ سنواتٍ من دون أن يكون، بين الحين والآخر، مع امرأة. أنا أعرف ذلك وكلاوديا تعرفه، وقد اقترحته عليّ في رسائلها بشكلٍ غير مباشر، وعن طريق قنواتٍ أخرى قالته لي أيضًا من دون لفٍّ أو دوران: «لا تسبّب لنفسك مشاكل يا آنخيل. أحبّك أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ومع ذلك لا يمكنني أن أطالبك بشيءٍ كهذا. أنت رجلٌ شابّ، وأنت الآن في الخارج. لا يمكنك أن ترفض ما ينتظره الجسد. إنّه جسدك. أنا لن أشعر بالإهانة. لن أشعر بالإهانة أبدًا. أقولها لك بكلّ جدّيّة. أرجوك صدّقني. فيما بعد، حينما أخرج، سنرى عندئذٍ ما يحدث. نعم، أنا ما أزال أحبّك مثلما أحببتك دَوْمًا، ولكن لا تَبْقَ دون امرأة، لا تحكم على نفسك بالعيش من دون جسد امرأة. أنا أعرف أكثر من أيّ شخصٍ آخر كم أنت بحاجة إلى جسد امرأة.» وهكذا

دَوْمًا. لم يكن ينقص إلاّ أن تكتب لي بيت الشّاعر سيزار باييخو: «سيأتي اليومُ الموعود قريبًا. اِلبس الجسد». كان ذلك شبه هاجسٍ في رسائلها ومراسلاتها. وكنتُ أجيبها بألاّ تقلقي، وبأنّني قد أقوم بذلك لاحقًا، ولكن ليست لديّ الآن الرّغبة ولا الشّهوة في القيام به. وكانت تصرّ من جديد. إلى أن أتيحت لي في الأخير فرصة لم أبحث عنها، شيءٌ أتى بشكلٍ طبيعيٍّ جدًّا، وقرّرت أن ألبس الجسد، أي أنّني ذهبتُ إلى السّرير مع فتاةٍ رائعة، ومارسنا الحبّ بطبيعة الحال، ولكنّه كان فاشلاً بشكل مّا. كنتُ أنظر إلى الحركات الّتي أقوم بها. أتعرف؟ كأنّها حركات شخصٍ آخر. تفاعلت الأعضاء بطبيعة الحال عند التّماسّ مع لحمٍ ملاصق، وأمكنها التّصرّف بمهارةٍ والشّعور بالإثارة والوصول إلى ذروة مّا، لكنّني بقيت غريبًا عن تلك المتعة، كنت بعيدًا، في زنزانةٍ بعيدة، هامسًا بتضامني إلى امرأة بعيدة، إلى امرأتي، مواسيًا إيّاها، دون لمسها، عن جروحٍ لن تندمل أبدًا، قائلاً لها كلمات، كلمات معزولة، لها عندنا نحن الاثنين بُعْدٌ شعائري. إنّها مثل معالم تميّز قصّتنا الخاصّة. ستقول لي إنّ هذا الأمر يحصل مع كلّ الأزواج. نعم، ولكن من هذا الثّنائي كان واحد هنا، حرًّا طليقًا ولكنّه يشعر ببلاهةٍ أنّه مذنبٌ بسبب حرّيّته، والأخرى هناك، في السّجن وفي صراع، مُرافَقَة ووحيدة، تفكّر على الأرجح فيّ، في أنني أشعر ببلاهة بالذنب جرّاء حريتي. وفجأةً تمثّلت الفتاة الّتي كانت تمارس الحبّ معي الموقفَ بشكلٍ واضحٍ، فهمتْه رغم أنّها كانت من هنا، أو ربّما لهذا السّبب تحديدًا

فهمته، وحين كنّا مستلقيَيْن وصامتَيْن فيما بعد، ننظر إلى السّقف، وضعت يدها على ساقي وقالت: «لا تحزن، هذا يحدث لك لأنّك شخصٌ طيّب»، ووقفت ولبست ثيابها وذهبت من دون أن تضيف أيّ شيء، بعد أن قبّلتني قُبلةً على خدّي. إذن تخيّل معي إن كان خبرًا مفرحًا بالنّسبة إليّ معرفة أنّ الأخرى، أي الوحيدة والمعاقبة والمخلصة، هي الآن حرّةٌ طليقة وتوجد في السّويد برفقة أصدقاء. هذه هي القصّة. إلى حدّ الآن تراسلنا واتّصل كلٌّ منّا بالآخر عبر الهاتف. أؤكّد لك أنّ الهاتف لم يكن الوسيلة المثاليّة للتّواصل، لأنّنا كِلَيْنا كنّا نبكي، وفي نهاية المطاف كلّفت تلك المكالمات كثيرًا من المال لمجرّد سماع ثلاث كلماتٍ قصيرة وأربع شهقاتٍ ليس أكثر، خلال ربع ساعة. منذ اللّحظة الأولى كتبتُ لها أن تأتي فورًا واشتريت لها تذكرة طائرة، تذكرةً مفتوحة لِكَيْ تُسافر متى أرادت واستطاعت. ولكنّني لاحظت في إجاباتها بعض الممانعة، وبدأتُ أتخيّل أشياء سخيفة. تصوّر معي الحرّيّة الّتي يمتلكها الواحد منّا حين يبدأ بتخيّل أشياء سخيفة. كانت الأشياء المنطقية تتعلّق بأذوناتٍ ورخص إقامة وجوازات السّفر، وغيرها. ولكنّني اخترت الأشياء الأخرى غير المنطقيّة، على الأقلّ البعض منها، وعدّدتها في رسالتي الجديدة. واستلمت اليوم حالا جوابا. هكذا تقول، سأقرؤها عليك: «أنت مازلت تفكّر في كلاوديا الّتي لم ترها منذ ستِّ سنوات، ولكن في هذه الأعوام السّتّة حدثت أشياء كثيرة، وحتّى الوجوه تتغيّر، وهذا التّحوّل له إيقاعٌ مختلف

عن إيقاع المرور البسيط للزّمن. أعرف أنّك، مثلاً، تحتفظ بالهيئة ذاتها، مع كِبَرٍ بستّ سنوات. وهذا طبيعيّ، أليس كذاك؟ ولكن أنا يا عزيزي، لم أعد أحتفظ بالوجه ذاته. هذه هي الممانعة الّتي لاحظتها في رسالتي. وكما تصوّرت الكثير من الفظاعات، فإنّني أخذت هذا القرار: التقطت لنفسي صورًا عديدة، وأعترف لك، رغم أنّك لن تصدّق ذلك، بأنّني اخترت أفضلها. المهمّ، أرسلها إليك مع هذه الرّسالة. آنخيل أريدك قبل أن تقرّر هل عليّ الذّهاب إلى هناك أو البقاء هنا، أن ترى كيف أنا وكيف أصبحت، وأن ترى كيف كان وقع تلك الأعوام السّتّة على عينيّ وفمي وأنفي وأذني وجبهتي وشعري. وأريد منك إن كنتَ تحبّني وتحترمني حقًّا، وأنت تعرف أنّني كاثوليكيّة، ولهذا فأنا أطلب منك ذلك حبًّا في الله، أن تكون معي صريحا غاية الصّراحة». هل انتبهت يا رولاندو لكلّ ما تقوله تلك الرّسالة؟ هل بإمكانك أن تقرأ مثلي كلّ ما يوجد بين السّطور؟ ولهذا كنتُ أقول لك قبل لحظةٍ إنّني قد أكون سعيدًا وهذا بالتّحديد ما يجعلني على شيءٍ من الغرابة. أن أشعر بأنّني سعيد ومع ذلك لا أكون سعيدًا. لكن أتعْرف، لم أتخيل مطلقًا، أن يتضمّن شعور الإنسان بالسّعادة كلّ هذا الحزن؟

جرحى ومكدومون
(حياة لعينة)

- وما الّذي شعرت به حين قرأ عليك الرّسالة، حين حكى لك قصّة الصّورة؟

- شعرتُ بالارتباك. في الحقيقة، أعتقد أنّني شعرتُ آنذاك بالارتباك.

- مرتبك ومذنب؟

- لا. مذنب لا.

- ولماذا عدت إذن بذلك الوجه الجنائزي؟

- ربّما لأنّ هذه الفوضى ليست بالتّحديد حفلاً.

- عندما تقول «الفوضى»، تقصد بذلك علاقتنا؟

- نعم، وأيّ موضوعٍ آخر سأقصد مثلاً؟

- أنا لا أراها.

- لا؟ ولكنّها كذلك.

- هل أنتَ نادم؟

- لا. ولكنّها ليست حفلاً.

- لقد قلتَ هذا من قبل. علاقتهما أيضًا ليست حفلاً.

- تقصدين علاقة كلاوديا وآنخيل؟ ليست كذلك أيضًا. ولكنّها على الأقلّ شفّافة. ألمٌ شفّاف. حبٌّ شفّاف.

- بخلاف علاقتنا القاتمة.

- أنا لم أقل هذا.

- ولكنك تلمحّ إلى ذلك. كلّ ما لا تقوله، أنت تقوله بطريقة مّا. تعتقد ربّما أنّني لا أفصح عنه؟

- أنتِ تعلمين جيّدًا أن الشّيء الوحيد القاتم بالنّسبة إليّ هو أنّنا لم نخبر سانتياغو بالأمر. وفيما يخصّ البقيّة، لا. أنا حقًّا أحبّك يا غراثييلا وهذا ليس أمرًا قاتمًا.

- لماذا العودة إلى هذا الموضوع؟ تكلّمتُ عن الأمر مع رفائيل وأقنعني. ومازلت أعتقد أنّه مُحِقٌّ. وقع الصّراحة سيكون أليمًا جدًّا على سانتياغو. أن يعلم بهذه الطّريقة، وأن يعلم بالأمر هناك. بين أربعة جدران.

- حسنًا، الآن سيخرج.

- نعم، وأنا سعيدةٌ لأنّه سيخرج.

- سعيدةٌ وهذا يعني أنّك نادمةٌ على ما وقع؟

- لا يا رولاندو، أنا لست نادمة. سعيدةٌ تعني أنّني سعيدة. سعيدةٌ لأنّه سيكون حرًّا، وهو يستحقّ ذلك كثيرًا. ثمّ إنّني

سأتمكّن من إخباره بالموضوع.

- سيكون بإمكانك فعل ذلك؟

- أجل يا رولاندو، سيكون بإمكاني فعل ذلك. أنا أقوى بكثيرٍ ممّا تعتقد. وأنا واثقةٌ من نفسي أيضًا. الآن أنا أعرف تمام المعرفة أنّ علاقتي به لن تكون جيّدة. وأحترم سانتياغو كثيرًا ولهذا لن أستمرّ في الكذب عليه.

- يالها من حياةٍ لعينة، أليس كذلك؟ أن يخرج من السّجن بعد كلّ هذه السّنوات الطّويلة، ويجد في انتظاره كلّ هذا. أقصد: أنّنا سنكون في انتظاره بهذا الخبر الجيّد.

- أنا لا أعلم. ولكن على كلّ حالٍ، كما يقول رفائيل، من الأفضل أن يعلم بالأمر هنا، من منظورٍ مختلف.

- الآخرون أيضًا سيعلمون بالأمر. الرّفاق. هل تكلّم معكَ عزيزك رفائيل عن هذا؟

- لا. ولكن من الجيّد أن يعرف.

- لا أعتقد أنّهم سيساندوننا نحن.

- على الأرجح لا. جميعهم يحبّون سانتياغو، سيكون صعبًا.

- كيف ستخبرينه بالأمر؟

- لا أعرف يا رولاندو، لا أعرف.

- هل تفضّلين أن نخبره بالأمر معًا؟

- انظر، أنا لا أعرف كيف سأخبره بذلك. سأرتجل. ولكن في

المقابل أعرف أنّني أريدُ أن أخبره ونحن منفردَان. هذا من حقّي، أليس كذلك؟

- لديك كلّ الحقوق. ولكن ماذا عن بياتريث؟

- يبدو لي أنّها متحفّظة. وهذا أيضًا يزعجني.

- هل تعلم أنّ الأب سيصل خلال خمسة عشر يومًا؟

- تعرف ذلك منذ يوم الأحد، ورغم تحذير سانتياغو، قرّرت أن أخبرها بالأمر. أتعرف لماذا فعلتُ ذلك؟ لأنّني فكّرت في أنّها قد علمت بطريقةٍ مّا غريبة بهذا الأمر أو أنّها حَدَسَتْه، وأنّ موقفها المتحفّظ ربّما سببه أنّني لم أكن قد أبلغتها الخبر. ولكن بعد أن قلته لها، استمرّت على الموقف نفسه.

- إنّ تلك الماكرة ذكيّةٌ جدًّا. من المؤكّد أنّها تشكّ في علاقتنا.

- هذا ما أعتقد.

- على كلّ حالٍ، إنّها ردّة فعلٍ لا مناص منها.

- هذا ممكن، ولكنّ الأمر يقلقني.

- والآن لماذا تبكين؟

- لأنّكَ محقّ.

- نعم طبعًا، ولكن فيمَ أنا محقّ؟

- في ما قلته اليوم: يا لها من حياةٍ لعينة.

مناف
(مزهوو ألامار)

عشتُ أكثر من سنتَيْن في ألامار، وهي منطقةٌ تقع على بعد خمسة عشر كيلومترًا تقريبًا من العاصمة هافانا، تشكّلها بالأساس عمارات سكنيّة، تشيّدها دون توقّفٍ فيالق عمّالٍ قادمة من العاصمة. إنّها واحدةٌ من الطُّرق الّتي وجدها الكوبيّون لمحاولة حلّ مشكلتهم السّكنيّة العويصة، دون أن يَضْعُف بذلك الإنتاج، إذ يتشكّل في كلٍّ مصنعٍ أو مكتبٍ أو مخزنٍ، فيلقٌ واحدٌ أو فيالق، كلّ واحدٍ مكوَّن من 33 عاملاً. وبما أنّهم عُمومًا ليسوا عمّال بناء، فإنّهم يبدؤون بتكوينٍ بسيطٍ وبعد ذلك يتفرّغون لتشييد بناياتٍ مكوّنةٍ من خمسة إلى اثنَيْ عشر طابقًا ستصبح مأهولةً فيما بعد من قِبَلِ مجموعة رِفاقهمْ الّذين هم في أمسّ حاجةٍ إلى مسكنٍ جديد، أو ربّما يسكنونها هم أنفسهم. وكان الفراغ العمليّ الّذي يتركه كلّ فيلقٍ في مركز عمله يعوَّض بساعاتٍ إضافيّة يقوم بها الآخرون. والمثير للدّهشة هو أنّ الفكرة جاءت من جهة العمّال، واقتصر دور الحكومة على أن تجعلها قابلةً للتحقّق على أرض الواقع.

ولكن هناك جزئيّةٌ إضافيّة تتعلّق بنا مباشرة. في كلّ واحدةٍ من تلك البنايات، تَمْنَحُ الفيالق لعائلات اللاجئين من أميركا اللاّتينيّة شقّةً واحدةً، إذا كانت البناية مكوّنةً من خمسة طوابق، أو أربع شققٍ، إذا كانت مكوّنةً من اثنَيْ عشر طابقًا. وهذه العائلات تستلمُ الشقّة بكلِّ أثاثها، الثّلاّجة والرّاديو والتّلفزيون وموقد الغاز، وحتّى الأغطية وأواني المطبخ. كلّ شيء بالمجّان.

ولهذا السّبب بالأساس نجد أنّ عددًا مهمًّا من الأمريكيّين اللاّتينيين يتجمّعون في منطقة ألامار تحديدًا. والأطفال والمراهقون الأوروغوايانيّون على العموم إذا لم يكونوا ثنائيّي اللّغة فهم على الأقلّ ثنائيّو اللّكنة. حين يلعبون ويركضون في الشّوارع مع رفاقهم المحليّين، فإنّهم يتكلّمون بلهجةٍ كوبيّةٍ خالصة. ولكن حين يدخلون منازلهم، حيث يواصل الآباء الحديث بعنادٍ ووعيٍ بلكنةٍ أوروغوايانيّةٍ أصيلة، يصير الأطفال الّذين تحوّلوا في الشّارع إلى كوبيّين أطفالاً أوروغوايانيّين أقحاحًا من جديد.

ألامار مكانٌ جميل، ربّما بحافلاتٍ وأشجارٍ أقلّ ممّا يجب، ولكن بهواءٍ خفيفٍ ومالح، وبحرٍ في متناول اليد، وأخوّةٍ دون تصنّع.

يوم 30 نوفمبر من العام 1980، يوم الاستفتاء، الفخّ الّذي نصبه النّظام الديكتاتوريّ الأوروغوايانيّ لنفسه ووقع فيه، لم أكن موجودًا في ألامار وإنّما في إسبانيا. خلال ذلك الفجر بينما كانت أخبار الفوز الشّعبيّ السّاحق تأخذ مكانها على قائمة أهمّ الأخبار العالميّة، فكّرت في أشياء كثيرة بطبيعة الحال، وكانت منطقة ألامار

من جملة الأشياء الّتي فكّرت فيها، وفكّرت أيضًا أنّه يمكن أن يكون جيّدًا لو احتفلنا هناك بالفوز العريض الّذي لا يصدّق.

وحين ذهبتُ في شهر يناير التّالي إلى هافانا، كان هذا هو الموضوع الأوّل الّذي تطرّقت إليه مع ألفريدو غرابينا. كانت هناك أشياء عديدة مشتركة بَيْنِي وبَيْنَ ألفريدو، ولكن هناك موضوعان مهمّان جدًّا على وجه الخصوص: الأدب ومدينة تاكواريمبو، رغم أنّه قادمٌ من تلك المدينة الّتي هي عاصمة الإقليم، وأنا من مدينة باسو دي لوس توروس.

«آه، تلك اللّيلة». صمت وظلّ موجِّهًا نظرته بعيدًا. لطالما فكّرت في أنّ ألفريدو، واسمه الثّاني هو دانتي، ولكنّني لم أجرؤ أبدًا على أن أسخر منه، لأنّ اسمي الثّالث هو هاملت، قد خرج يتبختر من أحد أفلام المخرج فيتوريو دي سيكا المأخوذة عن سيناريو لسيزار زافاتيني. ولكنّه حين يشرد في التّفكير، يكون إذّاك على شَبَهٍ كبيرٍ بالممثّل الإيطالي توتو.

«انظر، تلك اللّيلة اجتمعتُ مع كثيرٍ من أبناء الجالية للحديث وشُرب بعض الكؤوس. ما كان متوقّعًا عن الاستفتاء هو التّزوير». تظهر بين تجاعيده العميقة ابتسامةٌ عريضة، وهي مرشّحة دَوْمًا لأن تتوسّع أكثر، ابتسامةٌ قد يؤوِّلها من لا يعرفونه على أنّها ابتسامة سخرية من الآخرين، ولكن نحن نعرف أنّها ابتسامة انزعاج من نفسه. ليس الأمر نقدًا ذاتيًّا، لنفهم ذلك جيّدًا، وإنّما هو انزعاجٌ من نفسه. هناك فروقاتٌ، أليس كذلك؟

«بدأنا بترديد أغاني التّانغو، أغاني التّانغو القديمة، ربّما كشكلٍ من أشكال تمجيد الحنين. ولكنّ رفيقةً أكثر واقعيّة، مثلما هو حال كلّ النّساء، كانت أذنها، رغم صوت الأغاني المرتفع، ملتصقةً بصوتِ محطّة الرّاديو. كان الوضعُ حينئذٍ على هذا النحو: نحن نستمع إلى أغاني كارلوس غارديل وهي تستمع إلى إذاعة الـBBC. وفجأةً قفزت من مكانها: فازت «لا»! فازت «لا»! بنسبةٍ أكبر من ستّين في المائة! وعندئذٍ تركنا، دون مقدّماتٍ، المسكين غارديل والتصقنا نحن أيضًا بالـBBC، الّتي أكّدت لنا الخبر».

في ذلك اليوم، 30 من نوفمبر في مدينة مايوركا، وصلني الخبر أنا أيضًا عن طريق الـBBC، ولأوّل مرّةٍ في حياتي بدت لي تلك اللّغة الإسبانيّة السّليمة والصّافية، تلك اللّغة الوسيطة بين لكنة مدينة غوادالاخارا المكسيكيّة ولكنة منطقة أشوايا الأرجنتينيّة، في غاية الرّوعة.

«وخرجنا إلى الشّارع نحمل علمًا» يُتابع ألفريدو، «لا أعرف حتّى من أين أحضرناه. كان يجبُ نشر الخبر والاحتفال به. كنّا نطرق أبواب بيوت أبناء بلدنا، ولكن أغلبيّتهم لم تكن قد سمعت مثلنا بالخبر على إذاعتَيْ Mago وBBC، ببساطةٍ لأنّهم ذهبوا إلى أسرّتهم، فيوم الاثنين هو يومُ عَمل. وظنّ الكثيرون منهم أنّ الأمر مجرّد دعابة، ولكن شيئًا فشيئًا أخذوا يقتنعون وانضمّوا إلى الجوقة الّتي باتت تتحمّس أكثر ويعلو صوتها النّشاز أكثر وأكثر. كان الهرج والمرج كبيرين إلى درجة أنّ الشّرطة لم تجد حلاًّ آخر

غير الاقتراب، وهي مندهشة قليلاً أمام ذلك الصّخب في منطقة ألامار، هذه المنطقة الّتي لا تعرف في مثل تلك السّاعة المتأخّرة من اللّيل غير الاستراحة أو ممارسة الحبّ. سألوا، ماذا حدث؟ ماذا يجري؟ وكان العَلَم حجّتنا الرّئيسيّة هناك، ومن خلال ذلك فهموا البقيّة. ولم يطلبوا منّا إلاّ عدم إثارة الكثير من اللّغط ولكن أظنّ أنّهم قالوا ذلك وهم يعلمون أنّه لا أمل لهم في أن نعمل بنصيحتهم. في الحقيقة، لم يتوقّف الاحتفال إلاّ عند بداية طلوع الشّمس».

وفي الأخير كيف كانوا؟ «كانوا مزهوِّين يا صديقي، كانوا مزهوِّين.» يختمُ العجوز ألفريدو، النّحيف والمجعّد والمنتصب، وقد استوى كما في مدينة تاكواريمبو.

السيّد رفائيل
(إزالة الأنقاض)

إنّه أمر غريب. سيخرج ابني من السّجن، سيصل إلى هنا في أيّ يومٍ من هذه الأيّام، وأنا أستقبلُ الخبرَ بشكلٍ طبيعيٍّ جدًّا، تقريبًا كما لو أنّه نتيجة تنبّؤ. أكان حقًّا أمرًا متوقّعًا؟ كم عدد الّذين لم يقدروا ذات يومٍ على تحمّل شعورهم بالضّيق أو سرطانهم أو تاريخهم الشّخصيّ، وماتوا على الرّغم من مكوثهم سنوات أقلّ من سانتياغو في السّجن؟ كم عدد الّذين فقدوا صوابهم بسبب خمود الهمّة أو بسبب العجز؟ ومع ذلك، ومنذ البداية عرفت أنّه سيخرج. ربّما بسبب إحساسٍ غريزيّ أو خفقة قلب رجلٍ مُسنّ. لكنّ الشّيء الأكثر إثارةً للفضول هو أنّه حينما أبلغتني غراثييلا بالخبر، لم أفكّر فيه عند تلك اللّحظة الأولى الكاشفة ولم أفكر فيّ ولا في حفيدتي ولا في المشكلة الضّخمة الّتي تنتظره هنا. لم أفكّر إلاّ في أمّه، فكّرت في مرسيدس. فكّرت فيها كما لو أنّها حيّة، كما لو أنّ اندفاعي المشروع والمعقول هو الذّهاب ركضًا لإخبارها، لأقول لها إنّه بإمكانها عمّا قريب احتضانه وعصره بين ذراعيها

ولمس خدوده والبكاء على كتفه، وأشياء أخرى. وهكذا انتبهت إلى أنّه بالرّغم من السّنوات الّتي مرّت، وبالرّغم من وجود ليديا اليوم، ووجود أخرياتٍ كُثرٍ بالأمس وأوّل أمس، ما تزال هناك صلةٌ خاصّةٌ تربطني بمرسيدس، باسمها وذكراها، بلباسها البنّيّ الّذي لم تكن تتخلّى عنه، ونظرتها السّاكنة الّتي كانت دَوْمًا ممزوجةً بنقطة تأثّرٍ عميق، ويديها الضّعيفتَيْن ولكن الواثقتَيْن في الآن نفسه، وابتسامتها الّتي لا يمكن الخَلْطُ بينها وبين غيرها، والإلغاز الّذي تكون عليه في أحيانٍ كثيرة، وحرصها اللّطيف على الاعتناء بسانتياغو. أحيانًا يخيّل إليّ، وهي حماقةٌ مثل حماقاتٍ أخرى، أنّها تمنّت لو امتلكَت حجابًا تستطيع من ورائه التّحدّث مع سانتياغو، ومداعبته، ورؤيته، دون أن تزعجها بقيّة العالم، وأنا من ضمن هذا العالم، دون أن تزعجها بفضولها وتبجيلها وريبتها. ولكن بما أنّه لم يكن هنالك بطبيعة الحال أيّ حجابٍ، فقد عانت قليلاً، لا بشكلٍ فاضحٍ وإنّما باعتدال، كما هو أسلوبها دائمًا. لم تكن مرسيدس قبيحة، ولم تكن جميلة. كان وجهها في غاية الخصوصيّة وجذّابا، من المستحيل الخطأ فيه أو نِسْيَانه. وكانت تتمتّع بطيبةٍ معقّدة جدًّا لكنّها مشروعة. الآن، من مسافةٍ بعيدة، إذا أردتُ أن أكون صادقًا بكلِّ وقاحةٍ مع نفسي، ربّما لن أتمكّن من الاعتراف بسبب وقوعي في الحبّ، أو هل وقعت حقًّا ذات مرّةٍ في حبِّ تلك المرأة الرّصينة بشكلٍ مبالغٍ فيه. أقول هذا لنفسي وأشعر على الفور بأنّني غير عادل. من الواضح أنّني وقعتُ في الحبّ. ولكنّني لا

أتذكّر. كنّا نتحدّثُ أقلّ بكثيرٍ من الحديث الّذي يتبادله زوجان عاديّان، ولكنّنا لم نكن بطبيعة الحال زوجين عاديَّيْن. بالمناسبة، تلك الأحاديث القليلة ليست مبتذلة. كانت تربكني كثيرًا، ولكنّني لم أستطع قطّ أن أجعلها تنزعج، أو أصرخ في وجهها، أو أعاتبها على شيء. كانت تبدو دَوْمًا كأنّها شخصٌ طفا لتوّه من غرَقٍ ولم يتعوّد بعدُ بشكلٍ كاملٍ على نجاته من الحادث. كان صعبًا عليّ التّواصل معها، ولكن في المرّات القليلة الّتي تمكّنت فيها من ذلك، كان تواصلاً معجزًا ويكاد يكون سحريًا. أمّا ممارسة الحبّ مع مرسيدس فشبيهةٌ بممارسته مع مفهومٍ لا مع جسدٍ، ولكن بعد المضاجعة، تظلّ وديعةً ومرتعشةً على نحو يجعلُ ذلك الفصل الختاميّ مرادفًا لارتباطٍ أقوى وقعًا من ممارسة الحبّ في حدّ ذاتها. ولم تكن تسترجع ذلك التّعبير ذاته الّذي يبدو على وجوه عارضات الرسّام الإيطاليّ فيليبو ليبّي إلاّ حين تستمع إلى موسيقى جميلة. حين لم يكد يمرّ على زواجنا أكثر من سنتَين، وفي واحدةٍ من اعترافاتها النّادرة الّتي كانت مثل تنازلاتٍ تمنحها أحيانًا لنا، لي ولها في آن، قالت لي «كمْ سيكون جميلاً أن يموت المرء وهو يسمع واحدةً من مقاطع معزوفة «الفصول الأربعة» لـ«فيفالدي». وبعد ذلك بسنواتٍ طويلة، وتحديدًا يوم 17 يونيو سنة 1958 كانت مستغرقةً في القراءة، وبشكلٍ مفاجئ ظلّت ساكنةً إلى الأبد، وكانت مقطوعة «فصل الرّبيع» تصدح عبر الرّاديو لا عبر الفونوغراف. عَلِمَ سانتياغو بذلك، وربّما لهذا السّبب ظلّت كلمة « فصل الرّبيع»

لصيقةً بحياته إلى الأبد. إنّها مثل مقياس حرارته، شفيعته، معياره. وعلى الرّغم من أنّه لا يذكر ذلك إلاّ في حالاتٍ نادرةٍ جدًّا، فأنا أعلم أنّ وقائع العالم بشكلٍ عامٍّ ووقائع عالمه الخاصّ تنقسمُ بالنّسبة إليه إلى وقائع ربيعيّة، وأخرى ربيعيّة قليلاً أو غير ربيعيّةٍ مطلقًا. أفترض بيني وبين نفسي أنّ هذه السّنوات الخمس الأخيرة لم تكن لتبدو له ربيعيّة. المهمّ الآن أنّه سيخرج. هل أخطأت حين نصحتُ غراثييلا بألاّ تكتبَ له حول الواقع الجديد؟ لم يَبْقَ غير اثنَيْ عشر يومًا كي يعرف. وربّما يجب أن تمرّ ستّة أشهر أو ستّ سنواتٍ حتّى أتحقّق بالفعل ممّا إذا كانت نصيحتي صائبةً أو مخطئة. «الحياة تستمرّ»، تقول الأغاني التّافهةُ وتعيد، وإن لم تقل ذلك فهي على الأقلّ تقارب هذا. وبما أنّ الأغاني التّافهة هي الّتي تقول ذلك، فنحن العقلاء نستبعدُ جذريًّا هذا الرّخاوة. ومع ذلك، ففي كلّ ما هو متكلّفٌ نواةُ حقيقةٍ دَوْمًا. الحياة تستمرّ، بالتّأكيد، ولكن ليس لها شكلٌ واحد للاستمرار. لكلّ واحدٍ طريقه واتّجاهه. ولأنّ غراثييلا نفسها حكت لي القصّة وهي مرتبكة، فأنا أعرف الحالة الشّفّافة لهذين الزّوجين، آنخيل وكلاوديا، ولديّ انطباعٌ بأنّ آنخيل كان تلميذي. بالنّسبة إليهما، استمرّت الحياة بذلك الشّكل الحنون والمؤثّر. ولكن هذا ليس قانونًا. هو مؤثّر وحنون لأنّه حصل تحديدًا دون عنفٍ داخليّ، بحتميّةٍ طبيعيّة إلى أقصى درجة. وأنا أثق في سانتياغو. أعتقد أنّه، على الرّغم من حبّه وإعجابه الكبيرَيْن بأمّه، فإنّه ورث عنّي في العمق أشياء أكثر ممّا أخذ منها.

أتخيّل ماذا كنت سأفعل، ماذا سيكون موقفي في وضع مثل هذا. ولذلك أثق في سانتياغو. معلوم أنني في سن السابعة والستين، وهو في الثامنة والثلاثين فحسب. ولكن توجد بياتريث الصّغيرة، وهي طفلةٌ رائعة، ولا شكّ في أنّها ستملأ حياة سانتياغو الجديدة. وإلى غاية الآن احتفظتُ لنفسي بتلك الحكاية، ولكن بالأمس حكيتها لليديا. استمعَت إلى مونولوجي الطّويل دون أن تقاطعني ولو مرّةً واحدة. كان يتنازعها شعوران متناقضان، وهكذا اعترفت لي فيما بعد. كانت تستمتع ببرهان الثّقة. همستْ لي: «أعتقد أنّنا منذ هذه اللّيلة قد تقاربنا بشكلٍ أكبر، أعتقد أنّنا أصبحنا زوجًا». ربّما. ولكن أقلقها قلقي، فبقيتْ صامتة. استدارت وفكّت واحدةً من خصلات شعرها الجميلة السّوداء عدّة مرّاتٍ، وبعد ذلك قالت «اتركهم، نعم اتركهم، لا تتدخّل إلاّ إذا طلبوا منك ذلك، اتركهم وسترى أنّ الحياة ليست كما تقول، إنّها لا تكتفي بالاستمرار، وإنّما تتكيّف أيضًا وتنتظمُ من جديد». ربّما هي محقّة. تركنا كلّ هذا الزّلزال عُرْجًا، وغير كاملين، وفارغين جزئيًّا، ومصابين بالأرق. لن نعود أبدًا كما كنّا سابقا. وسيعرف كلّ واحدٍ منّا هل صرنا أفضل أم أسوأ. مرّت بنا عاصفة من الدّاخل، وأحيانًا من الخارج، إنّها ريح عاتية، وللهدوء السّائد الآن أشجارٌ ساقطة وأسقفٌ متهدّمة وأسطح بناياتٍ دون هوائيّات وحطام، الكثير من الحطام. علينا أن نعيد بناء أنفسنا. بطبيعة الحال: علينا زرع أشجارٍ جديدة، ولكن ربّما لن نحصل على سيقان الأشجار ذاتها والبذور نفسها

في المشتل، وعلينا تشييد بيوتٍ جديدة. هذا رائع، ولكن هل من الجيّد أن يقتصر المهندس المعماريّ على أن يصنع من جديدٍ وبكلّ إخلاصٍ التّصميمَ السّابق نفسه، أم هل سيكون أفضل بكثيرٍ أن يعيد التّفكير في المشكلة وأن يرسم تصميمًا جديدًا، تراعى فيه احتياجاتنا الحاليّة؟ علينا رفع الأنقاض، في حدود ما هو ممكن، إذ ستكون هناك أيضًا أنقاضٌ لن يتمكّن أيّ شخصٍ من رَفْعِها من القلب ومن الذّاكرة.

خارج الأسوار
(المرجو ربط الأحزمة)

ها قد انطفأ ضوء إشارة «المرجوّ ربط الأحزمة» أي أنّني أستعيدُ حياتي. مضيفة الطّائرة جميلة/ حين تقدّم لي عصير البرتقال أجدُ أظافرها مطليّةً بلونٍ ورديٍّ شاحب محتشم، ومعتنى بها تمام العناية/ أنتبه إلى أنّ قبّعتي تثير انتباهها قليلاً ولكنّني لن أنزعها عن رأسي حتّى لو متّ.

خمس سنواتٍ وشهران وأربعة أيّام ومازلت موجودًا، يا الله، إنّها ألف وثمانمائة وتسع وثمانون ليلة.

أحتاج إلى النوم طويلاً، ومع ذلك أريد أن أستمتعَ بهذا التّغيير استمتاعًا كاملًا/ معرفة أنّ بإمكاني نزع حزام السّلامة ووضعه، ونزعه ووضعه برصانةٍ وأنا أسمع همس أزيز المحرّك/ لا أحد من بين ركاب الطّائرة الثّلاثمائة يستمتع بالأزيز النّفّاث مثل هذا الخادم.

تترك لي مضيفة الطّائرة جريدةً وأطلب منها واحدةً أخرى/ عندها تنظر إلى القبّعة وتترك لي الجريدَتَيْن/ هكذا، أيّ قنبلةٍ

نيوترونيّة آه! ستبقى السّجون لا السّجناء، ولكن ستبقى الملايين ولا المليونيرات أيضًا/ ستبقى المدارس لا الأطفال، والمدافع أيضًا لا الجنرالات/ آه! والصّاروخ الّذي سينطلق من هامبورغ قد يسقط في موسكو، ولكن من الممكن ألاّ يسقط الردّ في هامبورغ وإنّما في أوكلاهوما، تغييرات، تغييرات، تغييرات.

أشعر بحاجةٍ قويّةٍ إلى النّوم ومع ذلك أريدُ أن أتذكّر كلّ وجوه أقربائي وأصدقائي هناك / من بقي منهم / هانيبال ليس مجرّد رقم، إستيبان ليس مجرّد رقم، روبين ليس مجرّد رقم/ أرادوا تحويلنا إلى أشياء ولكننا تمكّنا من إقْضَاضِ مضجعهم، نحن لا نقبل أن نتحوّل إلى أشياء/ إستيبان أيّها الأخ أنت تملك نَفَسًا طويلاً/ عليك أن تساعد من فقدوا الحماسة/ آه! ولكن أنت من سيساعدك!

يا له من حقدٍ ومع ذلك لم أرغب في أن تتقطّع أوصالي فيه، أن أضيّع نفسي فيه/ خلال السّنوات الأولى سقَيتهُ يوميًّا كما لو كان نبتةً غريبة/ بعد ذلك فهمتُ أنّني لا أستطيع منحَهم هذا التّشريف. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك أشياء كثيرة لأفكّر وأبرمج وأحلّل وأفعل/ سيتعفّنون لوحدهم هذا أكيد.

استطاعوا أن يجرّوا أندريس إلى الجنون/ ربّما حصل معه ذلك بسبب شعوره بالبراءة أكثر من اللاّزم وإيمانه بالإنسان أكثر من اللاّزم/ كان كلّ شيءٍ يفاجئه دَوْمًا، كان يفكّر في أنّهم وصلوا إلى ذلك الحدّ وانتهى الأمر، وأن ليس بإمكانهم أن يصبحوا أشدّ

قسوة، ولكنّهم أصبحوا أشدّ قسوة/ سأقنعهم، وكان يبدأ بالحديث معهم فيحطّمون فمه/ شعور بالبراءة أكثر من اللاّزم، لذلك جُنّ.

أعرف من ساعةِ المسافر الّذي يجلس إلى جواري أنّني نمتُ أكثر من ساعةٍ/ بإمكاني التّفكير بشكلٍ أفضل الآن / أحسّ بأنّني رشيق وأقرّر الذّهاب إلى الحمّام / هذه الحرّيّة في الذّهاب إلى الحمّام كلّما رغب المرء في ذلك، هي شيءٌ مدهش/ أوّل مرّةٍ أتبوّل فيها وأنا حرٌّ/ بصحّتكم.

المسافر الجالس عن يميني يقرأ صحيفة التّايمز، وعن يساري يوجد الممرّ/ كيف سأجد مزاج العالم، كيف سأجد تكوين العالم وتشويهه؟ سيكون حظًّا في غاية السّوء لو انفجر الكوكب في هذه اللّحظة بعد أن عانقت الحرّيّة.

صغيرتي بياتريث يا للحفل الّذي ينتظرنا/ في الحقيقة أنا لا أعرف بدقّة ما ينتظرني/ من الواضح أنّ هناك مشكلة، أعرف أنّ هناك مشكلة/ في الرّسائل الأخيرة لم تعد غراثييلا المرأة الّتي أعرفها وليس للأمر علاقةٌ بالقراءة بين السّطور/ أحيانًا يبدو لي أنّها مريضة ولا تريد أن تخبرني / أو لعلّ الطفلة مريضة، وهو أمر ينبغي أن يُستبعد، بياتريث يا للحفل الّذي ينتظرنا/ حتّى أبي أصبح غامضًا، في البداية عزوتُ ذلك إلى الرّقابة، أمّا الآن فلا.

خمس سنواتٍ مدّة طويلة/ غراثييلا امرأةٌ فاتنة ولكنّ المنفى صَدْعٌ يتعمّق كلّ يوم/ غراثييلا امرأةٌ فاتنة ولدينا الكثير من الماضي

المشترك، ولهذا وزنه/ حقًّا أنا أحبّها، وكيف لي ألاّ أحبّها، ولكن هذا الشكّ المجنون قليلاً لا يخدم الحبّ، وأغلب الظنّ أنّني غير محقّ.

لقد أجابني أبي برسالةٍ مشفّرة حين طرحتُ عليه موضوع إميليو/ كان ذكيًّا ولكن منطقيًّا، وعلى شيء من الغموض، رغم أن لديّ انطباعًا بأنّه تفهّم الأمر فعلاً، والآن أنا أفضل حالاً، لم أعد أحلم بإميليو الّذي كان يلعب معي/ تحدّث معي هانيبال مطوّلاً عنه، دون أن يعرف أيّ شيء عن التّفاصيل بطبيعة الحال/ هو عانى منه شخصيًّا/ يبدو أنّ إميليو كان وحشًا بكلّ ما تحملهُ الكلمة من معنى.

كم هو جميلٌ صوت هذا الأزيز / أيّها السّادة أنا أطير.

تبتسم لي مضيفة الطّائرة، وأبتسم لها أنا أيضًا/ ربّما أعجبتها قبّعتي كثيرًا، ولكنّني لن أنزعها عن رأسي، هذا ما كان ينقص.

فيمَ كانت أمّي ستفكّر حيال كلّ هذا / ربّما من الأفضل لها أنّها لم تره ولم تشعر به / كانت تتكلّم قليلاً، ولكنّها بالفعل تتكلّم معي/ بينها وبين أبي مساحةٌ لا يشغلُها أحد، ولكنّهما يتجاوزانها في بعض الأحيان، أحيانًا يتجاوزها هو وأحيانًا أخرى تتجاوزها هي / كان أبي على شيءٍ من الحيرة دَوْمًا، ولكنّ أمّي تجد متعةً في أن تقول لي سرًّا كم كانت تحبّه / بعد أن تجعلني دَوْمًا أقسمُ بألاّ أفتحَ فمي أبدًا/ جميلة هي هذه العجوز أمّي، أمّي الّتي مازلت أشتاق إليها.

بعد هذه الأعوام الخمسة من الشّتاء لا أحد سيسرق منّي فصل الرّبيع.

فصل الرّبيع هو مثل مرآة، ولكن لِفَصْل ربيعي زاوية مكسورة/ لم يكن بالإمكان تجنّب الأمر، ما كان له أن يظلّ كاملاً بعد هذه السّنوات الخمس المكثّفة/ ولكن حتّى إن كان بزاويةٍ مكسورة، فالمرآة تنفع، وفصل الرّبيع ينفع.

كان نيرودا الماكر يسأل في إحدى قصائده «والآن يا فصل الرّبيع قل لي فيمَ نفْعك ومن تنفع» لحسن الحظّ أنّني تذكّرت/ فيم نفعك/ أنا سأقول إنّك تنفع لإنقاذ المرء من أيّ بئر/ الكلمة وحدها بمثابة شَعِيرَة للشّباب/ ومن تنفع، حسنًا، انطباعي المتواضع يقول إنّك تنفع الحياة/ مثلاً أنطق ببساطةٍ كلمة فصل الرّبيع وأشعر بأنّني قادرٌ على الحياة ومتحمّسٌ وحيّ.

يبدو أنّني حرّكتُ شَفَتَيّ حين نطقت كلمة فصل الرّبيع، لأنّ المسافر الّذي يجلس عن يميني نظر إليّ بفزعٍ/ مسكين/ لديّ انطباعٌ بأنّه لا يعرف إلاّ قول كلمة فصل شتاء/ وبالإضافة إلى ذلك، لعلّي كنتُ بصدد ترديد أدعية، فاللّعنة، هي أمور مازالت تستعمل.

زاوية مكسورة/ ربّما كسرتها غراثييلا الجديدة، غراثييلا البعيدة، ولكن هذا بالتّأكيد جنون، وهي ستنتظرني في المطار مع بياتريث وأبي/ كلّ شيء سيبدأ من جديد بطريقةٍ عاديّة وطبيعيّة، بالرّغم من أنّ للمرآة في فصل الرّبيع زاويةً مكسورة، ستكون كذلك، من المؤكّد أنّها ستكون كذلك.

حالمَا أستطيع سأشتري لنفسي ساعة يد.

تقدّم لي مضيفةُ الطّائرة طبق الطّعام، وبالنّظر إلى وضعي المعوز الجليّ وخروجي للتوّ من غياهب السّجن أكتفي بطلبِ مشروب كوكاكولا، ليس الأمر شكلاً من أشكال التّنازل الأيديولوجيّ وإنّما لأنّه يقدّم مجّانًا/ سلَطة، محّار، شريحة لحم، خوخ مغطّى بعسل السّكّر/ يمتلئ فمي باللّعاب غير مصدّقٍ/ جميلة هي الملعقة، أرغب في الاحتفاظ بها لأحسّ مرّةً واحدةً أنّني منحرفٌ عاديّ.

بعد التّفكير مليًّا في الأمر أظنّ أنّه ليس أمرًا خطيرًا أن تكون غراثييلا في رسائلها الأخيرة قليلة الكلام وباردة/ قريبًا سيُتاح لي التقرّب منها مرّة أخرى/ الفصل الأوّل: سأقبّلها/ كم مرّة تجادلنا بصوتٍ مرتفعٍ وفجأةً نتبادل النّظرات في ذهولٍ، وعندها أقتربُ وأقبّلها فيستعيدُ العالم نِظامه من جديد، أو من الأفضل القَوْل يعود ليصبح في فوضى رائعة/ ومع ذلك كانت تستمرّ خلال فترةٍ ليست بالهيّنة، رغم أنّ فمها مغطّى بفمي، في لومي لسببٍ لا أعرفه، ولكن في كلّ مرّةٍ بنعومة أكبر وبشكلٍ أحنّ، وكانت تنتهي بالهمس، وفي الأخير تبادلني القبل / الفصل الثّاني: سأقبّلها/ في الحقيقة مرّت خمس سنواتٍ لم أقبّل فيها أيّ شخصٍ / هذا وحده كافٍ ليتسبّب في جنون أيّ واحدٍ منّا.

خمس سنواتٍ وشهران وأربعة أيّام، هي على الأرجح وقتٌ طويل كثمنٍ لخطإٍ مّا/ إنّها تقريبًا ثمن حياتي المُعاشة / أنا أخطئ

إذن أنا موجود، قال ذات مرّةٍ سان أغوستين المخطئ / أحيانًا أفكّر ما الّذي كان سيحصلُ لي لو كنتُ عاملاً ولم أكن عضوًا محترمًا في قطاع الخدمات الملعون / كنتُ سأذهب إلى السّجن أيضًا / بكلّ تأكيد/ وربّما كنتُ سأتأقلم بشكلٍ أفضل، لِنَقُل مع الطّعام/ أمّا مع آلات التّعذيب فلا، لا أحد يعتادُ ذلك / لنرَ ما الفرق الموجود بين ضميري الطّبقيّ والضّمير الطّبقيّ لشخصٍ بروليتاريّ/ على كلّ حالٍ أنا أيضًا عامل، ولكن من الواضح أنّ هناك شيئًا مثل العادة، إنّه المجال العائليّ/ هانيبال بروليتاريّ وخايمي أيضًا / بالنّسبة إلى العسكر كانا مجرّد رقمَيْن مثلنا/ لا يعرفون تمييز الفوارق/ يجبُ تعليمهم على الأقلّ أنّ هناك أرقامًا عربيّة وأخرى رومانيّة/ بهذه المقارنة يمكن أن نتعلّم جميعًا، وكنّا بالفعل نتدبّر أمورنا بأنفسنا.

من الواضح أنّ شخصًا بروليتاريًّا يكون دَوْمًا أكثر وثوقًا، ومن الصّعب السّماح بأن يُجرّ إلى المنحدرات الذّهنيّة الوعرة الّتي نتراجع نحن إليها في العادة/ ولكن عند السّاعة الّتي يجب أن نكون فيها أوفياء، يمكننا جميعًا أن نصبح كذلك/ أنا أقول إنّ هذا ما يخطر لي/ هم ربّما يفعلون ذلك بشكلٍ أكثر عفويّة وأكثر تواضعًا، أمّا نحن فسنكون كذلك بعد أن نشرح لأنفسنا بشكلٍ عميقٍ التّضحية المفترضة، وبعد أن نُخرج من جعبتنا كلّ المبادئ الّتي جمعناها / وبعد أن نستحضر بلا مللٍ كلّ الأسباب النّبيلة الموجودة والكفيلة بجعلنا نصمت./ البروليتاريّون لا يُعقّدون حياتهم إلى هذا الحدّ / يعانون وكفى / يعانون وإلى اللقاء.

يجب العودة ولكن إلى أيّ وطن، إلى أيّ أوروغواي، هو أيضًا بزاويةٍ مكسورة، ومع ذلك فإنّه سيعكس حقائق أكثر، مقارنةً بالماضي، حين كانت المرآة عذراء/ يجب العودة، ولكن إلى أيّ فصل ربيع/ لا يهمّ في أيّ حالةٍ مفجعةٍ سيكون، ولكنّني أريدُ استرجاع فصل ربيعي/ هم غطّوه بأوراقٍ جافّة، بثلجٍ يُذاع في التّلفزيون، ببابا نويل يتصبّب عرقًا، بتلاميذ الضّابط ميتريوني، بالفوز ببطولة كأس العالم المصغّرة، وبخسارة بطولةٍ أخرى، بمساعدين يساهمون في التّخلّف، ولكن ما يجهلونه هو أنّ تحت تلك الطّبقات من القذارة ما يزال هناك الرّبيع القديم والرّبيع الجديد، ربّما بزاويةٍ مكسورة، ولكن بحقولٍ من القمح والأشجار العملاقة ورقصات التّانغو الممنوعة والمسموح بها وأغاني المغنّي الشّهير خيرباسيو، ومركزيّاتٍ عمّاليةٍ ومراعٍ، وتمرّداتٍ وقانونٍ مؤقّت، ولجانٍ قاعديّةٍ وشَعْبٍ لا يمكن التّحكّم فيه، ومجرّة درب التبّانة واستقلال الجامعات وشايٍ مرٍّ، وبالاستفتاء وفريق كولومبيس/ يجب العودة/ طبعًا/ والأوروغواي بزاويةٍ مكسورةٍ سيُظهرُ دون غرورٍ ما تبقّى من ذلك العضو المبتور في خطٍّ مستقيم، والعالم سيصغي ويفهم ويحترم.

أخذوا طبق الطّعام، والآن تؤلمني رُكْبَتاي قليلاً، ما هو الوضع الملائم لأستمتع بأنّ ركبتيّ تؤلمانني. يبدو لي جيّدًا أن تؤلمني ركبتايَ.

ساقا غراثيلا، فخذا غراثييلا، غابة غراثييلا الصّغيرة.

ماذا يفعل رفاقي الآن يا ترى؟

بينما يستمرّ الصّوت النّاعم للأزيز المنوّم، نام صاحب جريدة التّايمز على كتفي/ كنتُ أعتقدُ أنّني أستحقّ حظًّا أفضل/ لحسن الحظّ وبفعل صدفةٍ سعيدةٍ، تعطس فتاةٌ كانت تجلس عن يمينه بقوّةٍ/ فيستفيق الجار فَزِعًا ويعتدلُ في جِلْسَته وهو يهمهمُ بكلمة آسف/ تسقط جريدة التّايمز في اتّجاهي فأعيدها إليه/ في السّجن كان بإمكاننا قراءة مجلّة «كلاوديا»، يا للفرق الشّاسع، لا أعرف ممّا يشتكي الصّليب الأحمر/ سيكون من اللاّزم النّوم، ولكنّني واثقٌ من عدم استنادي أنا أيضًا إلى كتفِ جاري الحادّ.

لا أستطيع/ يبدو أنّ النّوم جفاني الآن/ ما حدث هو أنّ القبّعة تُسبّب لي حكّة ولكنّي أقسم بأنّني لن أنزعها عن رأسي.

يجب البدء من الصِّفر، كما لو كُنتُ حديث الولادة، وقد كنتُ كذلك بالفعل/ كما الشّعيرات الجريئة حديثة الولادة الّتي تختبئ تحت القبّعة.

لنرَ ما الّذي أرغبُ في امتلاكه/ بكلّ صراحة/ الأولويّة الأولى هي شراء ساعة يد/ بعد ذلك قلمٌ يكتب/ ويا للعار، لعبة بينغ بونغ مع شبكة وكلّ ما يلزم/ كيف كنّا نلعب هناك في منتجع سوليس، مع سيلفيو ومانولو، وماريا ديل كارمن أيضًا، كانت تلعب بشكلٍ جيّدٍ صديقتنا القصيرة القامة/ تمسكُ بالكرة دَوْمًا على الطّريقة الصّينيّة، وتمنح الكرة الصّغيرة فاعليّةً لا توصف/

رولاندو لم يكن كذلك/ كان ينظر ساخرًا من أحد الجوانب ويردّد دَوْمًا اللاّزمة نفسها/ «أنا لا أفهم يا صديقي كيف يمكن لأشخاصٍ بكلّ هذه البلادة والقدرة على الجدال أن يأخذوا على محمل الجدّ تلك الكرة البلاستيكيّة الصّغيرة»/ وكان سيلفيو بين تسديدةٍ وأخرى يذكّره، «اسمع، القائد ماو تسي كان بطلاً»/ «لهذا لا يمكن أن أكون من أتباع ماو»، يجيبُ رولاندو/ «لا تجعلوني أفقد تركيزي»، تصرخُ الصّديقة القصيرة القامة، «في هذه اللّعبة لا بدّ من التّركيز كما في الشّطرنج»/ «كما في الشّطرنج وفي القذف الخارجيّ عند الجماع»، يجيبُ رولاندو غاضبًا/ «خنزير، خنزير من النّوع الكبير»، كانت الصّديقة القصيرة القامة تصيحُ مرّةً أخرى، «لا تجعلوني أفقد التّركيز، النّحيف يتفوّق عليّ في النّتيجة بخمس نقاط»/ لكن لا أنا ولا النّحيف تمكنّا من الفوز عليها مطلقًا بأكثر من إحدى وعشرين مقابل تسع عشرة نقطة.

وأريدُ أيضًا أن أتكلّم وأسمع، وأتكلّم وأسمع/ لا مزيد من تلك الحِوارات المتقطّعة مع هانيبال أو إستيبان، وقد كانت في بعض المناسبات تستمرّ شهرين، موزّعةً على أربعة أنصاف السّاعة/ ثلاثين دقيقة كلّ خمسة عشر يومًا في أوقات الفُسحة.

رونالدو شخصٌ رائع/ بأغاني التّانغو الخاصّة به، بنسائه، بتقلّبه الدّائم، إلى أن تَسَيّسَ، أو من الأفضل القول إلى أن سيّسناه، ولكن اتّضح أنّه إنسانٌ شريف/ كان يقول عن نفسه إنّه عازب غير نادم/ من يدري أما يزال لا يُقهر إلى الآن/ سيسقط ذات يوم،

سيسقط ذات يوم/ كيف أعَرّفهُ/ هو شخصٌ هامشيٌّ أنيق/ فارسٌ مفلسٌ/ يقول مانولو إنّه دوقٌ فَقَدَ حظوته، وفي الأخير صرنا جميعًا نناديه بالدّوق، وبما أنّه في حالات الرّهافة يطلبُ سلطة هندباء أو لا شيء فَقَدْ ألحقَ به سيلفيو لقب النبالة وهكذا التصق به إلى الأبد لقب «دوق الهندباء»/ وكان ذلك اللّقب يُعجبهُ كثيرًا/ ذات مرّة في مدينة الشخا قدّموا له زوجة دبلوماسيٍّ نرويجيّ كانت قد وصلت للتوّ، فقبّل يدها وتمتم بحسن ذوقٍ متناسيًا السّروال القصير ونعل الخيش، «أنا دوق الهندباء سيّدتي، في خدمتك»، وكان ذلك، بطبيعة الحال، مصدر ذهولٍ كبيرٍ بالنّسبة إلى الإسكندنافيّة المسكينة.

ركبتي ما تزال تضايقني/ ربّما هو إنذار التهاب المفاصل مرّةً أخرى/ لكنّني سأحرص الآن على ممارسة الرياضة، وبعد السّتّة أمتار المربّعة الّتي عشتُ فيها، سيبدو لي أيّ إصطبلٍ كأنّه صالون الخطوات الضّائعة.

أنا سعيد/ لا أعرف هل يبدو عليّ ذلك، ولكنّني سعيد/ آمل ألاّ يبدو عليّ/ الجالسُ عن يميني سيعتقدُ أنّني قرصان جوٍّ/ وأنا قرصان أرضٍ يا سيّدي، أنا قرصان أرض/ كم هو مثيرٌ للفضول، القراصنة الوحيدون الّذين مضى زمانهم بلا رجعةٍ هم قراصنة البحر/ على شاكلة مسلسل القراصنة «ساندوكان» ومسلسلات أخرى شبيهة به.

الأصدقاء، اللّعنة/ لن أرى سيلفيو من جديد ولكن سألتقي برولاندو ومانولو/ حسنًا، يبدو أنّ الدّوق في المكسيك/ عظيم/

مانولو في غوتنبرغ/ لقد انفصل عن تيتا/ وعلى الأرجح كلاهما محقّ/ الذّنب ليس فيهما/ بل في هذه الهزّة الّتي مرّغتنا جميعًا/ بالإضافة إلى أنّ المنفى يثبّط العزيمة ويَسْحَقُ/ المنفى هو آلةُ تعذيبٍ أيضًا/ ولكن يجب إلصاق ذنب كلِّ خيبة أملٍ وكلّ غمٍّ بأحد مّا وبطبيعة الحال، تتمّ الإساءة إلى القريب الأقرب إلينا/ لَيْتَنَا، غراثييلا وأنا، نأخذُ العبرة من هذا/ لديّ رغبةٌ في رؤية البحر.

على كلّ حالٍ، خرجت أفضل حالاً ممّا كنتُ عليه حين دخلت، يا له من أسبوعٍ أوّل/ حسنًا، هذا يكفي، هذا يكفي، أنا الشّخص نفسه وأنا شخصٌ آخر/ وهذا الآخر أفضل، يُعجبني هذا الآخر الّذي تحوّلتُ إليه.

لا يوجد فصل الرّبيع هناك في متناول اليد، ليس بعدُ/ فصل الرّبيع لن يصل غدًا ولكن ربّما بعد غد/ رونالد ريغان صاحب القنابل النّيوترونيّة العنيد لن يستطيعَ مَنْعَ وصول فصل الرّبيع بعد غد.

رائحة الإبط هذه ليست لي.

تفكيرٌ عميق/ للوحدة الأمريكولاتينيّة في هذه اللّحظات محرّكان أساسيّان/ إنّهما ريغان وحرف Z/ من النّهر الكبير إلى أرض النّار، نرفض الغبيّ ولا ننطق حرف Z.

آه، ولكنّ الوحدة الأخرى ليست دعابة/ بطبيعة الحال/ فالسّجن يوحّد، السّجن يُنهي كلّ الشّقوق/ ولكنها لا يجب أن تكون الصّيغة المثلى/ على ما أظنّ.

أحيانًا كان يتملّكني الخوف، لماذا سأنكر/ خوفٌ عليّ معه أن أبتلع صيحاتٍ/ ليس خوفًا واحدًا وإنّما مخاوف كثيرة/ خوفٌ من احتقار نفسي، من أن أفضّل الموت، من أن أبقى دون العالم/ دون العالم ودون خصيتَيْن/ من أن أنتهي مثل خرقةٍ بالية/ إنّه أمرٌ مفزع أن يتملّكك كلّ هذا الخوف، ولكنّ الأشدّ فزعًا هو أن تضطرّ إلى ابتلاع الصّيحات.

وبعد ذلك يتلاشى الخوف، وحتّى فكرة أنّني لامسته تبدو كذبة/ وكنتُ أستطيع بعدها أن أشعر بأنّني شجاعٌ ورصين/ استطعت أن أشعر بذلك فيما بعد/ وتغيّرتُ كثيرًا حتّى أمكنني اختبار نوع من الازدراء تجاه شخصٍ آخر كان يشعرُ بالخوف وعليه ابتلاع الصّيحات/ شخصٍ في لحظة مّا، سيكون عليه دَوْمًا وحينما يتوقّف عن الصّياح فقط، أن يتجاوز تلك اللّحظة البائسة، وسيكون عليه أن يُحسّ بأنّه شجاعٌ ورصينٌ إلى حدّ يقدر فيه على اختبار نوعٍ من الازدراء إزاء شخصٍ آخر، عليه أن يبتلع الصّيحات وهو في فخّ خوفه...

الخوفُ هو الهاوية الأسوأ، وليس بإمكان المرء الخروج من البئر إلاّ وهو يمسكُ بشعره ويسحبُ نفسه إلى الأعلى/ شيئًا فشيئًا سيأخذ في تعلّم ألاّ يشعر بالخوف من الخوف/ شيئًا فشيئًا بإيقاع بطيء/ وحين يُجابه المرء الخوف، سيَهرب الخوف.

تمرّ مضيفة الطّائرة صاحبة الأظافر المطْليّة باللّون الورديّ

الشّاحب، عارضةً سمّاعات الأذنين للّذين يرغبون في مشاهدة الفيلم/ ولكنّ ذلك ليس كرمًا من المضيفة/ فثمن استعمال السّمّاعتين دولاران ونصف، وأنا فقيرٌ وقور، أو وقورٌ فقير، لا يهمّ، الأمر سيّان/ أقول لها لا، كما لو أنّني لا أرغبُ إلاّ في النّوم/ ربّما أرغب.

الحزنُ شيءٌ مريعٌ أيضًا/ ليس حزن الواحد منّا بمفرده وإنّما حزن الآخرين أيضًا/ ما الّذي يمكن فعله على سبيل المثال أمام زميل الزّنزانة، رجل ضخم الهيئة مثله، حينما ينتفض فجأةً وينتحب في منتصف العتمة الأبديّة لِلَيالي السّجن/ من يعرف ماذا يتذّكر، إلامَ يحنّ، أو عَلامَ يتأسّف، أوممَّ يعاني/ يَنْفَذُ النّحيب الأخويّ إلى المرء مثل رذاذٍ عنيد، من المستحيل الاختباء منه/ وما أن يبدأ المرء في النّزول نحو الأسفل حتّى تشرع الأحزان الشّخصيّة في الاستيقاظ واحدا تلو الآخر/ الأحزان مثل الدِيَكَة/ يصيح واحد منها وعلى الفور تحسّ البقيّة بالإلهام/ وبهذا الشّكل وحدَه ينتبه المرء إلى أنّ المجموعة ضخمة، بل إنّه ينتبه أيضًا إلى أنّ له أحزانًا مكرّرة.

تدور أحداث الفيلم حول عازفي بيانو/ يبدو أنّ الأمر متعلّق بمسابقةٍ عالميّةٍ لشبابٍ موهوبين/ العزف على البيانو دون صوتٍ لا يبدو مثل موسيقى وإنّما مثل نشاطٍ رياضيّ/ وفضلاً عن ذلك، بطلا الفيلم عَازِفَا بيانو/ الشّابّة المعتنية بمظهرها والشابّ المهمل في لباسه/ في الجزء الأوّل تُسيطر هي ويتبادلان قُبَلاً بعناية، ولكن في الجزء الثّاني يُسيطر هو، ويتبادلان قُبَلاً مُهملة/ وأنا الّذي لم أُقَبِّل منذ خمس سنواتٍ لا بالطّريقة الأولى ولا بالطّريقة

الثّانية/ الفيلم طبعًا أمريكيّ ولكن تبدو إحدى الشّابّات اللّواتي يتنافسن سوفياتيّة ولا شكّ، إذ يُرافقها دَوْمًا اثنان من أولئك الممثّلين من السّلالة الإسكتلنديّة وهم الّذين كانوا يؤدّون من قبل أدوار النّازيّين ويؤدّون الآن أدوار الرّوس، وبالإضافة إلى ذلك فمعلّمة الشّابّة الموهوبة تطلب اللّجوء علنًا، رغم أنّ ذلك الفعل سيضطرّها إلى التغلّب على المحبّة الكبيرة الّتي تلهمها إيّاها تلميذتها العبقريّة، وقد أصبحت بتأثير سيّئ من الماركسيّة اللّينينيّة إنسانًا آليًّا بضفيرة/ النّهاية حامية ولكن كان الفوز من نصيب البيانو الغربيّ والمسيحيّ/ بتأنٍّ، بتأنٍّ.

جعلني الحفلُ الصّامتُ أشعر بالنّعاس/ إنّه لمن المدهش أن تراهم يضربون على الآلة الموسيقيّة في الشّاشة الصّغيرة بتلك الطّريقة، بينما لا يسمع المرء شيئًا كأنّما هو جدار/ حقًّا ليس هناك من هو أكثر صممًا ممن يريد أن يسمع.

هناك أيضًا فكرة الموت/ إنّها تأتي وتذهب/ أحيانًا تلتقي مع الخوف وأحيانًا لا/ في حالتي لم تكن تلتقي عمومًا مع الخوف/ في نهاية الأمر، الألم يسبّب خوفًا أكثر من الموت/ حتّى إنّه بالإمكان ترقّب الموت كمسكّنٍ نهائيّ، ولكن تبقى دَوْمًا قطعةٌ صغيرة من فصل الرّبيع لتُقاوم.

أرغب في الجلوس مع أبي لنتحدّث أسبوعًا/ أرغب في أن أحدّثه بكلّ ما لم أحدّثه به في السّنوات الماضية/ وأن أعرف ما تعلّمه في هذه الفترة، وأن يعرف هو أيضًا ما تعلّمتُه/ أن نفكّر بطريقةٍ

مختلفةٍ في أشياء كثيرة، ولكن أن نعلم بالاختلافات هو أيضًا شكلٌ من أشكال تذليلها.

خلال خمس سنوات، كانت الشّمس أكثر ما يبعث فينا الحيويّة.

ما أبعدَ الطفولة والمدرسة والمعارك الطّلابيّة والعمل والرّواتب الآن/ يبدو لي أنّها أشياء تخصّ شخصًا آخر/ أحيانًا أتذكّرها حتّى بتفاصيلها، ولكن كما لو أنّ أحدًا كان قد حكاها لي في ليلة ضبابٍ كثيف.

حدث في بوينس آيرس، والصغيرة بياتريث لم تولد بعد، حدث في بوينس آيرس حين قالت لي غراثييلا: «بالنّسبة إليّ، ألاّ تكون معي هو أمرٌ لا يُتصوّر»/ ذات مساءٍ ماطرٍ ونحن نسير في شارع لابايي متلاصقَين جدًّا ونستعمل المظلّة الوحيدة، حين كان كلّ سكّان المدينة خارجين من قاعات السّينما.

الدّليلُ الوحيد على وجود الله بالنّسبة إليّ هو ساقا غراثييلا.

في السّجن خَطَرَ للكثيرين أن يكتبوا أبيات شعر/ أمّا أنا فلا/ كان يخطر لي أن أغنّي تانغو دون صوت، صامتًا، صامتًا، في صمتٍ تامٍّ، وكم خرجت تلك الأغاني جميلةً، ومع ذلك لم أكن أتفاخرُ بالأمر مطلقًا.

كي لا تشي بأحد، كي لا تضعف أبدًا، يجب أن تشيّد سياجًا وتكون واعيًا بأنّك حتّى إن تعذّبت، أو خفت، أو تقيّأت، يجب أن تدافع عن السّياج حتّى الموت/ شكرًا يا جون فورد.

حين يكون المرء حرًّا طليقًا ويكون شخصًا متوجّسًا فإنّه يشعر فجأةً بآلامٍ متخيّلة ويَعتقدُ أنّها حقيقيّة/ الأمر مختلفٌ في السّجن/ حين يشعر أحدهم بألمٍ حقيقيّ يجب عليه أن يفكّر في أنّه ألمٌ متخيّل/ أحيانًا يكون ذلك عاملًا مخفِّفًا.

في الخارج كي يتحقّق الشّعور بالتّضامن يجب جمع ألف شخصٍ وجمع التّبرّعات والشّكايات وحقوق الإنسان/ وفي مقابل ذلك، فإنّ التّضامن في الدّاخل يمكن أن يكون بحجم نصف قطعة بسكويت.

حين ينظر العرفاء أو الجنود من ثقبِ مراقبتنا الصّغير، لا أستيقظ البتّة، ولا أعيرهم أيّ انتباه/ لا أستيقظ إلاّ بعد الثّانية مرعوبًا، حينها يكون الضّبّاط هم الّذين يراقبوننا.

لنفترض أنّني أصل إلى المطار وليس هناك أيّ أحدٍ في انتظاري/ لا شيء من هذا/ امحُ وابدأ حسابًا جديدًا/ لنفترض أنّ غراثييلا وأبي وبياتريث الصّغيرة سيكونون هناك.

كان لعبُ مباراة كرة طائرة أو كرة قدم مهمًّا جدًّا مثل تأسيس سلالةٍ ملكيّة أو اكتشاف قانون الجاذبيّة.

في المجموع بقيتُ معزولاً عن العالم عشرين يومًا/ يخرج المرء من هناك، أي من الجزيرة الشّهيرة، إمّا مجنونًا وإمّا أكبر قوّة/ أنا خرجتُ أكبر قوّة ولكنّ المؤسف هو أنّني لم أكتشف الطّريقة الّتي أصبحت بها كذلك.

تمرّ مضيفة الطّائرة بين النّائمين صامتةً تماما إلى درجة أنّهم يستيقظون جميعا تقريبًا ويطلبون المعذرة، وينظرون بتكتّمٍ إلى فتحة السّروال الأماميّة الّتي تحمل في مناطق أخرى تسميات مغايرة.

الشّابّة الّتي تجلسُ يمين الّذي يجلسُ عن يميني تنام مسترخيةً تمام الاسترخاء، ومن أحد جيوب معطفها الجميل تخرج نصف شوكة مائدة/ إنّها مجرمةٌ عاديّة.

تبدأ الطّائرة بالاهتزاز/ المرجوّ ربط الأحزمة/ استيقاظ جماعيّ/ تعتدلُ النّائمة المسترخية في جلستها وتخفي الشّوكة بسرعة.

معدتي أيضًا تبدأ بالاهتزاز ومع ذلك أنا سعيد/ هذا ليس وقتًا مناسبًا للتقيّؤ/ تصعد معدتي إلى حنجرتي، وتسلّم إحداهما على الأخرى.

كيف حالك؟ كيف حالك؟/ الوداع أيضًا محرّكٌ للمشاعر.

لأسبابٍ معروفةٍ لم أكن أستقبل زيارات/ إنّه أمر سيّئ ولكنه ليس سيّئًا جدًّا/ عندما يستقبلُ المرء زيارات فإنّه يحزن الأسبوعَ كلّه/ يحاول بلا طائلٍ ألاّ يخاطر كي لا يتلقّى أيّ عقوبة/ ينتظر تلك الزّيارة العائليّة الخاطفة كما لو أنّها أمرٌ خارق، وأحيانًا تكون كذلك حقًّا/ أمّا إذا لم يستقبل المرء زيارات، فلا عقوبة تنفع معه عند ذلك/ يشعرُ المرء أنّه وحيدٌ بشكلٍ قذر، ولكنّه يشعر أيضًا أنّه طليقٌ أكثر وسجينٌ بدرجةٍ أقلّ.

حين كان عمري تسع سنوات، أي تقريبًا في عمر الصّغيرة

بياتريث الآن، كان هناك شيئان تستحقّ الإجازات معهما كلّ العناء/ الشّيء الأوّل هو الجلوس في ساعة القيلولة على درج المرمر، والمؤخّرة باردة، لأقرأ وأقرأ/ هكذا ابتلعتُ كلّ كتب جول فيرن وإميليو سالغاري وحتّى كتاب «طرزان زعيم القرود»/ وتجدر الإشارة إلى أنّ كلمتنا السرّيّة في المدرسة هي «كاغودا»/ والشّيء الثّاني هو الذّهاب إلى بيت الأعمام الصّغير بجانب السّاحل/ ومن سنّ التّاسعة حتّى سنّ الرّابعة عشرة كنتُ أذهب إلى هناك كلّ صيف/ لم يكن هناك أطفالٌ آخرون، ولهذا وجبَ عليّ تدبُّر أموري بمفردي وكنتُ أتسلّل إلى غاية النّهر/ حكيت لغراثييلا في رسالة أو ربّما في مشروع رسالةٍ أو في مونولوج بسيط وأنا بمفردي، كيف أنّني كنتُ أصعد على متن القارب الصّغير وأجدفُ حتّى منتصف النّهر، ولكن في مناسباتٍ أخرى أظلّ جالسًا عند ضفّة النّهر أو مستلقيًا تحت ظلّ أشجارٍ ضخمة، أو هكذا بَدَتْ لي. كان كلّ شيءٍ اكتشافًا: الحجارة والفطريات وحشرات الرّطوبة، أو زوجٌ قذرٌ من الكلاب كانا ذات مرّةٍ يتناكحان مطوّلاً، وإن كنتُ أجهل حينها معنى الرياضة الّتي يمارسانها، وبقيا متلاصقَين وبدا وجهاهما وَجْهَيْ مسكينَين مستسلمَين/ كنتُ أشعرُ بأنّني في مركز الكون ذاته، ورغبتُ في اكتشاف سرّ كلّ قشرةٍ وكلّ حشرةٍ وكلّ طائر، ولم أكن أتحرّك لأنّني أعرف أنّه لا يمكن أن تُتاح لي فرصة اكتشاف ما في تلك الأدغال المصغّرة من حميميّة إلاّ إذا بقيت ثابتًا/ والمثير للفضول هو أنّه لم يخطر ببالي قطّ أن أصيح بكلمة «كاغودا»،

إذ كنت أعرف أنّه ليس للإنذار الطرزانيّ النّهائيّ أيّ مشروعيّة، ما كان لأحدٍ أن يفهمه وما كان لمعناه التّهديديّ أن يضرّ أحدًا/ في ذلك الوضع ظهر ذات صباحٍ في ساعةٍ مبكّرةٍ جدًّا كائنٌ غريب، رغم أنّني عرفت فيما بعد أنّه من الممكن أن يكون جزءًا شرعيًّا من المنظر وأنّه يتمتّع بحقوقٍ أكثر منّي بكثير هناك/ كان طفلاً ولكنّه حافي القدمين وبثيابٍ رثّة/ وعلى وجهه والقدمين والذّراعين وسخ مقزّز/ خفت قليلاً لأنّني، وأنا مستغرقٌ في أحلام يقظتي، لم أكن قد سمعته يقترب أو ربّما اعتقدت أن الضّجّة بين الأغصان تسبّبها الكلاب الضّالّة نفسها، وبما أنّه بدا علي شيء من الخوف فقد ضحك هو قليلاً، ليس كثيرًا، ضحك كما لو أنّه فعل ذلك مُكرهًا، وجلس فوق جذع شجرة مقابِلة/ قلت «مرحبًا» فَنَفَخَ هو/ أحيانًا كان يحرّك الرّأس أو اليدين ليُبعِد الدّبابير/ سألته هل أنت من هنا، فنفخ مرّةً أخرى/ لم أعرف ما عليّ فعله، ولا أيّ مبادرةٍ عليّ القيام بها، وعندئذٍ خطر لي أن ألتقط حجرًا صغيرًا، ورميته صَوْبَ النّهر بعد أن بذلتُ جهدًا كبيرًا، هو أقصى ما قدرت عليه، فغرق هناك ببساطةٍ قرب القارب الصّغير/ إذّاك ابتسم من جديد ونفخ مرّة أخرى، ونهض من مكانه وأخذ هو أيضًا حجرًا صغيرًا، ودون القيام بأيّ جهدٍ تقريبًا وهو يكاد يسحبُ ذراعه جانبًا رمى الحجر أيضًا صوب النّهر، ولكنّ تلك الحصوة التّافهة لم تصل إلى مسافةٍ بعيدةٍ فحسب وإنّما أخذت تقفزُ أيضًا فوق الماء السّاكن نسبيًّا، وحينها أحسستُ بأنّ صدري يمتلئ بالتّقدير والإعجاب، وقلت

له «هذا رائع» وصفّقت وضحكت ولا أدري أيّ أشياء أخرى قمتُ بها حتّى أظهر له مدى انبهاري به. ولأتوّج ما فعلتُ قلت له «إنّك بطل»/ وعندئذٍ نظر إليّ دون أن ينفخ هذه المرّة، ولأوّل مرّة تكلّم/ «أنا لستُ بطلاً لأنّ هذا هو الشّيء الوحيد الّذي أجيد القيام به».

مع هذه الخلفيّة من الذّكريات البرّيّة والطفولة البعيدة أظنّ أنّني بدأت الآن أشعر بنومٍ عميق/ سأحصي جنودا خياليّين عساني أنام.

ومرّةً أخرى: المرجوّ ربط الأحزمة/ هذا جيّد، هذا جيّد/ لا شكّ في أنّني قد نمتُ قرابة السّاعتَيْن/ السيّئ هو أنّني حلمتُ من جديد بإميليو.

بياتريث
(المطارات)

المطار مكانٌ تصل إليه كثيرٌ من سيّارات الأجرة، وأحيانًا يكون مليئًا بالأجانب والمجلاّت. في المطارات يكون البرد شديدًا حتّى إنّهم يجهّزون دَوْمًا صيدليّةً لبيع الأدوية للأشخاص الّذين يمرضون بسهولة. وكذلك أنا، إذْ كنتُ أمرض بسهولةٍ منذ طفولتي. في المطارات يتثاءبُ النّاس كثيرًا، تقريبًا كما في المدارس. في المطارات تزن الحقائب دَوْمًا عشرين كيلوغرامًا، وهكذا يمكنهم توفير إجراءات الوزن. في المطارات لا توجد صراصير، أمّا في بيتي فتوجد لأنّه ليس مطارًا. في المطارات يلتقطون دَوْمًا صورًا للاعبي كرة القدم وللرّؤساء الّذين يظهرون في الصّور بشعرٍ مسرّحٍ جيّدًا، ولكن تقريبًا لا تؤخذ صورٌ لمصارعي الثّيران، ولا تؤخذ مطلقًا للثّيران، ربّما لأنّ الثّيران تحبّ السّفر على متن القطار. أنا أيضًا أحبّ ذلك كثيرًا. الأشخاص الّذين يصلون إلى المطارات يستهويهم العناق. حين تغسل الواحدة منّا يَدَيْهَا في المطارات فإنّها تظلّ أكثر نظافةً ولكن مع شيءٍ من التّجعّد. لديّ صديقةٌ تسرق

ورق المرحاض من المطارات لأنّه، على حدّ قَوْلِهَا، أكثر نعومة. الجمارك وعربات الأمتعة هي أجمل ما في المطار. في الجمارك يجب فتح الحقيبة وإغلاق الفم. تسير مضيفات الطّيران بعضُهنّ مع بَعض حتّى لا يَتُهْنَ. مضيفات الطّيران أجمل بكثيرٍ من المعلّمات. أزواج المضيفات يسمّون طيّارين. حين يصل أحد المسافرين متأخّرًا إلى المطار، يكون هناك شرطيٌّ يمسك بجواز السّفر ويضع له ختمًا ويقول: «هذا الفتى وصل متأخّرًا». ومن بين الأشياء الّتي تصل أحيانًا إلى المطار أبي مثلاً. المسافرون الّذين يصلون، غالبا ما يجلبون هدايا لبناتهم الحبيبات ولكنّ أبي الّذي سيصل غدًا لن يحضر لي أيّ هديّة لأنّه كان سجينًا سياسيًّا لمدّة خمس سنوات، وأنا أتفهّم ذلك كثيرًا. نحن نتردّد على المطارات خصوصًا حين يأتي أبي. وحين يُضرِبُ المطارُ، يكون الحصول على سيّارة أجرةٍ إلى المطار أسهل بكثير. بعض المطارات فيها إضافة إلى سيّارات الأجرة طائرات. وحين تُضرِبُ سيّارات الأجرة لا يكون بإمكان الطّائرات الهبوط. سيّارات الأجرة هي الجزء الأهمّ في المطار.

الآخر
(أوان الارتجال)

عند هذا الحدّ لم يعد رولاندو أسويرو يسأل نفسه. فقد صَنَعَ لَهُ بصعوبةٍ بالغةٍ إجابةً، إضافة إلى أنّه اقتنع بها اقتناعًا صادقًا. هو لا يفكّر الآن إلاّ في الذّهاب إلى المطار ومواجهة الماضي والحاضر والمستقبل مَعًا. الرّاجح أنّ غراثييلا محقّة، وأفضل حلٍّ هو الارتجال. الارتجال حول موضوعٍ ثابتٍ، هذا واضح. ولكن ما العمل حينما يصل سانتياغو ويحضنها ويحضن بياتريث بشدّةٍ كأنّه يحضن ما يربطه بالحياة والذّنب الّذي اقترفه؟ ما العمل؟ أين يمكن وضع اليدين؟ صوب أيّ مكانٍ يمكن النّظر؟ ما العمل حين يحضن سانتياغو رفائيل، ويداعبُ أبوه قليلاً قفاه، لأنّ ذلك تعبيرٌ خاصٌّ بهذا الجيل المتقاعد الّذي يتراجع إلى المواقع الخلفيّة. واللّعنة، ماذا سيفعل خصوصًا حينما يعانقه ويقول له «يا للحظّ أن تكون هنا في استقبالي أيّها الدّوق. جئت على متن الطّائرة أفكّر فيك، سيكون من الواجب إعادة جمع العصابة القديمة، ما رأيك؟» وأيّ تعبيرٍ سيعتلي وجه غراثييلا حين ينظر إليها، في منتصف العناق، من فوق

كتف سانتياغو. ومع ذلك، يعتقد أنّ اللّحظات الأسوأ ستأتي فيما بعد، حين تخبره غراثييلا أخيرًا، ويبدأ القادم لتوّه بإعادة بناء مشهد المطار، ويجد نفسه سخيفًا إلى درجةٍ لا تتصوّر، وسيحتقر نفسه ويحتقرنا لأنّنا جميعًا نعرف السّيناريو ما عداه هو، ويبدأ بإعادة تذكّر مشهد القبلات الّتي طبعها على وجه غراثييلا أمامي، وعناقه لي أمام غراثييلا، وسيكون من القسوة الحادّة تجاوز ذلك الماضي الّذي يبقى هناك على بعد ساعاتٍ فقط. كيف يمكن إقناعه بأنّ كلّ شيء حدث بشكلٍ تلقائيّ، وأن لا أحد تعمَّد ذلك، وأنّ تلك الزّمالة القديمة بين السّبعة كانت بشكلٍ من الأشكال التّربةَ الخصبة لهذا التّقارب، وفي النّهاية التّربةَ الخصبة لهذا الحبّ. لأنّه حبّ يا سانتياغو وليس مجرّد علاقةٍ عابرة، هذا أفضل شيءٍ وأفظع شيءٍ معًا، يفكّر رولاندو، هذا ما يبرّر في آخر المطاف ارتباطنا إنسانيًّا أنا وغراثييلا، ولكنّه أيضًا ما يحوّل سانتياغو إلى خاسرٍ مجبرٍ. مجبر؟ السّؤال المنطقيّ هو هل سيستسلم أم سيحارب، هل سيقبل بالأفعال العنيدة، أم سيقول لغراثييلا، لاعبًا ورقة رباطة الجأش الذّكيّة، «دعينا، لن نقرّر شيئًا اليوم، خذي بعين الاعتبار أنّني وصلت للتوّ، خرجت للتوّ من السّجن، وعليّ أن أتعوّد لا على هذا الوضع الجديد وحده وإنّما على العالم بشكلٍ عامّ، سيكون من الأفضل أن نتكلّم، أنا لا أقول الثّلاثة، وإنّما نحن الاثنان فقط نحن اللّذان اقتسمنا قصصًا كثيرة بأربع أياد، لماذا علينا أن نعتبر الأمر منتهيًا في حين أنّ الوقت كلّه أمامنا، قبل أن نقرّر دعيني أستمتع قليلاً ببياتريث، دعيني أتكلّم معها مطوّلاً، ليس عن هذه المشكلة كُوني مطمئنة، آخر ما

أطمح إليه هو إلحاق الأذى بصورتكِ أمامها، سأتكلّم أيضًا مع رولاندو ولكن فيما بعد، إذ يبدو لي كلّ شيء صعب التّصديق في الوقت الحاضر، وفي كلّ دقيقةٍ أتوهّم أنّني سأستيقظ من غفوة أخرى في الطّائرة». بالمناسبة، هذه بطبيعة الحال صيغةٌ محتملة جدًّا، لا سيّما أنّه يعرف سانتياغو الّذي يتمكّن في غالب الأحيان من كبح جماحه إذا اعتزم ذلك، يتعلّق الأمر في هذه الحالة أساسًا بعدم فقدان الهدوء وعَدم فقدان المرأة أيضًا. يفكّر رولاندو بأنّ هذا ما سيفعله لو أنّه في مكان سانتياغو. هو يمسك في هذه اللّحظة بشعر أحد العارضَيْن ويرفع حاجبَيْه. هو يريدُ أن يصل كلّ شيء في أقرب وقتٍ إلى نهايته. في الحقيقة، غراثييلا هي الّتي تمتلكُ القرار الأخير، بما أنّ سانتياغو من جهة، وهو من جهةٍ أخرى، يريدان المكوث معها، والنّوم معها، والعيش معها. وربّما في هذه النّقطة بالتّحديد يسجّل هو، رولاندو أسويرو، تفوّقًا بسيطًا على سانتياغو، إذ بدا له من خلال علم دلالات الأجساد أنّه هو وغراثييلا يتفاهمان بشكلٍ رائع، وأنّها منحته بالإضافة إلى ذلك في الفترة الأخيرة وفي مناسباتٍ متكرّرة ضمانًا حنونًا، ضمانًا شرسًا تقريبًا، بأنّها ستستمرّ معه لا مع سانتياغو. ولكنّ تفوّق سانتياغو يمكن أن يسمّى الصّغيرة بياتريث، ففي ضوء الأحداث والقرارات، إذا أراد سانتياغو أن يأخذها معه، فإنّه ليس على يقينٍ تامّ بأنّ غراثييلا، باعتبارها أمًّا تحكمها الغريزة مثل لبؤة، ستستسلم هكذا بكلّ بساطةٍ لضياع طفلة، هي بالإضافة إلى كلّ ذلك منبهرة بشكلٍ طبيعيّ بأبيها الّذي قضّى خمس سنواتٍ في السّجن، وهو يمثّل بالنّسبة إليها شيئًا جديدًا تمامًا. المهمّ، يقول

رولاندو أسويرو لنفسه وهو يتقدّم صوب المطار، هل يمكن أن نصف هذا الوضع، يا ترى، بأنّه معقول، إذا لم نصفه بأنّه مثاليّ؟ أيّ فائدة عميقة يمكن لسانتياغو أن يكسبها من ارتباطٍ بالإكراه، فتكون الطّفلة الصّغيرة مجرّد أداةٍ للابتزاز؟ بالمناسبة هذه الكلمة لا تعجبه، فهو يعترف أنّ فيها عدم احترامٍ لسانتياغو، ويقرّر أن يمحوها من ذهنه. ولكنّ الكائن البشريّ يتصرّف أحيانًا تصرّفاتٍ غير متوقّعة. وقَدْ يفضّل سانتياغو أن تكون غراثييلا معه في علاقة متردّية على أن تكون في سرير رجلٍ آخر، وإن كان ذلك الرّجل الآخر صديقًا حميمًا، أو لعلّه تحديدًا بسبب هذه النّقطة الّتي ليست تافهة على الإطلاق. المهمّ، ها هو المطار أخيرًا، ورولاندو ينزل من الحافلة وهو شاردٌ تمامًا حتّى إنّه كان على وشك السّقوط بسبب إحدى درجات السّلّم.

خارج الأسوار
(وصول Arrivées Arrivals)

أشعر أنّني غريب، أشعر أنّني غريب وأنا أطأ هذه الأرض/ من حسن الحظّ أنّ السّماء تُمطر/ مع المطر ينتظم النّاس في أزواج وتصبح المظلّة قاسمًا مشتركًا للإنسانيّة/ على الأقلّ الإنسانيّة المحميّة.

أشعر أنّني غريب، لكنّني سأتجاوز هذا الشّعور/ لا أحد يموت لأنّه غريب بالرّغم من أنّه يمكن أن يموت فعلاً إذا بَدَتْ له الأشياء غريبةً، وما يحدث هو أنّ أشياء كثيرة اجتمعت/ الخبر/ وداع رفاقي هناك/ الإجراءات اللّعينة/ تكشيرة الضّابط ما قبل الأخير المتبجّحة/ غابة سنديان/ الخروج دون أن أجد أحدًا في استقبالي/ الرّحلة، الرّحلة الطّويلة بأحلام وإمعانٍ في التّفكير وبمشاريع/ حسنًا، ووجبات الطّعام/ كيف لا أشعر بالارتباك بعد خمس سنواتٍ من تناول ذلك الطّعام الرّديء.

الموظّف الّذي ينظر طويلاً في وثيقة الهويّة/ في الحقيقة أربع دقائق يمكن أن تكون أبديّة/ «من فضلك هل تسمح بنزع القبّعة»،

ومقارنة دقيقةٌ مع الصّورة/ جِدّي وخبيرٌ دَوْمًا في الآن نفسه، وهذا واحد آخر/ أجل واحد آخر/ أنا أيضًا بالغ الخبرة/ عندئذٍ فقط يبتسم ويتحوّل الوجه الصّارم إلى وجهٍ هنديٍّ جذّاب/ «حظًّا سعيدًا يا صديق»/ قال لي حظًّا سعيدًا يا صديق.

والآن يجب انتظار الحقائب/ حقيبتي، حقيبتي المسكينة هل ستأتي أم لن تأتي/ هذه العمليّة ستحتاج إلى وقت/ والّذين ينتظرون/ حشد الرّؤوس خلف الزّجاج/ لو كان بإمكاني رؤيتهم، لو كان بإمكاني أن ألقاهم.

ولكنّهم هناك/ إنّهم هم، طبعًا إنّهم هم/ إنّهم من شرق الأوروغواي: إمّا الوطن أو القبر/ يا عمّال العالم اتّحدوا/ حمدًا لله وجدتها/ زرقاء سماويّة اللّون هيْ هو هيْ هو/ سيّارة فيات فاخرة، اعرف نفسك بنفسك، الوطن أو الموت سننتصر/ عاش الّذين يناضلون/ اللّعنة يا للسّعادة.

غراثييلا وأبي، وذلك الشّيء الصّغير الرّائع الّذي يُفترَضُ أن يكون طفلتي/ غراثييلا الجميلة/ والقول إنّ تلك المرأة هي امرأتي/ بياتريث الصّغيرة، يا للحفل الّذي ينتظرنا/ وذلك الشّخص الآخر الّذي يرفع ذراعيه/ إنّه الدّوق يا أصدقاء/ إنّه دوق الهندباء شخصيًّا.

بالما دي مايوركا، من أكتوبر 1980 إلى أكتوبر 1981.

ماريو بنيديتي

ربيع في مرآة مكسورة

بين السجون والقمع والمنافي وساحات النضال في «قارّة تشتري بالدم حقها في أن تكون حرّة» تدور أحداث رواية «ربيع في مرآة مكسورة».

ولعبة المرآة ركن مركزيّ في هذا العالم الروائيّ، فالمرآة فيه سائلة تتراقص عليها صور متقاطعة من تفاصيل الإنسان وهو يتردّد بين صلابة الموقف وهشاشة العاطفة؛ سجين وراء الباب يستجير بالذكريات والخيال من كلمات عذّبها السجن، وفي الخارج زوجة تلوذ بالحلم، وطفلة يعذّبها الحلم، وأبٌ على موقد الانتظار يختبر قابليّته للتحوّل إلى رماد وعدم قابليّته للاحتراق.

لكنّ انفتاح الباب وتسرّب الضّوء لا يكفيان معًا لإصلاح زاوية واحدة مكسورة في المرآة، ففي الخارج تحتشد الفصول لاستقبال سنتياغو إلاّ فصلًا واحدًا هو الربيع، وإن كانت زاويته مكسورة!

رضا الحسني

ISBN: 978-9938-24-042-9
9 789938 240429

